
"تعانق الواقعية السحرية مع المغامرة في هذه الرواية"
Telegram:@mbooks90
الجلاد الصيني
暗黑
بول كافجاك
ترجمة: د. هدى خليل
العربي للنشر والتوزيع
روايات مترجمة

الجلاد الصيني

تأليف: بول كافتشاك
ترجمة: هدى خليل

تحرير: هدى فضل
مُراجعةٌ لُغوية: كارم أحمد

الطبعة الأولى 2024
رقم الإيداع: 2023/14944
الترقيم الدولي: 9789773198701

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة - مصر
ت:27921943 (202+) - 27954529 (202+)، ف:27947566(202+)
www.alarabipublishing.com.eg



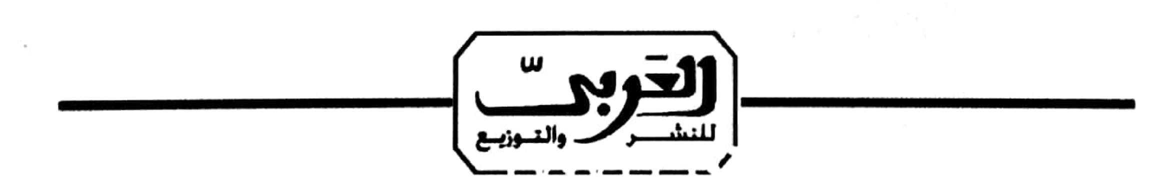
تصميم الغلاف: عبد الرحمن ناصر

بول كافتشاك

الجلاد الصيني

روايةٌ مِنْ كندا

ترجمتها عن الفرنسية: د. هدى خليل



"لقد قُطِّع التاريخ وشُوِّه، مثلما تُشوَّه الجثث البشرية. أما العنف، فهو أيضًا يُستوعب تدريجيًا مع إضفاء الطابع المؤسسي عليه وإخفاؤه. نحن لا نعرف أين نحن، أو ماذا أمامنا. نحن لا نرى عنف التاريخ ولا عنف الدولة. ولهذا السبب نحتاج إلى التأمل في صور الرعب واختراقها. أليست الهاوية المظلمة للجروح هي الاختبار ذاته الذي علينا اجتيازه للوصول إلى حالة من تحقيق الذات الكامل والاستسلام؟".

"ثين شييه جن"

عالم أوبئة وسياسي تايواني

شغل منصب رئيس وزراء جمهورية الصين

"تستنتج جميعًا إذن أنه في الفترة من عام 1880 إلى عام 1930، اختفى نحو عشرة ملايين كونغولي - أو على الأقل أكثر من خمسة ملايين - بصفتهم ضحايا التطور الحضاري".

"إيزيدور إندايول إيه إنزيم"

مؤرخ زائيري شهير

مدير مكتبة زائير الوطنية ورئيس جمعية المؤرخين الزائيريين (1993).

أستاذ متفرغ في جامعة كينشاسا، جمهورية الكونغو الديمقراطية (في عام 2009)

"يؤدي هذا التراكم الأولي في الاقتصاد السياسي دورًا يماثل - على وجه التقريب - الدور الذي تؤديه الخطيئة الأصلية في اللاهوت. رأس المال يقطر دمًا وقذارة من جميع مسامها".

"كارل ماركس"



ظلَّ "هنري مورتون ستانلي" يضرب رجلًا حتى قتله. صبي حمَّال، ربما هو في الخامسة عشرة من عمره، أصله من الكونغو من مدينة "ميندولي"، ومُعَيَّن في مدينة "ماتادي". لا يوجد وقت للفهم، فقد تناثر جلده الرقيق في كل مكان. غُمِرَتِ الحشائش العالية بأصوات الصيحات والدموع والدماء وردية اللون. استغرقت الكلاب بعض الوقت قبل أن تترك الأعضاء النحيلة الجامدة. لقد أخافت الكلاب الصبي أكثر مما أخافه الموت. لطالما أخافته الكلاب. تُرِكَتِ الجثة هنا.

استأنفت القافلة سيرها. غُطِّيَ نحو خمسمائة وستين كيلومترًا - وفقًا لتقديرات "ستانلي" - من هذا اللغز الإفريقي منذ بداية البعثة. يصعب على المرء تخيُّل درجة الكراهية التي من شأنها أن تُحفِّز تقدُّم الرجال في أدغال إفريقيا الاستوائية في عام 1883، حين وعد ملك بلجيكا "ليوبولد الثاني" بمكافأة أيضًا لأولئك الرجال. كانت كراهية بيضاء، كراهية مَرضِيَّة كمن يرتجف في الحرارة التي لا تُطاق، كراهية مليئة بالأمراض، كريهة، ككراهية الجثث النحيلة تجاه الحشرات الرطبة.

كراهية بيضاء، متعطشة إلى البلد الذي تكرهه ككرهها حياتها الخاصة، كراهية شديدة، تشبه الفاحشة، كراهية تُسبّب الارتجاف من شدة الإثارة.

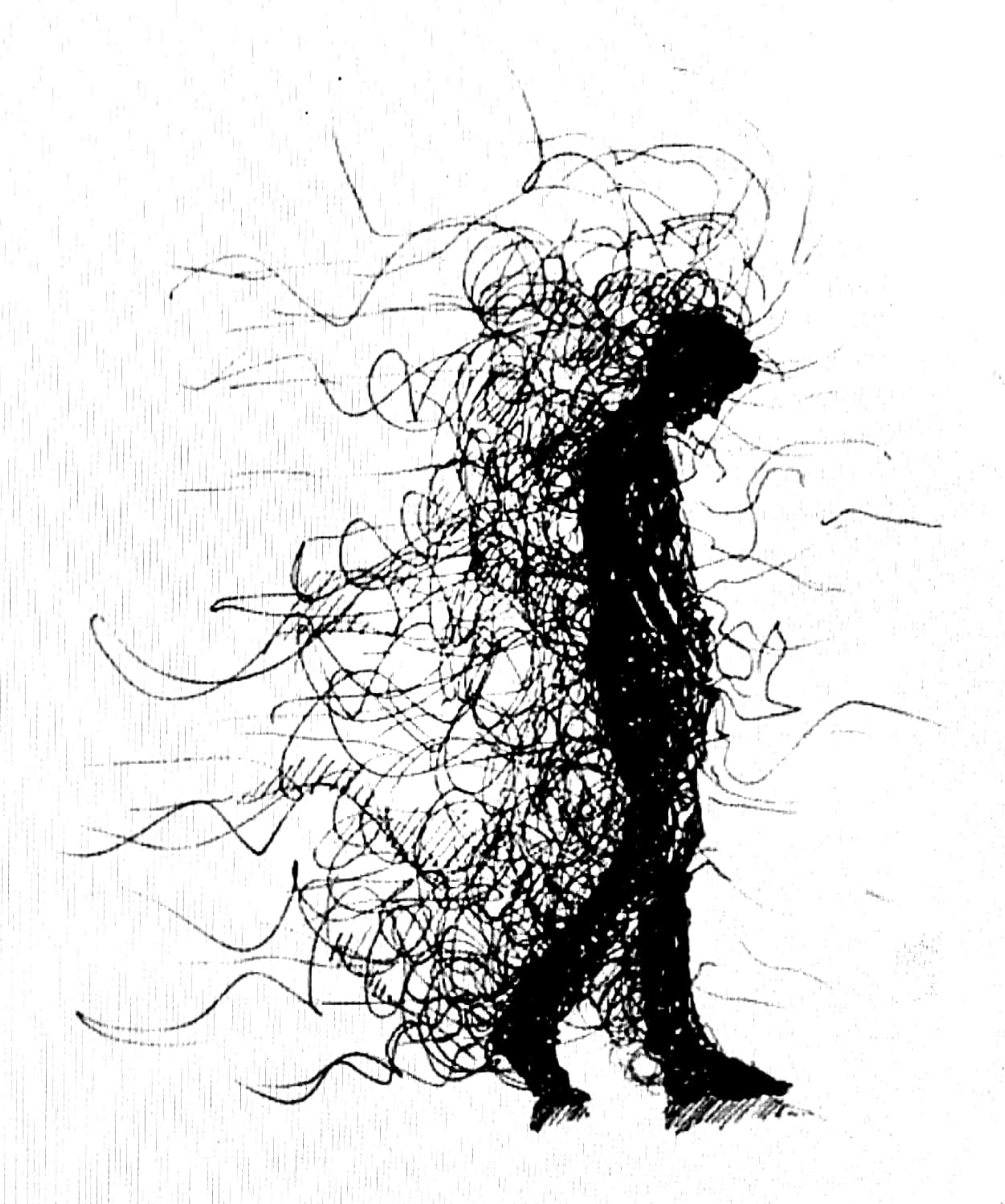
لم يكن لـ"ستانلي" سبب معين لقتل هذا الحمّال. فـ"ستانلي" مستكشِف. اكتشف "ستانلي" "ليفينجستون". "ستانلي" مغامر. "ستانلي" مشهور عالميًا. "ستانلي" وحش. "مينوتور" يخوض متاهته، ويطالب بالجثث والأراضي، ومجده وقوته يتزايدان. فـ"المينوتور" هو وحش الملك. والملك هو وحش العالم. أما العالم فيلتهم أطفاله. هكذا بدأت قصة الغرب وهكذا ستنتهي. في دول إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، في عام 1880، كان هدير "ستانلي" المليء بالكراهية ينبئ بانهيار قادم وبوفاة بالملايين.

القصة الآتية ليست قصة ضحايا استعمار إفريقيا، وإنما هي قصة الناجين منهم. قصة انتحار أبيض في عالم يفتقد الإله. قصة شاب منسي في متاهة من الكراهية والعمى: قصة تفكيك وتشويه "بيير كلايس".

1

رحلة "كلايس" الاستكشافية الأولى .

سبتمبر 1890 - أبريل 1891



"الوداع يا حبيبتي"...

لم يكن "ماسون" ولا "ديكسون"، ولكنه ما زال مسّاحًا. قسّم مؤتمر "برلين" إفريقيا إلى ما يُشبِه عدل الملك سليمان وحكمته في التوراة، مضافًا إليه بعض التعديلات ليواكب الذوق الحديث المليء بالشراسة. ومع غياب الشفقة الثي تمنحها الأم، قطّع أصحاب الجلالة – الغرب - اللحمَ وهو حي؛ هكذا كان التعامل مع الأراضي الإفريقية في عام 1885. ومع ذلك، بقي سؤال عملي: كيف يمكن ترسيم الحدود بين تلك المساحات الهائلة.. حدود قارة غير مرئية للعين البيضاء؟ لم يطرح مؤتمر "برلين" سوى تقسيم نظري للأراضي الإفريقية، وقرر القواعد الغامضة

والشرهة التي بموجبها ستشوّه القارة.

شرعت إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وألمانيا دون تحفظ في الالتهام والاستحواذ على الرجال والنساء والنباتات والمواشي والأراضي والمياهُ والتربة والسماء، كل شيء كان مباحًا سلبُه من هذا الغريب الغني. حضارة برجوازية بأكملها، ذكورية ومريضة، مهووسة بالإنتاج، وقد استُنزِفت طاقتها من العمل المفرط، كل جمجمة منها مريضة بأحلام فرضت نفسها بإثارة وبعنف في خيال يرى الأرض كأنثى خصبة، خيال يمثل حواء سوداء جديدة متاحة للاغتصاب في الليل الأبيض، بلا هوادة، مسببًا لها نزيفًا يهدر كنوزها. مستهزئًا بحنانها الأمومي من خلال الصراخ في الموت الشاحب على وجهها الذي يشبه وجه الإلهة الخامل. أبحر رجال شرسون في أنهارها وعبروا صحاريها وحشائش السافانا وغاباتها ثم التقوا.

في ربيع عام 1887، دارت هذه الأحداث عند الحد الشمالي لدولة الكونغو الحرة الجديدة، وهي مِلْك لملك بلجيكا "ليوبولد الثاني" فقط. وجدت كتيبة من الفيلق الأجنبي الفرنسي المسؤول عن استكشاف حدود إفريقيا الاستوائية الفرنسية موقعًا لباكورة إنتاج المطاط البلجيكي. ادَّعى كل منهما أن ملكية الأرض تعود إلى لبلده. واحتدّ الموقف ثم أطلق الجنود المرتبكون النار. فقُتِلَ أحد عشر مدنيًا بلجيكيًا وثلاثة وعشرون من السكان الأصليين. وبعد بضعة أشهر، أسفر حادث مشابه عن مقتل أربعة عشر شخصًا بالقرب من الحدود السودانية. ثم وقع حادث آخر في العام التالي أودى بحياة ستة أشخاص في المكان نفسه، ثم وقع حادث آخر في وقت لاحق على الحدود الشمالية وشهد أيضًا مصرع ثمانية أشخاص.

شكَّلت ثروات الكونغو مطمعًا بشكل خاص في أثناء المراحل التي أدت إلى انعقاد مؤتمر "برلين". وتحايلت فرنسا وإنجلترا بالسبل كافة من أجل زحزحة الحدود لمصلحة كل منهما، حتى لو أدى ذلك إلى استدراج بلجيكا إلى صراع مسلح محليٍّ لم يكن مرجحًا لها بالانتصار فيه. سعت أوروبا في ذلك الوقت للتدمير الذي جنى على أراضيها الخاصة بعد ربع قرن. ومع ذلك لم ترغب فرنسا ولا إنجلترا في التسبب علنًا في اندلاع صراع. ولقد تأكد "ليوبولد الثاني" من ذلك، فاختار اللعب على الشرعية. ولقد وجد أن الحدود الشمالية غير واضحة ويمكن أن تصبح مصدرًا للنزاع. فلم يوجد إلا شيء واحد لفعله ألا وهو إضفاء الوجود الواقعي لهذه الحدود، ثم رسم مسارها الدقيق نهائيًا على خرائط مفصَّلة ودقيقة. ويعتبر "ليوبولد الثاني" بكل تأكيد هو أحد المُحرِّضين الرئيسيين لمؤتمر "برلين" والعنف الاستعماري في هذه الحقبة المليئة بالجشع والشهوات الوضيعة. ولقد أخذ في الاعتبار إستراتيجية اتخاذ قرارات لا تستدعي اللجوء لأصدقائه لأصدقائه المصرفيين ولا إلى رئيس الأركان، بل كانت لديه فكرة معقولة أشيع أنها

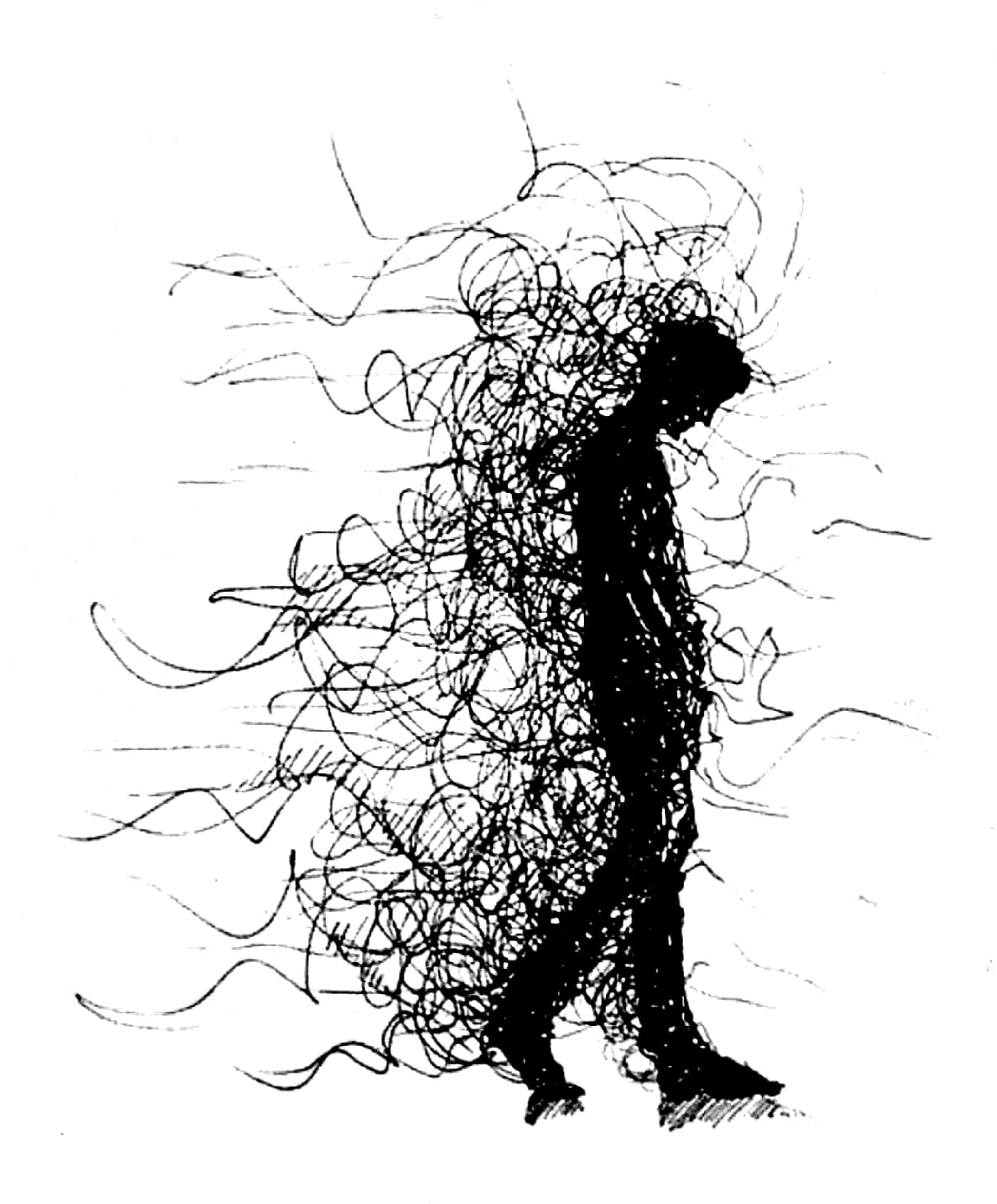
كانت مُقترَحة عليه من زوجته "ماري أنرييت دو هابسبور - لورين" أرشيدوقة النمسا وأميرة "بالاتين" من المجر، وهي امرأة فاتنة، مفعمة بالنشاط، وشغوفة بركوب الخيل للدرجة التي جعلتها تُقدِّم العناية لخيول القصر الإمبراطوري بنفسها. وكان اقتراحها عليه أن يطلب مساعدة مهندس مساحة ذي حُنكة وخبرة.

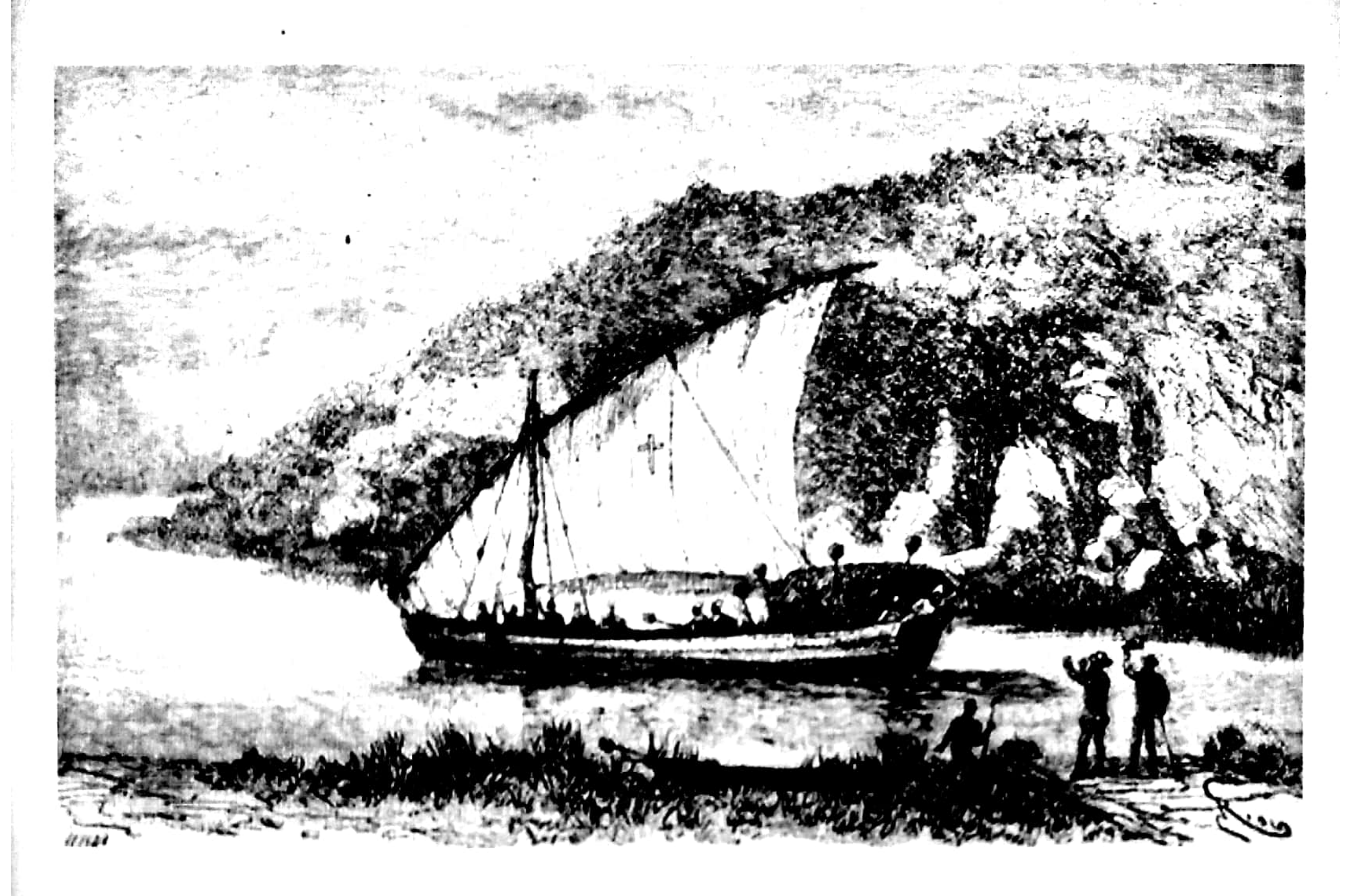
وجدير بالذكر أن "ماسون" و"ديكسون" قد وضعا حدود "ماريلاند" مع "ديلاوار" و"بنسيلفانيا" في القرن الماضي. ولكن من سيطلب الفلك مساعدته هو مهندس مساحة آخر ممتاز وواعد للغاية، على حد قول أساتذته وزملائه من جمعية مهندسي مساحة بلجيكا في "أنفير". "بيير كلايس" من مواليد "بروج"، لم يُتِم الثلاثين من عمره بعد، ولغته الأم هي الفلمنكية، ولكنه يجيد الفرنسية بطلاقة، وله لَكْنَةٌ جنوبية واضحة وغريبة مع أنه لم يذهب إلى الجنوب من قبل. وقد أسفرت التوترات الإقليمية التي أفسدت علاقة بلجيكا بجيرانها الاستعماريين إلى تكليفه بأن ينزل إلى أرض الواقع بين السكان الأصليين والحيوانات الشرسة، ليحدد بدقة جزءًا من الحدود الشمالية لدولة الكونغو الحرة وينقلها بدقة على الخرائط الرسمية؛ في المكان نفسه الذي سبق أن حدده الغزاة - البرجوازيون ذوو اللحى الكبيرة - على الخريطة كمصير بلد برسم متعجِّل، وقد طُلِبَ من "كلايس" أن يُجسِّد على الأراضي البرية المخطط الدقيق لما سمَّته أوروبا آنذاك بـ"التقدم".

غادر "بيير كلايس" أوروبا من "أنفير" يوم 10 يناير 1890 على متن السفينة الإنجليزية "فيكتوريا". واستغرق الإعداد العلمي واللوجستي للمهمة ستة أشهر، وهو الحد الأدنى للمغامرة في عمق ما سماه الرأي العام البلجيكي بـ"الكونغو مينوتور". ولو أدرك مهندس المساحة الشاب - مثل الجميع في ذلك الوقت - أن عدد الرجال العائدين من إفريقيا أقل ممن يسافرون إليها، لفقد الثقة بالتعداد الدقيق للوفيات التي يعلنها موظفو الخدمة المدنية البلجيكية في المستعمرات من كثرة إخفائها. وتنص اللوائح المتعلقة بموظفي دولة الكونغو الحرة، في المادة 4 على أن يتعهد الموظفون بعدم تسريب أي شيء بخصوص شؤون الدولة لأي شخص لا ينتمي إلى النظام الإداري. لم يكن "بيير كلايس" يعرف في عام 1890 أن معدل وفيات الموظفين الحكوميين الإقليميين الذين يعملون بالكونغو هو واحد لكل ثلاثة، وذلك دون حساب حالات الإعاقة البالغة وأحيانًا المستديمة التي كانت تتسبب فيها الأمراض الاستوائية. ولكونه موظفًا جيدًا للدولة، فقد ركَّز اهتمامه قبل كل شيء على إنجاز مهمته، والمضي قدمًا في المغامرة التي تخيلها مثيرة وجميلة مثلما قرأ بشغف من قبل في كتب اللغة الإنجليزية حينما كان في سن الخامسة عشرة وحتى سن العشرين. ولقد غادر بلده في ذلك اليوم غير آسف، بل تملَّكه بعض الفخر لإيمانه بالمشروع الذي سيحقق التحضر لبلده، وكان معتدًّا بنفسه، واثقًا بمَلِكِه وكان الجو جميلًا يوم

أن غادر بلده، حتى إنه تساءل في سن مبكرة كيف لهذه السماء الزرقاء أن تكذب؟ حتمًا سوف يعود.

بيد أن خرائط القارة السوداء كانت ناصعة البياض آنذاك وتحتاج إلى أنْ تُرسَم. فهذا الامتداد البكر على الخريطة المسطحة جعلت الفتيان الصغار يحلمون، في حين أرهقت الرجال في غاباتها المظلمة وكشفت عن قسوة قلوبهم بالكامل. إن هذه النقطة العمياء الغائبة عن الخرائط هي النقطة العمياء نفسها الغائبة عن الروح. وكان في وسط النهر قبطان أجنبي على باخرة صغيرة يحاول أن يكون بعيدًا عن جنون الأرض الثابتة لكي يحافظ على رجاحة عقله، إلا أن مهمة "بيير كلايس" تأبى إلا أن تقوده بانتظام إلى البر.





أبحرت الباخرة "فيكتوريا" نحو إفريقيا بعد توقف قصير في "ساوثهامبتون". وتلاشت في الأفق السواحل الأوروبية التي لن يراها "بيير كلايس" ثانية لمدة طويلة.

دخلت الباخرة "فيكتوريا" ميناء "ماتادي" يوم 20 مارس 1890. ومع أن الركاب كانوا يمتلكون الوقت الكافي لاعتياد المناخ الاستوائي تدريجيًا على متن السفينة، فإنهم قد شعروا بصدمة عند التعرض للحرارة الحارقة. لقد أرسِلَت حقائب الوافدين الثقيلة فور وصولهم إلى مستودعات خاصة حتى لا يُضطروا إلى القلق بشأنها. وتسبب الاحتشاد الأسود على الأرصفة الخشبية في إصابة الركاب من الجنسين بهول الصدمة، حتى إنهم عبروا جسر النزول بتردد واحدًا تلو الآخر في مجموعات هادئة مدهوشة من هذه الأجساد السوداء التي بالكاد يميزونها، والتي تمشي وتجري وتتكلم وتصرخ وتنظر بطريقة مختلفة. ومع أن تلك الأجساد بشرية بشكل لا يمكن إنكاره، فإن البعض تمنى في قرارة نفسه عكس ذلك. حتمًا لم يخالج البيض الشعور بأن هؤلاء الزنوج - كما يُطلِقون عليهم - أشقاؤهم في الإنسانية. فمنذ أن وقعت عيونهم عليهم شعروا بالكراهية تجاههم وتعاملوا معهم بلا روح. ولقد اجتاح عابري الجسر هذا الشعور، فانتابهم الخوف.

وقفت العربات الصغيرة التي تجرها الثيران، والتي تصل حمولتها إلى ثمانية أشخاص معًا على أحد مسارات الميناء الوعرة، في حالة انتظار بالقرب من الأرصفة. حدث شيء قلّما يحدث في الكونغو آنذاك، فقد ركب "بيير كلايس" على متن إحداها إلى جوار امرأة بيضاء شابة

إسكتلندية من "سان أندروز". وصلت مع خطيبها إلى الكونغو وبقي على مقربة من القارب، لضمان التفريغ السليم لأمتعتهما على أن يلحق بها في بيت القساوسة للإقامة هناك بضعة أيام، ثم يرحلان بعد ذلك إلى "ليوبولدفيل"، ومنها إلى وسط البلاد، لتأسيس مجتمع ديني. فخطيبها كاهن إنجيلي قد اشترى قطعة أرض من بين الأراضي الشاسعة، وأشرف على استصلاحها عن بعد. وكانت بالجوار بعض المساكن البدائية. وكانت الخطة أن يتزوجا في "ليوبولدفيل"، على أن يمضيا شهر العسل في رحلة طولها أربعون كيلومترًا عبر الغابة ركوبًا على ظهر الثيران.

سألت "بيير كلايس" بلغة فرنسية ضعيفة:

- هل حقيقي أن المناخ الاستوائي يصيب النساء البيضاوات بالعقم؟

أجابها مهندس المساحة إجابة مُطَمئنة وذكر لها أن العديد من الأطفال قد وُلِدُوا فعلًا لنساء بيضاوات في الكونغو. إذن يمكنها أن تنجب لزوجها سلالة قوية. ثم إن الموز الموجود بوفرة في الكونغو يعتبر حصة غذائية مثالية توفر لأطفالها كل ما يحتاجون إليه. ناهيك بحليب النساء السوداوات الذي يقال إنه غني بالبروتين بشكل خاص.

- وأنت يا سيدي، أتنتظر أيضًا زوجة شابة قادمة من أوروبا؟

لاحظ "كلايس" طريقتها الغريبة في التحديق إلى من تُحدّثهم.

- لا يا آنستي، فأنا مكلف بمهمة من الملك.

حين بلغ مكاتب الإدارة الاستعمارية لدولة الكونغو الحرة، نزل من العربة أولًا لأنها أقرب من البعثة الكنسية التي تتجه إليها في "ماتادي". ثم عقد العزم على زيارة الزوجين حينما ينتهي من مهمته بنجاح، ويحظى بمكانة عالية تُمكّنه من كسب ودها.

***

لم يبقَ "بيير كلايس" في "ماتادي" إلا خمسة عشر يومًا. وكان في إمكانه البقاء مدةً أطول - على نفقة الملك - لكنه أرسل معداته إلى "ليوبولدفيل"، فلم يرَ أي سبب للبقاء طويلًا. وكونه شابًا يُكِنُّ الولاء للملك، فإنه يشعر ببعض الإثارة لإقباله على مغامرة لا يملك لها الخبرة الكافية. ولهذا فقد آثر أن يخترق الأراضي على الفور، ليزيل هذه الإثارة المشوبة بالتوتر.

كانت هناك شخصية واحدة فقط أثّرت فيه في "ماتادي"، بين المسؤولين البيض وغيرهم من الموظفين الاستعماريين الذين تغلب عليهم الرتابة. إنه "هيرمان فون فيسمان"، ألماني الجنسية، عمل لدى "ليوبولد الثاني" بين عامي 1884 إلى 1886. ووصلت سيرته إلى مسامع "بيير

كلايس" في "بروكسل". وقد شارك "فون فيسمان" في استكشاف نهر "كاساي"، فأصبح مدرجًا لملاحة السفن. وكانت قد شاعت أسطورة حول هذا الرجل - الذي عُيِّنَ موظفًا حكوميًا ألمانيًا "رايخسكوميسار" في شرق إفريقيا التابعة لألمانيا - أنه قد عبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب، وهذا ما يُعد إنجازًا في ذلك الوقت، لم يستطع سوى عدد قليل من البيض التباهي به.

كان رجلًا قصير القامة، تقدَّم في العمر قبل أوانه بسبب مغامراته، وكانت ملامحه ستينية في حين لم يكن قد تجاوز الخمسين بعد. وقد عاد من إحدى رحلاته ومعه قردة تُدعَى "لي لي" كان يُلبِسها كالصبي، وقد بدت على وجهيهما ملامح الإرهاق. اعتاد أن يمضي ساعات طويلة بصحبتها - يُقلِّد كل منهما الآخر في الحركات العصبية اللاإرادية - على الشرفة الكبيرة ذات الطراز الاستعماري في مقهى "ليوبولد". جلس هذا الرجل القصير يحتسي كوبًا من الشاي الدافئ. وقد أشيع عنه أنه ضابط لا يَرحَم ولا يتسامح تجاه أي معارضة ضد التقدم الأوروبي في إفريقيا. وقد سبق له أن أحرق عدة قرى وأعدم العديد من السكان الأصليين. وتداول الناس شائعات بأنه يقطع الأعضاء التناسلية الذكرية للأشخاص السود ويجففها ليطحنها إلى مسحوق يشربه مع الشاي من أجل الحصول على قوتهم الجنسية الأسطورية. وقد تحدَّث إلى نفسه بصوت خفيض في وقت متأخر من الليل في "ماتادي"، معتقدًا أن هذا الرجل مختل جنسيًا، فقد اغتصب أكثر من مئة فتاة سوداء، وأنه قد شنق بعضهنَّ، بل إنه يضاجع حاليًا القردة "لي لي" بأوضاع غير طبيعية. وقد أثارت هذه الشائعات "كلايس". فهو لم يرَ قطُّ حيوانًا متوحشًا بشريًا من قرب. لذلك فقد تأثَّر عند دعوة "فون فيسمان"، ذات يوم، للانضمام إليه بصحبة "لي لي" وذلك بلغة فلمنكية لا تشوبها شائبة. ولكونه مستكشفًا مبتدئًا، طلب مهندس المساحة المشورة من الأستاذ.

- أيها الشاب، إن اكتشاف إفريقيا أشبه بكشف قلبك على حقيقته، عن طريق تجريده من كل شيء.. عليك أن تُجرِّد قلبك مما يكسوه من ملابس وجلد وعضلات وضلوع.. وقتها، سوف تراه ينبض في تجويفه الصغير المتواضع.. حينئذٍ ستعرف الوضع على حقيقته، وستعرف ما عليك فعله.. النصيحة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها لك هي ألا تفقد شجاعتك أبدًا.

بُهِرَ "بيير كلايس" بالطاقة المذهلة المنبثقة من "فون فيسمان" على الرغم من احمرار عينيه الدامعتين. وقطع عهدًا على نفسه بألا يضعف أبدًا. ضاجع إحدى نساء السكان الأصليين لأول مرة في تلك الليلة. كانت أمامه عدة اختيارات من النساء، إلا أنه لم يجرؤ على اختيار أصغرهنَّ عمرًا.

بعد أسبوعين من رحيل "كلايس"، أطلق "فون فيسمان" رصاصة في رأس "لي لي" على

الطاولة التي دعا إليها مهندس المساحة. ثم غادر في اليوم التالي إلى ألمانيا، حيث استُقبِلَ هناك كبطل قومي.

استغرقت الرحلة من "ماتادي" إلى "ليوبولدفيل" أسبوعين. كانت سريعة ومريحة لأسباب عدة من بينها "فون فيسمان" الذي لم يشك "بيير كلايس" في أهميته آنذاك. فحينما واجهتِ الخيول الثمانية والعشرون صعوبات في السير فوق التضاريس الرملية، استعار "فون فيسمان" من المستعمرات البرتغالية فكرة ركوب الثور باستخدام سرج الخيول، ثم نشر هذا الاستخدام في الكونغو. وكان الثور الذي استخدمه البرتغاليون قصيرَ الساق وممتلئ الجسد ويتميز بكتلة عضلية هائلة. إذا ما نحينا جانبًا سخافة مظهر موظف بزيٍّ رسميٍّ يمتطي ثورًا صغير الحجم، فإن استخدام هذه الحيوانات - ذات الخطى البطيئة والمستقرة بشكل ممتع - مفيد للغاية في أثناء السير على الأراضي الصلبة، كما هو الحال بين "ماتادي" و"ليوبولدفيل". لم يوجد بديل عن ذلك نظرًا إلى قوة مصب نهر الكونغو المليء بالشلالات الهادرة والتي تجعله غير صالح للملاحة.

وكان "فون فيسمان" على دراية بتشغيل البواخر التي اضطُر مهندس المساحة الشاب إلى ركوبها في الأنهار الإفريقية. فمنذ إتمام رحلاته الاستكشافية الأولى، حارب عالِم الإفريقيات الألماني - هكذا سمَّته الصحافة البلجيكية – لمدة طويلة لكي يُقنِع مواطنيه باستخدام هذه السفن الصغيرة سهلة العبور أينما كانت، إذ إن مرورها خلال التضاريس الاستوائية أكثر نجاحًا من إمكانيات الجيوش الحديثة. ولم تكن الجمعية البلجيكية للكونغو العليا في حاجة إلى الاقتناع، فبمجرد أن سمعت بتوصيات "فون فيسمان"، سارعت إلى إرسال عشرة قوارب بخارية إلى "ماتادي". وحينئذٍ كُتِبَ في "بروكسل":

"إن ذلك يُعزِّز تنمية التجارة في أسمى معانيها، أي التجارة الشريفة، وإنهاء العبودية الوحشية عن طريق إنشاء وسائل مواصلات متطورة على الممرات المائية الهائلة بوسط إفريقيا، ويعد ذلك عملًا حضاريًا حقيقيًا".

ومن بين أمور عامة مشابهة، تناقش "كلايس" مع بعض من مواطنيه ممن يمتطون الثور القزم المسالم ذا اللعاب السائل. وازدادت ثقتهم من بلوغ مهمتهم الحضارية، بل بات كل منهم يحلم بطريقته الخاصة بالنباتات الإفريقية الرائعة التي غنَّت أمام أعينهم ترانيم الحب والدموع.

وصل "بيير كلايس" إلى "ليوبولدفيل" في الرابع من يوليو 1890. وكان قد أصيب بالملاريا آنذاك. ثم إن هناك ثلاثة حمَّالين لقوا حتفهم في أثناء الرحلة، ويعد ذلك رقمًا منخفضًا عن المتوسط الذي سُجِّلَ من الإدارة الاستعمارية.

في ذلك الوقت، كان هناك جلاد صيني يُدعَى "شي شياو" منحدر من مقاطعة "جوانجدونج"، وقد تلقى تدريبًا مؤهِّلًا جعله يتقن الجراحة والوخز بالإبر وفن الوشم، وهي من المواصفات المطلوبة للجلَّادين. بالإضافة إلى ذلك، كان يُفضَّل أن يتحلى بحس شِعري،مرهف ليحوز إعجاب بعض الشعراء الرمزيين المُعَيَّنين آنذاك في بلجيكا وفرنسا.

كان فن الجلَّادين في الصين، من خلال التعلم بصبر، يسمح بأن يُجرِّد الرجل من معظم أعضائه مع الاحتفاظ بحياته ووعيه. ولذلك، فإن بعض الرجال الأقوياء ممن حُكِمَ عليهم بالمرض قرروا في بعض الأحيان أن يتركوا أجسادهم بين أيدي أحد كبار الجلَّادين من أجل ميتة رائعة لا مثيل لها. ويُوضَع المريض عاريًا تمامًا ثم يُحلَق من رأسه إلى أخمص قدميه، وبشكل مشابه لما يمارسه الغرب من وشوم فظة على أجساد الثيران والأغنام والخيول، كان الجلَّاد يدق الوشم على الجسد الناعم بخطوط مُعقَّدة توضح كيفية تشريح الجلد.

ويستغرق وشم الجلاد ما يقرب من أسبوع لإكماله. وكان الجسد المضحَّى به يُغَطَّى يوميًا بخطوط من شأنها أن تنظم تفكيك هذا الجسد. ووفقًا لهذا الرسم المعقد، وبمساعدة الوخز بالإبر، كان الجلاد يتمكن من تشفية جسد الرجل وإبقائه على قيد الحياة قدر المستطاع. وقد تمكن الجلَّادون الأكثر مهارة، من بينهم "شي شياو"، من إزالة جميع أعضاء الرجل تقريبًا دون قتله أو تخديره أو حتى جعله يعاني، تاركين فقط الدماغ وفص الرئة والقلب سليمًا في الهواء الطلق.

وبالتزامن، كان مهندس المساحة يضع علامات على الأرض مهتديًا بمراقبة السماء. وتمكن من رسم الحدود المثالية من ثبات النجوم الواضح الذي لا يزال هو أفضل القياسات على الإطلاق. وباتباع بعض الحسابات الذكية، جعل "بيير كلايس" من هداية النجوم حدودًا واقعية على الأرض. وهكذا اختزل "بيير كلايس" الأراضي الشاسعة إلى حدود سياسية. وسيساعده في ذلك ليس خدمات "شي شياو" الذي لا يعي شيئًا عن قوانين "طاليس" و"فيثاغورس"، بل تفانيه في مساعدته بشكل لا مثيل له، لأنه وقع في عشق مهندس المساحة.

التقى "بيير كلايس" "شي شياو" في "ليوبولدفيل". وقد عاش "شي شياو" آنذاك حياة الرجل الماهر، وحظي بتقدير كبير على الرغم من لون بشرته، وقد أوصى بمهاراته قبطان "أردمبورج" الذي يُعَدُّ أول اتصال لـ"بيير كلايس" بالإدارة الاستعمارية لـ"ليوبولدفيل"، وقد بيَّن له أهمية وجود رجل كفء قوي التحمل وقادر على خدمته يمكن تكليفه بمهام الحياة اليومية المهنية والشخصية لرجل أبيض في الأحراش.

أردف "أردمبورج" بهذه العبارات، وابتسامة تُزيِّن شفتيه قائلًا اقتراحه هذا. إن هذا الرجل،

ذا الأناقة قديمة الطراز، ينتمي فعلًا إلى عصر آخر. وقد رَشَّحَ "شي شياو" لمهندس المساحة، وهو بالكاد خادم، لا أقل ولا أكثر. قد يتساءل المرء عن الاختيار الغريب لتعيين آسيوي يتحدث بالكاد الفرنسية من أجل "بيير كلايس". الجدير بالذكر أن "أردمبورج" اشتهر بكونه ضابطًا محبًا للخير وشديد المرح، ويملك قدرًا من الخيال، لكونه عاشقًا لقراءة جميع أنواع الروايات ومحبًا لأحلام اليقظة بشكل هائل، وهو ما قاده إلى الكونغو. فهو لم يترك أيًا من رحلات "جول فيرن" الاستثنائية إلا وقد قرأها. ويبدو أن القبطان الشيخ قد رأى في صورة هذا الرجل الصيني المرتبط بسيده البلجيكي في قلب الغابة بداية واعدة لرواية مغامرات. ومن الواضح أن "بيير كلايس" المعروف بعنصريته - والمنفتح على سحر الشرق الأقصى الذي تغنت به العديد من المجلات الاستعمارية والكثير من الشعراء - قد أغوته على الفور فكرة "أردمبورج".

***

بحلول يونيو 1890، كان "شي شياو" في "ليوبولدفيل" بسبب الظاهرة الطبيعية نفسها التي لها علاقة بالمسطحات المائية، ألا وهي الشلالات الممتدة على مسافة ثلاثمائة كيلومتر، والتي تحول دون الملاحة من "ماتادي" إلى "ليوبولدفيل"، والتي أجبرت "بيير كلايس" على رحلته الأولى إلى القارة الإفريقية ممتطيًا ظهر ثور قزم بدلًا من ركوب باخرة صغيرة.

يُعتبر حمل البضائع الوسيلة الوحيدة لنقل الأغراض من داخل الأراضي إلى الساحل والعكس، ولكنها وسيلة مكلفة للغاية من حيث الوقت والأيدي العاملة، فلا يمكن الاعتماد عليها في التجارة الاستعمارية على المدى الطويل. ولذلك دُرِس بناء خط سكة حديدية يربط بين المدينتين، وهي مهمة شاقة للغاية ستودي بحياة ما يقرب من ألفي إفريقي. ولكن شركة "السكك الحديدية الكونغولية"، قبل أن تُذعِن لتوظيف العمالة المحلية من السكان الأصليين، كانت مقتنعة بأن مهمة حمل المطاط وحصاده تفوق أهمية بناء السكة الحديدية. ومن ناحية أخرى، أظهر نموذج أمريكا الشمالية أن الأجناس الآسيوية، التي اشتُهِرَتْ بكونها عمالة معتدلة وذكية، قد برعت في تركيب القضبان. ولذلك، بعد كثير من الجدل، أُنزِلتْ وحدة من خمسمائة وتسعة وعشرين عاملًا آسيويًا، معظمهم من الصينيين، جُنِّدوا في "ماكاو"، وقد وصلوا إلى "ماتادي" في صباح أحد الأيام من نوفمبر 1889. ومن بين هؤلاء الخمسمائة وتسعة وعشرين عاملًا، كان هناك رجل يدعى "شي شياو"، كان يمتهن مهنة الجلّاد، وقد ضحى بمنصبه المميز من أجل خوض المغامرة الإفريقية. تُرى ما الدوافع التي دفعت هذا الرجل رفيع الشأن، المبدع لفنٍ مرموقٍ في بلده، إلى الخوض في بشاعة الاستعمار؟ بالتأكيد لن نعرف أبدًا.

من الواضح أن ماضي هذا الرجل يشوبه الغموض عندما كان في الصين وقبل أن يأتي إلى

هنا، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأن القوى التي شكّلت له مصيره تفوق حساباتنا. وأصبح واضحًا للعيان بعد أيام قليلة من وصول العمال الصينيين أنهم يعملون في ظروف مشابهة لظروف سجون غينيا. وبحلول العام التالي، ذكرت إحدى المقالات التي نُشِرَتْ في جريدة "الكونغو المصوَّرة" تحت عنوان "الصينيون في الكونغو":

"يا للأسف، يبدو أن قوة تحمل هؤلاء الرجال قصار القامة ذوي الجسد الضئيل لم تكن كافية لتحمل العمل الشاق الذي يتعين عمله في منطقة "بالابالا" الوعرة، لأنه وفقًا لآخر الأخبار، سُجِّلَ العديد من الوفيات بين الوحدة الصينية يا للأسف الشديد. وسيتضح قريبًا بشكل قاطع إذا كان يجب اعتبار استخدام الصينيين في أعمال السكك الحديدية مستحيلًا أم لا".

سرعان ما جاءت الإجابة عن هذا السؤال، إذ إنه بالكاد بعد عشرين أسبوعًا قضى معظم العمال الصينيين نحبهم. وعُرِضَ على من نجا منهم العودة إلى الوطن، وقد وافق الجميع باستثناء "شي شياو" الذي قرر تجربة حظه في "ليوبولدفيل". لم يدرك أحد حينئذ ما الذي دفع بهذا الرجل المثابر مرهف الحس إلى البقاء بعيدًا عن بلده. وعند وصوله إلى المدينة، تمكن "شي شياو"، ذو المواهب العدة، من الاندماج سريعًا بين كل من السكان الأصليين والاستعماريين. ولذلك كان مقرّبًا للجميع.

وبينما كان "شي شياو" يرسم وشمًا لبحار هولندي يُدعَى "فيكتور" في مقهى بسيط في "ليوبولدفيل"، وجده "بيير كلايس" حسب وصف "أردمبورج". كان يرسم وشمًا على كتف الفتى الذي لم يتعدَّ العشرين عامًا، كان الوشم لأسد أخضر هائج متحول حسب طلب البحار. وقد انتظر "بيير كلايس" على بُعد بضع طاولات، ممسكًا بصحيفة بالية، مُشتَّتًا برائحة الحشيش الذي يُدخِّنه البحار. وبعد أن انتهى "شي شياو" من عمله، تحدث مع البحار بلُغة محلية لبضع دقائق، ثم ما لبث أن تركه البحار وابتعد.

وحينما رمق "شي شياو" ببصره مهندس المساحة. انقلب عالمه رأسًا على عقب وانكشفت له جليًا هوة الفوارق بين الكائنات. وهكذا اتسع العالم في صمته، كاشفًا الهاوية بين الكائنات. الهاوية التي قاعها ليس إلا الموت. سيعلق المخادع الساخر: ولا شيء أقل من هذا. هذا هو كل شيء، كما سيجيبه قارئ أو قارئة للروايات. وأدرك "شي شياو" أن أثمن ما يملكه في حياته هو حبه لـ"بيير كلايس".

شعر "شي شياو" بحب هائل في هواء العصاري الرطب والخانق، في مقهى وضيع سيئ السمعة يقع على بعد نحو عشرة آلاف كيلومتر من مسقط رأسه. ولكنه كبح جماح شعوره ولم

يبدِ شيئًا منه عندما دعاه الشاب البلجيكي لرسم الحدود مسترشدًا بالنجوم. لم يبدِ شعوره، ثم هطلت الأمطار الأفريقية، فبكى جلده من أجله، متصببا عرقا في السر. تجاذبا أطراف الحديث بلغة سادتها الإشارات. استجاب "شياو" لعرض "كلايس"، وقد سبق له في شبابه أن تدرب على علم الفلك، وهذا ما سيجعل منه عونًا كبيرًا. سيلتقي بـ"كلايس" في اليوم التالي. ثم تصافح الرجلان اللذان فهما بعضهما بعضًا دون أن يتشاركا اللغة نفسها، وارتبطت مصايرهما معًا. وقد عاد "بيير كلايس" راضيًا، أما "شي شياو"، فقد انزوى وحيدًا تلك الليلة.

***

تكرر لقاؤهما بانتظام للإعداد للبعثة. ومن الغريب أنهما قد فهما بعضهما بعضًا بإشارات وبحركات الأجساد وبضع كلمات قليلة مشتركة بينهما. وسرعان ما أصبح "كلايس" مرتبطًا بهذا الرجل قصير القامة - الذي يصعب تخمين عمره - والذي كان متميزًا بشكل مدهش عن الآخرين. افتُتِنَ مهندس المساحة بقصص "شي شياو"، يخالطه شعور الملل تارة، والسذاجة الحالمة تارة أخرى، وكان يتسم أيضًا بعنصرية غير مبالغ فيها. وقد سرد "شي شياو" - عن طيب خاطر - قصصًا متفرقة لا تُصدَّق عن حياته في إفريقيا. ولم يُفصِح عن بدايات هذه القصص ولا نهايتها، بل احتفظ بها كأحجيات سيشكل نسيجها الماهر اكتمال قصته في نهاية المطاف.

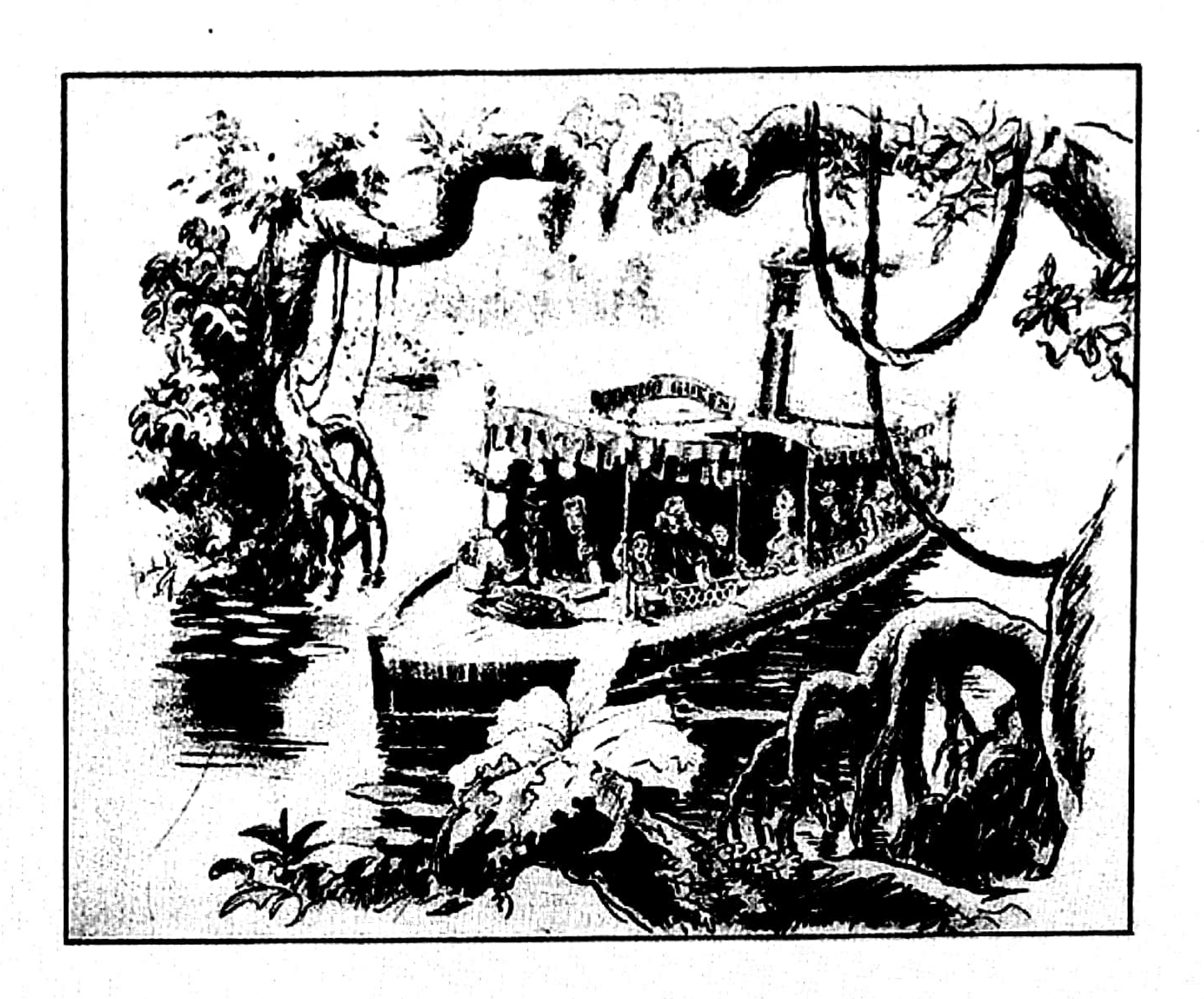
كان "شي شياو" ينظر بثبات إلى عيني "بيير كلايس"، وهذا ما دفع الأخير إلى التساؤل في قرارة نفسه أكان في استطاعته أن يحوك الأجزاء المحذوفة لتكوين النسيج الكامل للقصص بمهارة. ويبدو أن "بيير كلايس"، رجل الأرقام، ليست لديه خبرة حقيقية في الأدب باستثناء روايات المغامرات. وقد زاده سرورًا كم القصص التي أغدقها عليه "شي شياو" برحابة صدره.

***

تنتهي الحدود الغربية لدولة الكونغو الحرة مع "نهر الكونغو"، وتسير الحدود الغربية وفقًا لمجرَى النهر من "ليوبولدفيل" إلى محيط "إكواتورفيل"، ويطلق أيضًا "إكواتور" على بعض الخرائط والتي غُيِّرَ اسمها إلى "كوكويلاتفيل" بعد وفاة مؤسسها "كاميل إيمي كوكويلات". وتسير الحدود من "إكواتورفيل" أو بشكل أدق من "ليرانجا"، سارت الحدود مع نهر "أوبانجي" الذي اتجه شمالًا، ثم انحرف شرقًا بشكل مفاجئ، وأصبح هو الحد الشمالي، وانفصل عن "أوبانجي" ليتبع "مبومو". هنا بدأ العمل الحقيقي لـ"بيير كلايس"، لأنه بصعوده لـ"مبومو" توغل إلى منبعه، وتلاشت فكرة الاعتماد على مجرى النهر في ترسيم الحدود. اضطر "ليوبولد الثاني" بعد منبع "مبومو"، قريبًا من "بامبوتي"، إلى الاعتماد على علم الفلك والنجوم لتأكيد امتداد

سيطرته على الأراضي الإفريقية.

لذلك فإن مهمة "بيير كلايس" مختصة بالنهر في جزئها الأول. ثم صارت أشبه بتسمم دموي يخترق أوصال القارة وينشر العدوى. وقد وجب على مهندس المساحة أن يتبع "نهر الكونغو" إلى منبعه ثم نهر "أوبانجي"، ويركب الزورق إلى منبع نهر "مبومو" الذي لم يكن صالحًا للملاحة، من أجل إجراء أول معاينة رسمية لطبيعة الأرض والتضاريس والأجناس البشرية من الحدود إلى منبع النهر. وبمجرد وصوله إلى هناك، سيتمكن من ترسيم الحدود وتمكين إرادة مَلِكه على الأرض. ومع أنها كانت مسألة يشوبها الكثير من التفاصيل، وكانت القارة الإفريقية مشتتة ومشوهة فعلًا، ولذلك وجب تحديد كل كيلومتر من الحدود ورسمه وتسجيله من أجل تخفيف حدة التوترات الإقليمية التي أراد الجيران الفرنسيون والبريطانيون الاستفادة منها لتصعيد الوضع لمصلحتهم. من المقرر أن تدوم البعثة لمدة تتراوح بين عشرة أشهر وخمسة عشر شهرًا. ولم يكن "كلايس" قد غادر بلجيكا من قبل إلا لمناسبتين فقط: مرة لحضور مؤتمر رياضيات في "كولونيا"، والأخرى لزيارة صديق طفولته في "كاليه".



وُضِعَت الجثة على أحد الأرصفة الخشبية الصغيرة في "ليوبولدفيل". كان الشاب قد قضى نحبه منذ ثلاثة أيام، وبدأت تفوح من الجثة المغطاة رائحة نفاذة. انخفض وزن "جورج أنطوان كلاين" إلى سبعة وثلاثين كيلوجرامًا فقط لحظة وفاته على متن الباخرة "ملك البلجيكيين" التي أعادته عاجلًا إلى بلده المتحضِّر. إذ كانت الدوسنتاريا قد جفَّفت جسده بالمعنى الحرفي للكلمة. وكان ينبغي دفن الجثة في يوم الوفاة نفسه، والتخلص منها في أسرع وقت، حتى لو اقتضى ذلك دفنها في حفرة طينية. والجدير بالذكر أن "كلاين" هو الابن الأصغر لأحد أهم المُسهمين في "الجمعية البلجيكية للكونغو العليا". عندما عرَّفه زميله وصديقه "فاندر دورب" إلى الرجل الثاني لقبطان المركب الذي سيعيده من شلالات "ستانلي" إلى "ليوبولدفيل"، كان القبطان أيضًا يحتضر من الدوسنتاريا. وأصر "فاندر دورب" بشدة على هذه النقطة:

- في حالة الوفاة، فإن الحفاظ على الجثة أمر بالغ الأهمية، أتفهم ذلك؟ هذا الفتى ثمين حيًا أو ميتًا.. سيتولى الموظفون مسؤوليته في "ليوبولدفيل" وسوف تتلقى تعويضًا ماليًا... ولكن لا مال من دون جثة!

وبطبيعة الحال، بدأ الجسد بسرعة كبيرة في الانتفاخ وانبعثت منه رائحة كريهة كرائحة المخلفات العفنة. وكان قبطان القارب قد طلب من رجاله أن يثقبوا أمعاءه، ثم يشقوه من أعلى

إلى أسفل طولًا وعرضًا. كما أمر بجمع الفواكه والنباتات الحمضية لكي تُرَشّ عصاراتها على الجسد المتحلل، وبذلك أخمِدَتْ رائحة الموت.

تمكنوا من إيقاف تحلل الجسد، وبعد أن أصبحت الجثة مشدودة بإحكام في قماش الجوت، أصبح الجسد أحسن حالًا. وما إن أنزِلَ من المركب، أخذه موظفان من "البانتو" في "الجمعية البلجيكية العليا للكونغو" وأودعاه في عربة مربوطة إلى حصان حرب له رائحة مميزة. قاده الرجلان إلى مستشفى الدكتور "دريبونت" الأوروبي وكانا يدندنان بالغناء.

***

وُلِدَ "جورج أنطوان كلاين" في باريس قبل عشرين عامًا، بعد أن أمضى جزءًا من شبابه في إفريقيا وعُيِّنَ وكيلًا تجاريًا من قبل "الجمعية البلجيكية للكونغو العليا"، وقد غادر "ليفربول" في 26 ديسمبر 1888، برفقة "فاندر دورب". أما "كلاين" الأب، الذي كان آنذاك في "ليوبولدفيل"، فقد كلف "فاندر دورب" بمراقبة ابنه الصغير. وقد أُعلِنَتِ المغادرة في مجلة "الحركة الجغرافية" في الشهر نفسه:

"السيدان "كلاين" و"فاندر دورب"، في خدمة "الجمعية البلجيكية للكونغو العليا"، يركبان على متن القارب الذي يغادر ميناء "ليفربول" مباشرة إلى "الكونغو" في السادس والعشرين من الشهر الحالي...".

ثم كُتِبَ بعد عددين من ذلك:

"وصلت الباخرة "الكاميرون" القادمة من "ليفربول" ورست يوم 15 فبراير أمام "بوما"، ناقلةً عددًا من موظفي الدولة بالإضافة إلى السيدين "كلاين" و" فاندربور " (1) ، الموظفين بـ"الجمعية البلجيكية للكونغو العليا".

ثم مرة أخرى بعد مرور شهر آخر:

"كلاين" و"فاندربور" قد وصلا بصحة وسلامة إلى "ليوبولدفيل".

وبعد أكثر من عام من الصمت، نشرت صحيفة "الحركة الجغرافية" في يوليو 1890 خبرًا مفاده أن "السيد "كلاين" قد تولى إدارة مستوطنة "فولز". ولم تذكر الصحيفة اسم "فاندنبور" أو "فاندر دورب"، الذي استمرّ في مراقبة الشاب "كلاين" بإخلاص. ولم تنقل "الحركة الجغرافية" مدى وعورة الطريق من "ليوبولدفيل" إلى شلالات "ستانلي".

وقد تُوفِّي أحد الموظفين - الذين كان "كلاين" يسافر معهم - متأثرًا بضربة شمس حادة، إذ

اشتكى الصداع الشديد، ثم توقف جسده عن التعرق وجف جلده لدرجة التشقق. ثم أُنزِل - وكان ينزف - عند أول مقر تجاري في الطريق. ثم تلقى "كلاين" في اليوم التالي خبر وفاته، وهذا ما ترك في نفسه بالغ الأثر على الرغم من قراره أن يسلك مسلك الرجال في القوة والتحمل. ومع ذلك، فإن وجود "فاندر دورب" الذي اتسم بحسن الرفقة وحب الخير ساعده في عدم الاستسلام للاكتئاب الذي أصاب ركاب الباخرة "فلوريدا" التي أبحرت متجهة إلى منبع "نهر الكونغو".

أما "فاندر دورب" فهو أكبر سنًا، أي في سن "كلاين" الأب، وقد سافر فعلًا على نطاق واسع في إفريقيا الاستوائية. كان رائدًا محنكًا في المناطق الداخلية من إفريقيا، وقد شارك في بعض بعثات "سافورنيان دي برازا" الشهيرة. وبحلول الليل، تكثر الحشرات، ولم يكن لينزعج من ذلك، بل كان يكتفي بإشعال سجائره الصغيرة، ليشعر قليلًا بملذات الحياة والعالم ينهار من حوله.

ثم تراءى لنظر "كلاين" تحت وهج الجمر المضطرب أن "فاندر دورب" يبدو كبطل لرواية قديمة وحديثة في آن واحد، كان يبدو كـ"بيرسيفال" أو "جوفان" أو "لانسلوت" أو "جلعاد" أو "فوترين" أو "فالجان" أو "دانتيس" أو "آتوس". رجل من النحاس والحديد، رجل ذو عباءة ومجد، يعشق المغامرة وحده في صمت وشجاعة. كان "جورج أنطوان كلاين" بعيدًا عن باريس، سجينًا في غابة جهنمية، كان فتى يحاول أن ينتهج نهج الرجال، في حين كانت لديه أسباب للبكاء في جوف الليل، ولكنه شعر بالأمان الهادئ في وجود "فاندر دورب".

***

بعد قرابة شهرين، سلَّم "فاندر دورب" الشاب المحتضر "كلاين" إلى قبطان السفينة الذي سيعيده إلى "ليوبولدفيل". كان "كلاين" الأب شديد الوضوح بهذا الشأن: في حالة مرض ابنه، سيُعفَى "فاندر دورب" تلقائيًا من واجباته مساعدًا ومشرفًا لكي يتسلم مهام منصب "جورج أنطوان". فإنتاج المطاط لا يمكنه الانتظار. وقد وصل إنتاج الموقع إلى أرقام قياسية كل شهر، ولكن لا غنى عن الإشراف والتوجيه. لذا، ليس على "فاندر دورب" مغادرة الشلالات تحت أي مسمى.

وقف "فاندر دورب" على المرسى الخشبي عند موقع الإنتاج، وتابع ببصره الباخرة الصغيرة التي حملها النهر غربًا. وأيقن أن مصير "كلاين" الآن في يدي الرجل الثاني في قيادة السفينة، البحار البولندي ذي النظرات الجليدية الذي لم يتذكر اسمه.

كانت السماء ملبَّدة بالغيوم. دوَّت أصوات القرود عاليًا. في ذلك الوقت، تولى "فاندر دورب" إدارة مصنع المطاط. وبالقرب منه، كان هناك موظف استعماري وعاملان إفريقيان في حركة

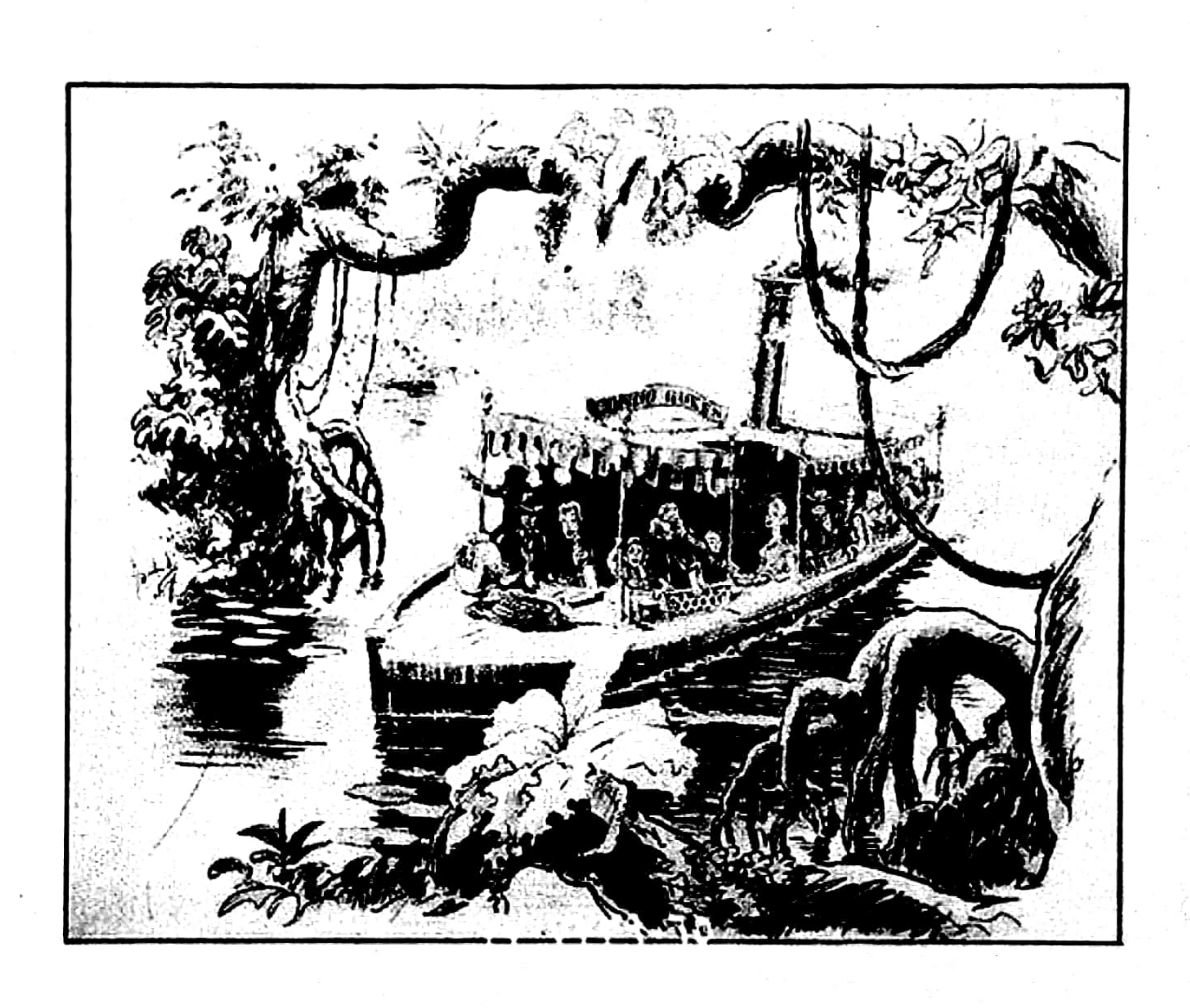
ملحوظة يبحثون عن أفعى كبيرة قد شاهدوها في وقت سابق في كومة من الخشب.

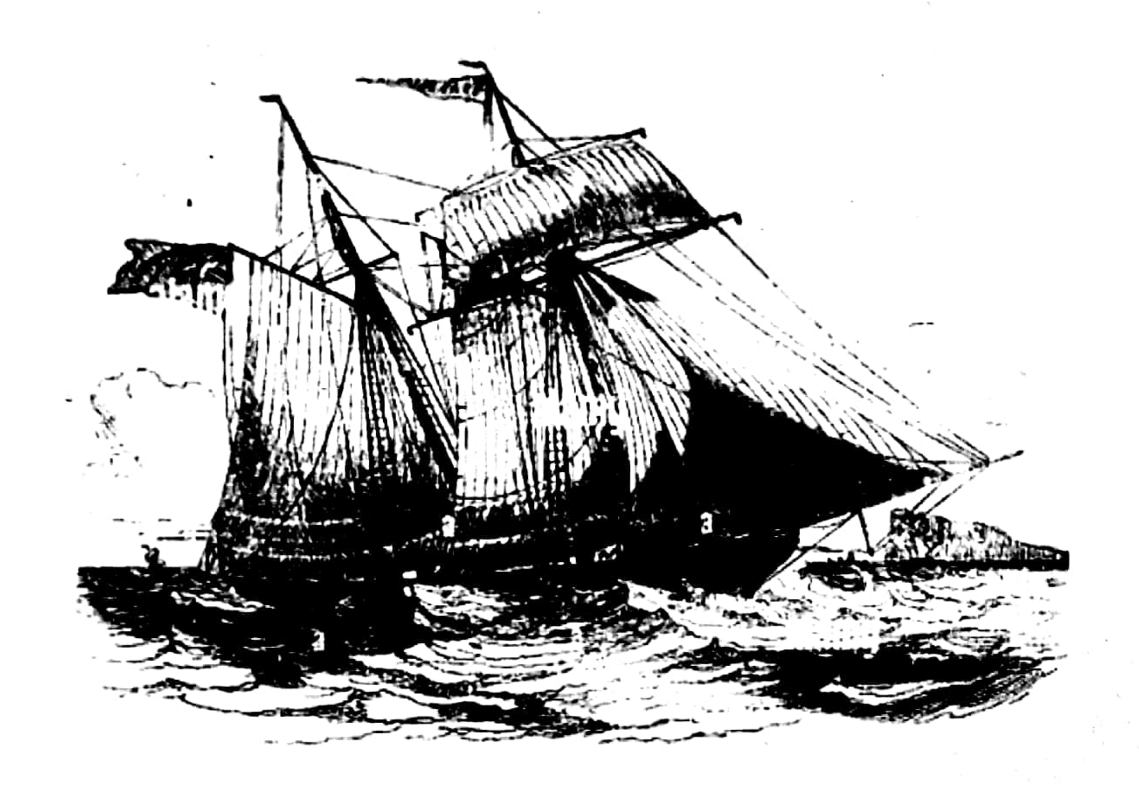
وحينما أوشكت الشمس أن تشرق، كان "فاندر دورب" لا يزال يدخن بشراهة. لم تذق عيناه طعم النوم طوال الليل، بل إنه لم يخلد حتى إلى فراشه. وأخذ يسترجعُ مشاهد اليوم السابق، حين قُذِفَت جثة "جورج أنطوان" البالية المحتضرة بعنف فوق الماء من قِبَلِ السكان الأصليين الذين رفعوه بصعوبة على سطح الباخرة.

استرجع مشهد لا مبالاة الطاقم الذي عُهِدَ إليه "كلاين" الشاب والذي تعاملوا معه بالبرود نفسه الذي تعاملوا به مع لحم فرس النهر المجفف الذي حُمِّلَ على متن السفينة. وتذكر عيون الشاب المحتضر الحَيَّة المليئة بالرعب في ذلك الجسد الذي احتُسِب في عداد الموتى فعلًا. فلو أوتي هذا الشاب شيئًا من القوة لصرخ مستنجدًا بوالدته. وقت اتسعت حدقتاه المستديرتان - ذات اللون الناصع - بشكل مرعب، موحية بشدة الوحدة والخوف، فهي تودع الحياة دون مراسِم، فقد تركت الأرض إلى الأبد وغرقت في هذا النهر السفلي حيث ستواجه الموت.

غرق الفتى البلجيكي "جورج أنطوان كلاين" في الموت والبراز والدم، دون أن يتمكن حتى من التلويح بذراعه غضبًا أو مودعًا، فهو غارق في أدغال إفريقيا السوداء السائلة الساخنة، والآلاف غيره مذنبون بقدر ما هو مذنب، يتحركون في منظومة مليئة بالفناء والانتحار والقتل، ربما يعيشون وربما يجدون خلاصهم. ولكن هل يبقى حيًا؟ لقد رأينا آخرين، اعتبرناهم في عداد الموتى، ولكنهم نجوا وعادوا ليفاجئوا الجميع، بل عادوا إلى مناصبهم، واستعادوا مكافآتهم وترقياتهم، وكانوا يروون قصصًا عن رباطة جأشهم وفقدانهم الخوف كل ليلة. وتذكر "فاندر دورب" ذلك القبطان - بولندي الأصل - ذا اللكنة المميزة، وهو الوحيد الذي ما زال يملك الكثير من الخصال الإنسانية في هذا العالم المفقود. حتى إنه أبدى ترحيبًا بالعمال السود الذين ينتظرون الباخرة لإرسائها.

أعاد "فاندر دورب" إشعال غليونه ورأى مرة أخرى مشهدَ صعود الرجل المريض إلى المركب، ورأى عيني "كلاين" تتوهجان أمامه مرة أخرى.





حينما صعد "فاندر دورب" فجرًا متن السفينة الفرنسية المتجهة نحو الساحل، لم يهدأ له بال حتى يجد الشاب "كلاين" حيًا أو ميتًا، وحتى يتمكن من التحدث إلى ذلك البولندي الغريب قصير القامة الذي ظلت نظراته تطارده.

وفي صباح أحد أيام سبتمبر 1890، غادرت بعثة "كلايس" "ليوبولدفيل" في مهمة تفكيك أوصال القارة.

عندما وصل "بيير كلايس" إلى "ليوبولدفيل"، أصيب بالملاريا وتأثر كثيرًا بأعراضها. وتسببت الحمى والدوار والإسهال الذي لا يتوقف إلى إبطاء عملية الإعداد لرحلته الاستكشافية بشكل كبير في الأسابيع الأولى. ومع ذلك، تحسن "بيير كلايس" في النهاية وتكيف جسده واعتاد الحياة في إفريقيا. فقد الكثير من وزنه، وأخذ منه المرض ما أخذ، وتغيَّرت معتقداته عن ضمانات امتلاك الصحة التي ينشأ عليها الأوروبيون، وتلفت أعصابه كثيرًا. تقلص "بيير كلايس" جسديًا ونفسيًا للبقاء حيًا. ولكنّ هذا التقلص لم يُفقِده شيئًا. تمكنوا من الرحيل أخيرًا.

اتسمت الأيام الأولى على "نهر الكونغو" بالهدوء. استعاد "بيير كلايس" قواه من جديد، وبينما كان متكئًا على القائم الخشبي على حافة الباخرة، شاهد الضفاف العشبية والطيور الرائعة التي تمر أمامه. وقد أطلقت السفينة صفارتها لوجود باخرة أخرى تُبحِر في النهر في اتجاه "ليوبولدفيل"، إذ لوَّح "كلايس" بذراعيه بفخر. لو أدرك حينها أن هذه السفينة تضم جثة شاب أوروبي مثله توفي للتو بسبب الحمى الاستوائية على أيدي البولندي ذي العينين الزرقاوين، ربما

فتر حماسه كثيرًا.

تُعدُّ الباخرة "فلور دي بروج" من سفن الجيل الأول التي أبحرت في البحيرات والأنهار العالية في إفريقيا الاستوائية في منتصف 1880 من قِبل "الجمعية البلجيكيةُ للكونغو العليا". وقد صُنِعَت هذه البواخر على إطارات خشبية مُصمَّمة في الأصل للملاحة في أنهار أوروبا، وسرعان ما ضعفت هياكل هذه البواخر الصغيرة.

استغرق مهندسو الإدارات الاستعمارية ما يقرب من عشرة أعوام لاستلهام الأفكار من الخبرة المحلية ومن استخدام الأخشاب الأخرى، من بين ذلك خشب "لومبيا" الذي يُعَدُّ الأكثر ملاءمة للملاحة في أنهار إفريقيا. وقد أبحرت بعثة "كلايس" عام 1890 على متن سفينة متهالكة وعرضة للعديد من الأخطار مثل الاصطدام بجذوع الأشجار العائمة وأخطار المياه الضحلة وأفراس النهر وغيرها من الفخاخ التي يخفيها النهر الغاضب.

كان قبطان الباخرة "فلور دي بروج" في ذلك الوقت دنماركيًا يصعب تقدير عمره، وقد شوَّهت وجهه ندبة على شكل حرف B على خده الأيمن، وعُرِفَ عنه - من خلال لغته الفرنسية الممزوجة بلكنة دنماركية وهولندية - أنه قد جُنِّدَ قبطانًا باخرة في الكونغو بعد انتكاسات عاطفية وهزائم عسكرية قد مرَّ بها. كان القبطان "مادس مادسن" يروي قصة حبه بكل سرور، كان يرويها خلال كل رحلة من رحلاته، ويمكن أن تمتد روايتها على مدار ثلاثة أسابيع، أو حتى شهر إذا أراد ذلك، وكان يُضطَّر أحيانًا في الرحلات الطويلة جدًا إلى إنهاء القصة، مثلما حدث في ذلك اليوم عندما لمح ببصره من قمرة القيادة مجموعة من أفراس النهر تتجه نحو سفينته بعدوانية.

وقد أوضح الأمر لمرافقيْه اللذين انحصرا في "بيير كلايس" - السارح في أحلام جنسية - والشمبانزي الإفريقي الذي لم يتضح سبب وجوده على متن السفينة بعد. وبينما كان "بيير كلايس" غارقًا في حالة من الكسل الحالم التي حاول مرارًا الخروج منها، استغرق هذا الموقف منه بعض الوقت، لا ليدرك خطورة وغرابة الوضع فحسب، بل ليتخذ قرارًا حاسمًا بصفته قائدًا للبعثة.

وقد رأى خمسة أفراس تركض في المياه الضحلة للنهر، وتُعاود الظهور بشكل متقطع على سطح المياه، وكلما دنت قليلًا صارت أكثر عدائية. ويبدو أن أفراس النهر المهاجمة أخذت قرار الهجوم الشرس على هذا الكيان الخشبي والمعدني المتطفل عليهم الذي كَدَّر صفو هدوئهم في الماء الموحل. تُرى هل يدركون بأنهم يركضون مباشرة نحو حتفهم؟ اعتقد "كلايس" ذلك

حينما اتخذ قراره في لحظة قصيرة؛ عندما أمر رجاله بتعمير بنادقهم، ربما كانت هذه الحيوانات تتصرف بفطرتها أكثر منه بسبب غضبها اليائس. ومع ذلك، لم يكن يملك الوقت الكافي للتشكيك في ذلك، بل كان هذا اليأس يدور في رأسه هو شخصيًا. وسرعان ما دَوَّتِ الطلقات وانحرفت الحيوانات المصابة بعيدًا.

فرح "كلايس" في قرارة نفسه، فلا أحد يمكنه سماع نبض قلبه المتسارع، ولا الشعور بقوة الأدرينالين التي غمرت دمه. ارتجفت يداه، ولكنه تصرف كقائد حقيقي، وفعل ما على رجل أبيض مثقف فعله. ومع ذلك، لم يَدُم هذا الرضا طويلًا، إذ حدثت هزة عنيفة جعلت القارب يهتز من عاليه إلى سافله، تلاها دوي ثلاث طلقات. فأحد الحيوانات كان قد اختبأ تحت هيكل القارب وحاول شن هجوم أخير قبل أن تُطلَق النار عليه. طلب الحمَّالون الأقزام الإذن في استعادة جثته العالقة في عجلة المجداف من أجل استخدامها في إعداد مخزون من اللحم المجفف. وهنا صرخ "مادس مادسن" بأن عجلة المجداف قد كُسِرَت. فإذا تمكنوا من الإبحار حتى "إكواتورفيل"، فسيكون من الضروري تغييرها بعد ذلك لمواصلة البعثة.

***

رَسَتِ الباخرة الصغيرة "فلور دي بروج" بصعوبة بالغة على حافة الضفاف الموحلة التي كانت بمنزلة رصيف محطة ميناء "إكواتورفيل". لقد كانت السبعون ساعة الأخيرة شاقةً جدًا على "كلايس" وطاقمه.

تضاءلت سرعة الباخرة بشكل واضح بسبب كسر عجلة المجداف، فلم يتجاوز متوسط سرعتها ثلاثة كيلومترات في الساعة، وظلَّت السفينة الصغيرة تتوقف لدقائق طويلة على النهر، تحاصرها التيارات المعاكسة. وهذا ما اضطر الرجال إلى دفع المرجل إلى أقصى حدوده، وفعل ذلك ببراعة ميكانيكي شاب من "وويو" يدعى "مبانزو"، وهو في الأصل من غرب الكونغو. تمكن "مبانزو" من الحفاظ على مستوى ضغط البخار لكيلا يصل إلى نقطة الانهيار، ويبدو أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتقدم إلى الأمام في ظل هذه الظروف. أصيب "مبانزو" بالإرهاق الشديد وتصبب العرق بشدة منه جراء هذا الجهد البالغ. ثم جاء الصيادون المحليون لتزويد الباخرة بالخشب، حتى لا تُضطرَّ إلى التوقف مرة أخرى من أجل التموين. وبعد اثنتي عشرة ساعة من الإبحار على هذا النحو، أدرك الرجال أن القارب يتخلله الماء. واتضح أن الاصطدام العنيف الناجم عن الهجوم الانتحاري لفرس النهر الأخير قد تسبب في فقدان العديد من المسامير الحاملة للهيكل المعدني بالإطار الخشبي. ولذلك اضُطرَّ الطاقم إلى التناوب ليلًا ونهارًا لتفريغ المياه.

كان قرار "مادسن" و"كلايس" بالإبحار ليلًا على ضوء القمر قرارًا محفوفًا بالأخطار، معرضين أنفسهم لخطر الاصطدام بالأشجار العائمة، وذلك لعدم استطاعتهم إيقاف الباخرة "فلور دي بروج". لم يستطع أحد على متن الباخرة – من بينهم الشمبانزي - النوم بشكل متقطع أكثرَ من عشر ساعات. ولذلك، تنفسوا جميعًا الصُعداء عندما علموا أن المسامير الوحيدة المتاحة لإصلاح الباخرة ستُسلَّم عن طريق القوارب من "ليوبولدفيل" وأن بعثة "كلايس" لن تستطيع استئناف رحلتها قبل خمسة أسابيع على الأقل، وهذا ما يعني الحصول على خمسة أسابيع من العطلة الإجبارية على نفقة جلالة الملك "ليوبولد الثاني"، قبل التوغل في متاهات الغابة الاستوائية.

كانت محطة ميناء "إكواتورفيل" في ذلك الوقت تتكوَّن من كوخين كبيرين عموديين فوق بعضهما بعضًا على بُعد بضعة عشرات من الأمتار من مرسى بدائي على ضفاف منعطف نهري ذي تيار محدود. تعجَّب "كلايس" على الفور عند رؤية علم دولة الكونغو الحرة مرتفعًا فوق المباني. يتألف العلم - الذي يعرفه جيدًا - من نجمة صفراء على خلفية زرقاء بدرجة الأزرق الملكي، ذكَّره بنجم الشمال الذي كان يضطر إلى حساب زواياه الفلكية بانتظام في أثناء ممارسة مهنته. وقد انتابه في تلك اللحظة شعور نقي، وشعر بحنين للماضي، ربما راودته ذكريات الطفولة، بعيدًا عن الواقع الذي تغشاه المصالح، وبدت له الأمطار كدموع تنساب من السماء، زرقاء مثل الصقيع الذي من شأنه أن يُنعِش الهواء المحترق الرطب في الكونغو القارية. تذكَّر "كلايس" مدينة "بروج" مسقط رأسِه. مرَّت عليه تلك الذكرى الجميلة الهادئة كأوراق الورود.

ثم أيقظه نباح الكلاب من شروده. كلبان أصفران يحتفيان بالمسافرين القادمين، يركضان أمام موظف محطة الميناء القادم لمقابلتهما. أدرك "كلايس" أنه لم يداعب أي كلب منذ عدة أشهر. ثم شعر جسدُه برجفة الحمى، وشعر بغصة المرض في حلقه وبحث عن مكان يستظل به.

أوشكت الساعة أن تكون الثانية صباحًا، ذهب "فاندر دورب" إلى مستشفى الدكتور "دريبونت" الأوروبي، وأخذ يطرق بوابته التي كانت إحدى البوابات الحديدية القليلة في "ليوبولدفيل". وقد نما إلى علمه - بعد أن وصل في وقت سابق من المساء - وفاة "كلاين" الابن. تصور أنه يستطيع الانتظار حتى اليوم التالي لرؤية الجثة، ولكنه أخطأ خطأً فادحًا. فقد سيطر عليه فجأة قلق غامض حينما اتجه إلى مكاتب "الجمعية البلجيكية للكونغو العليا". من الآن فصاعدًا، كل ثانية تمر دون رؤية جسد "كلاين" الصغير تصيبه بهبوط حاد ومزيد من الضيق.

لا صوتَ خلف ذلك الباب المظلم السميك غير الآدمي.

- افتح! افتح!

ازداد طرق "فاندر دورب" الأبوابَ كالمستغيث من الموت. وأخيرًا سمع صوت خطوات من الجانب الآخر، يصحبه صرير المفصلات، فتح الباب أحد دُعاة التبشير وكانت تبدو عليه علامات النوم.

- يجب أن أرى جثة الشاب الفرنسي، بسرعة!

استقر جسد "كلاين" المُحَنَّط على طاولة خشبية قاتمة. قبَّله "فاندر دورب" على جبهته بودٍّ شديد، متحسسًا بشرته الجافة. وأخذ يخاطب جسده الميت، فرأى المبشِّر أنه من الذوق تركهما وحدهما. نام "فاندر دورب" مستلقِيًا إلى جانب "كلاين"، ممسكًا بيده. وعندما وصل الطبيب - الذي أبلِغَ فجرًا - إلى المشرحة، كان "فاندر دورب" قد رحل عن المكان.

استسلم للنوم ما يقرب من أربع ساعات، محتضنًا جسد الشاب الصغير، ولكنها بدت له كدهر كامل. حلم بـ"بروج"، وبحياته القديمة التي عاشها قبل ربع قرن. وحلم بدق الأجراس في عصر التنوير الأوروبي. وحلم أيضًا بكاتدرائية "الدماء المقدسة". وحلم بـ"توماس بريل" و"مانون بلانش" وبالابن الذي تبناه ثم تخلى عنه على الفور. وقد اخترقت سماء المستشفى النجوم وأنارت بطيفها الأرض الموحلة التي تحوي المشرحة الموجودة تحت الأرض. بكى في صمت وواساه "كلاين" في الحلم مناديًا إياه بـ"أبي" و"أبتاه"، وأخبره أن يهتدي بالنجوم ليجده حيًا إلى الأبد. استيقظ "فاندر دورب" مضطربًا وقد ازداد تصميمًا أكثر من أي وقت مضى على العثور على البحَّار البولندي الذي تحمل عيونه بريق الحماس. وسحب نفسًا طويلًا من التبغ البارد الذي قبع في جوف غليونه. واندفع نحو الميناء وقد ازداد جسده قوةً وحماسًا. ثم اتجه بخطوة سريعة إلى مكاتب "الجمعية البلجيكية للكونغو العليا". وهناك، لم يجد صعوبة في الحصول على هُويَّة "قبطان ملك البلجيكيين".

يُدعَى "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي"، وهو من مواليد الإمبراطورية الروسية وكان مبحرًا في نهر "الكونغو" منذ أقل من ستة أشهر. وقد غادر لتوه إلى "إكوادورفيل"، حيث اضطُرَّ إلى تسليم شحنة من المسامير على وجه السرعة لإصلاح سفينة "فلور دي بروج".

- سفينة "فلور دي بروج"؟

- نعم، "فلور دي بروج" التي تحمل بعثة "كلايس" نحو الشمال.

- "كلايس"؟

- "بيير كلايس".. مهندس المساحة المكلَّف من الملك لترسيم الحدود الشمالية. لقد غادر

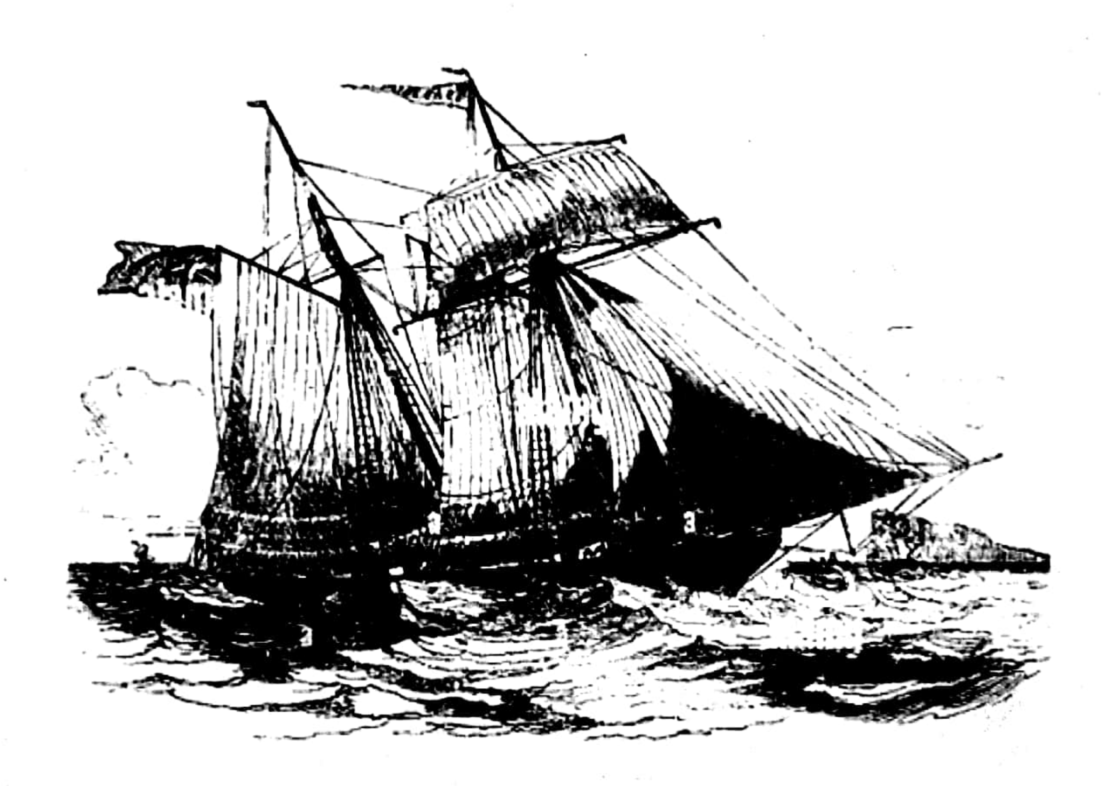
"ليوبولدفيل" لتوه.

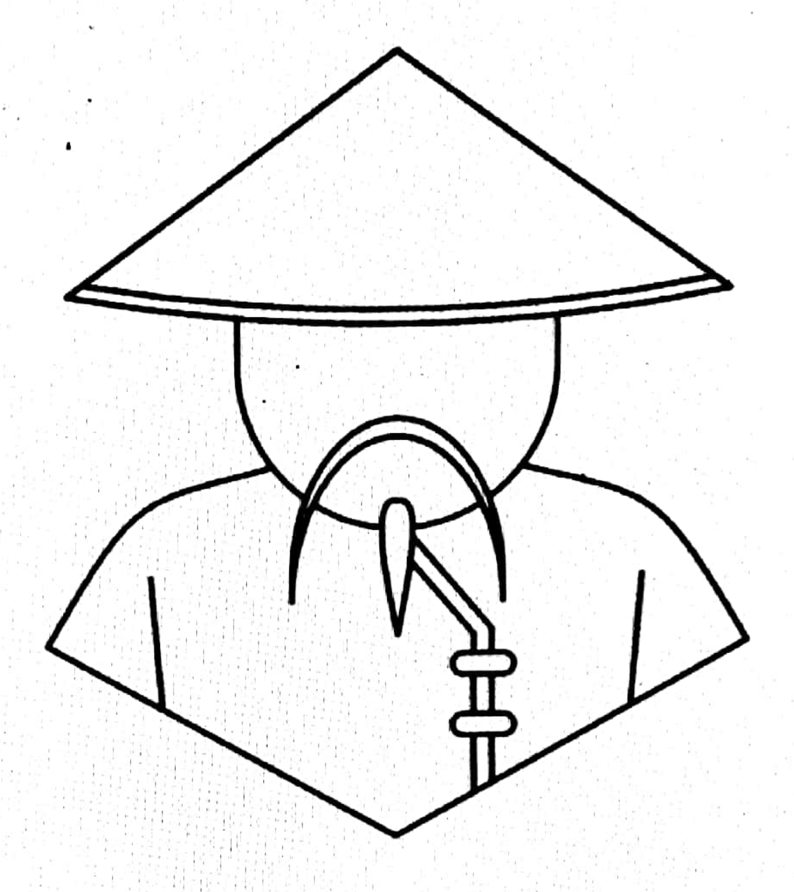
انتاب "فاندر دورب" الدوار عند سماعه اسم "بيير كلايس". وازداد الجو سخونة في مكاتب الجمعية، قاربت الحرارة على الخمسة وثلاثين درجة، فطلب بعض الماء ليُروي عطشه.

- طبعًا يا سيد "فان دير بور".

- اسمي "فانديردورب"!

ظل "فانديردورب" منتظرًا أسبوعًا آخر حتى استطاع الركوب إلى "إكواتورفيل". وقد بدا أن الأمور لو سارت على هذه الوتيرة، فلن يلحق بالبولندي ذي النظرة الجليدية.





أثبت "شي شياو" أنه مساعد لا يُشَقُّ له غبار، وذلك منذ الأيام الأولى للبعثة. دون أن يتحدث أي لغة أخرى غير لغته الأم واللغة المندرينية الصينية، لقد بدا كأنه يجيد كل اللغات. كأنه يعرف من كل لغة ما يكفي من المفردات لإكمال لغة أخرى من إبداعه، وكلها مُكوَّنة من لغة الإشارات البديهية. وكان باستطاعته التواصل مع أي رجل أو امرأة من أي مجموعة عرقية في الكونغو. إذا أردنا وصف "شي شياو" بكلمة واحدة، لكانت "الدبلوماسي". وهكذا كانت لغته الطبيعية التي ابتكرها، مواتية لجميع الظروف تقريبًا.

كانت مهنة هذا الرجل هي نزع الحياة بأكبر قدر ممكن من المهارة، فهو يمتلك فن منح الإثارة والمتعة لكل جسد يقابله. وفي غضون أيام قليلة، أصبح وجود "شي شياو" هو رمانة الميزان التي أعطت البعثةَ قوةَ تماسكها الهائلة على الرغم من قلة خبرة قائدها وعدم تجانس طاقمها. فهذا الرجل قصير القامة السمين ذو الرجلين القصيرتين، وذو الرائحة العطرة والمريحة، سيبقى - مهما حدث - الضمان الأخير للإنسانية داخل هذا المشروع اللاإنساني. فـ"شي شياو" يستطيع أن يسبر أغوار المستقبل. وقد شهد على هذه الحقيقة الغريبة العديد من الأشخاص الذين عرفوه، وهي شهادات يمكن العثور عليها مكتوبة في "جريدة الكونغو المصوَّرة" و"الحركة الجغرافية" وأيضًا في "خطابات الملازم ماسوي المصوَّرة".

ويمتلك "شي شياو" حواسًا خاصة، وكانت بمنزلة العين الثالثة الثاقبة للحقيقة، والكاشفة عن

جوهر كل موقف، بل وفي كثير من الأحيان، كاشفة ما سيؤول إليه الموقف مستقبلًا. ويُعتبر فن تشريح الأجساد أيضًا بمنزلة وسيلة للتنبؤ. لقد قرأ منذ بدايات تدريبه كيف ستكون عاقبة أمره ومنتهاه. لقد تنبأ أنه سوف يذهب إلى إفريقيا. عرف دومًا أن الاستعمار بمنزلة الطريق إلى الموت. وأدرك أن الاستعمار محكوم عليه بالفشل الإنساني. لقد تنبأ منذ مدة طويلة بالفشل الأخلاقي والحسي لبعثة "كلايس". فلم تُسعفه مهاراته لكي يتجنب سوء حظه. فكان يدرك ما قد تؤول إليه قصته المستقبلية.

لقد شعر أن مصيره هو أن يكنّ الحب لـ"بيير كلايس" مع اليقين التام بأنه سيبادله الشعور نفسه، ومع ذلك، فلا تكاد تمر ثانية واحدة منذ رأى مهندس المساحة لأول مرة، وقد سكنته المعاناة الشديدة، وكأنها أصبحت قدرًا لا مفرّ منه. وقد تنبأ "شي شياو" بيوم وفاته وساعتها بالضبط، وهما يوم وساعة وفاة مهندس المساحة أنفسهما بالضبط.

***

كان "شي شياو" يرسم وشمًا على جسد "مبانزو"، وقد أطلق العنان لأفكاره، وقد استظلَّا تحت ظل شجرة موز، على الضفاف المُوحِلة لمركز "إكواتورفيل" التجاري.

سرعان ما تجاذب الصيني والـ"وويو" أطراف الحديث ووجدا الكثير مما يجمع بينهما كونهما رفيقي سفر. كشف "مبانزو" باعتزاز عن العديد من الوشوم القبلية التي فتنت فنان الوشم "شي شياو". وفي وقت قصير، تبادلا النقاش حول التقاليد الرسومية الخاصة بهما. واستفاض "مبانزو" - خلال هذه الساعات الهادئة الطويلة - في شرح تفاصيل فنون "البانتو" المختلفة للوشم الدائم، البارزة وغير البارزة، بطريقة الشق التشريحي أو طريقة الاستثارة أو الجمع بين الطريقتين، واستفاض أيضًا في شرح الوشم سريع الزوال، الذي يُحضَّر بالطين الأبيض والفحم ومسحوق الخشب الأحمر أو ببتلات بعض الزهور الشائعة نسبيًا في بعض مناطق حوض الكونغو.

دُهِش "شي شياو" عندما عَرَف أن بعض الوشوم المتقلبة التي تزين جسد الشاب الـ"وويو" تتطلب تقنية دقيقة ووقتًا طويلًا، قد يستلزم تحقيقها عدة سنوات. لم يكن "مبانزو" يحمل وشومًا من تقاليد الـ"وويو" فحسب، وإنما أيضًا وشومًا أخرى خاصة لكل من الشعوب التي قابلها في مغامراته. وقد حمل وشمًا في العام السابق رسمه ساحر بنغالي التقاه، وهو ثلاثة خطوط على شكل ورقات تربط الأذن بالعين على الجانب الأيمن من الوجه، وهي أكثر الزخرفات التي افتخر بها. ولقد أراد "مبانزو" - الذي انسلخ عن عائلته وقومه لأسباب لم يُفصِح عنها - أن يحرص على تغطية نفسه قدر الإمكان بوشوم أجنبية.

هكذا تمكن من أن يدّعي بأنه متعدد الهُويّات. كان لديه العديد من الوشوم الخاصة بالنساء، أحدها كان مُتقَنًا للغاية وقد قال لـ"شي شياو" وهو يريه إيّاه، أنه متقنٌ لدرجة قد يتمكن معها من أن ينجب كالنساء. وقد عرض عليه الصيني أن يرسم له وشمًا خاصًا ببلده ويُنقَش على أسفل البطن بطريقة لا يمكن محوها. وقد كان رسمًا غامضًا، ولا بدّ من توافر شفرة رفيعة حتى يُشق الجلد والعضلات دون ألم أو دم. من ثمّ، إذا خُصّبَ "مبانزو" حقًا، فلن يواجه خطورة من الحمل، لأنه سيلد طفله عن طريق البطن. أثار ذلك دهشة "مبانزو". بينما تتلألأ أشعة الشمس المشرقة على أوراق شجرة الموز العريضة، كان "شي شياو" على وشك الانتهاء من وشم "مبانزو"، عندما جاء أحدهم ليخبره بأن "بيير كلايس" قد مرض بشدة فجأة. لم يتفاجأ "شي شياو"، فقد كان يعرف منذ البداية أن الأمور ستسير على هذا النحو. فخلال الأسابيع السابقة، كان "بيير كلايس" قد أدى دوره بجدارة كقائد للبعثة، بالرغم من إصابته بنوبتين من الحمى.

فقد استطاع التغلب على آلامه ودموعه، وكان يصافح الأيادي البيضاء المختلفة التي امتدت إليه بقوة وحزم، وهو يُوجّه نظراته الثاقبة بثبات في عيون محاوريه.

ومع إن رغبة "كلايس" لم تكن رغبة قوية، فقد تمكن من مضاجعة البغايا الشابات المحليات بانتظام، أي كل خمسة إلى ستة أيام. لطالما شعر في بروكسل بقلق طفيف أمام أقرانه الذكور، شعور بشيء من النقص، شعور بالذنب مكتوم بداخله. فلم يستطع قطُّ - في قرارة نفسه - فهم معنى أن يكون رجلًا، ذكرًا لا يمكنه البكاء. فقد وجد على الأراضي الكونغولية، نوعًا من الثقة بالنفس وعرف مهارات التعامل مع الآخرين على نهج الرجال. حتى إنه - وللمرة الأولى في حياته - قذف في فم امرأة، وهو الذي امتنع عن فعل ذلك حتى ذلك الحين، لأنه يُشعِره بالقذارة. فقد رفض إضافة تيار من السائل المنوي إلى هذا الفعل الشائن الذي ألحقه برفيقاته في الجنس - وهنّ في أغلب الأحيان من البغايا - ولكنه فعلًا يعتقد أنه يلحق بهنّ فعلًا ممنوعًا أو جرمًا أو استغلالًا ما ليحقق رغبته المُسيطِرة. وفي بعض الأحيان، في أثناء النشوة الجنسية، كان يودُّ لو توغل في هذا الشر الذي أدركه في قلب حياته، كما يُدخِل عضوه المرتعش في الحلق الذي اشتراه.

بحلول الصباح، اعتاد مهندس المساحة أن يحلِق ذقنه بعناية ويُمشّط شعره ويتطيب، ليبدو شديد التأنق أمام نفسه شكلًا وموضوعًا. حتى إنه كان يمازح جميع زملائه في تحمل المهام، فهم مسؤولون يوميًا عن تنظيم العالم وتطويعه، وقد ساد التآلف واعتادوا أن يحكوا لبعضهم بعضًا قصصَ أوروبا الشائقة الممتعة.

تعيّن على "كلايس" - في الكونغو أكثر من أي مكان آخر - أن يثبت قوة رجولته بين الرجال،

لذلك رحّب بدعوة "شارل لومير"، المفوّض القادم لمقاطعة "إكواتور"، لحفل استقبال خاص، ليقدّم نفسه إلى نخبة مجتمع "إكواتورفيل".

عندما وصل، رأى "بيير كلايس" أمام كوخ "لومير" سبعة أيادٍ مبتورة مصطفّة على الأرض، ويبدو أنها كانت مبتورة حديثًا. لا تزال تحمل رائحة الحياة، وبالرغم من حرارة الظهيرة، فهي لم تفسد بعد، ولكن يبدو أنه لا مفر من تعفنها، وقد غطتها الدماء والذباب. تراءت له في البداية كأنها سبعة سرطانات بحر غريبة صِيدَت للتو. ولكنه لاحظ أن لحومها لحوم بشرية وليست سرطانات بحر كما تخيل، وهذا ما أثار أعصابه وإزعاجه وقلقه.

أخذ الجنود ينظفون أسلحتهم أمام المبنى الطيني وهم ينفثون الدخان طويلًا، في حين يُقلِّب القبطان صفحات لعدد قديم من جريدة "لو باتريوت" (الوطنية). استرعى انتباه مهندس المساحة صبي لم يبلغ الخامسة عشر بعد، وهو من المجندين الأفارقة، كان يفرك بعشوائية عجينة سائلة حمراء تسيل على نصل سيف قديم المظهر. يبدو أنه سلاح من عصر نابليون عفاه الزمان. فَقَدَ نصلُه الكثيرَ من حدته، وربما أُعيدَ تدويره في القارة الإفريقية. ألقى الصبي السلام على "بيير كلايس". وسار هذا الأخير بخطى سريعة وانضمّ إلى المراقب الذي أبدى الكثير من الترحاب والود.

تبين لـ"بيير كلايس" خلال المساء أن الأيادي الستة المبتورة كانت أياديَ يمنى، لكنه لم يلحظ ذلك وقتها. قيل له إنها تنتمي إلى ستة عناصر مُخلّة بالنظام، رفضت إحضار الحصة الأسبوعية من المطاط للمراقب. وكان الملازم "ليون فييفيز" هو من اقترح هذه الفكرة لزيادة الإنتاج. وقد نجحت! لن يجدي مع الزنوج إلا ذلك. وعلى كل حال، لم يكونوا يستخدمون أيديهم في شيء ذي أهمية. في الواقع، كانت هناك يد سابعة لصبي أطلق عليه جندي النار في واقعة سرقة. ومن أجل تنظيم استخدام خراطيش البنادق والحد من الصيد غير المشروع، كان يجب قطع اليد اليمنى لأي رجل من السكان الأصليين أُطلِقتِ النار عليه، ثم إحضار هذه اليد إلى مراقب المقاطعة، ومعها فارغ الرصاصة التي أُطلِقت.

وكان على أصحاب البنادق أن يُفصِحوا عن ضحاياهم، سواء كانوا بشرًا أم حيوانات. في وقت لاحق، سمع "كلايس" من موظف ثمل أن الشاب المنتمي إلى "النكوندو" وأصله من "كاساي"، لم يسرق أي شيء، وأنه لم يقضِ نحبه، ولكن يده المبتورة قد قُطِعَت للتغطية على صيد غير مشروع لحيوان آكل النمل البنغولي الضخم الذي كان قد قُتِلَ في صباح ذلك اليوم. تعالت ضحكات "كلايس" - الذي كان ثملًا إلى حد ما – وهذا ما أسعد العديد من الضيوف وأثار حماستهم. قالت زوجة أحد الضباط مازحة إنها شعرت بخيبة الأمل لأنها كانت تتمنى بتر

أعضائهم الجنسية بدلًا من أيديهم، لأنهم يمتلكون أعضاءً رائعة. مُلوِّحةً بيدها بحركة بذيئة. تُشارِك الجميع الضحك، وأطلق "بيير كلايس" ضحكات أقوى من الآخرين.

مع حلول منتصف الليل، لم يتبقَّ سوى عدد قليل من الضيوف، في حالة سكر شديد تحت تأثير مخدر الحشيش والكحول. وأشبع عن وصول عاهرات من بروكسل إلى "إكواتورفيل" منذ بضعة أسابيع على حساب "جمعية أنفير للتجارة في الكونغو". "يا لها من أجساد بيضاء صغيرة تُذكّرنا ببلدنا الجميل!". كان "بيير كلايس" قد تقيأ للتو ولكنه أبى أن تضيع الفرصة، واصطحب إحدى الفتيات إلى مخدع متهالك من الطين والقش، ولعق مؤخرتها. ثم أراد أن يريها الأيدي المقطوعة، لكنه لم يعثر عليها، ثم ذهب لينام في الفراش.

***

لم يفق "كلايس" من ثمالته في اليوم التالي أو في اليوم الثالث، واستُدعي "شي شياو" إلى سريره. كان "كلايس" قد سيطرت عليه حالة من القلق المتزايد طغت على أفكاره. أصبح يرى حياته - النفسية والجسدية - وأحلامه واضطراباته، مثيرة للشفقة، وأنها مليئة بالشقاء المؤلم ولم يعد يكترث بها، كتجربة غير مدروسة. أدى قلقه الشديد إلى إحباطه، كما يحدث للمذنب عشية الإعدام. لقد انقلب كل شيء بين عشية وضحاها. ظل يكرر في حالة ارتجاف: "طفل في الجحيم". تدفق الخوف في عروقه وسرت البرودة الشديدة في أوصاله.

لقد انزوى متقوقعًا في سريره. وكان الخوف ينسلخ من جلده، وغرقت الملاءات في عرق الحمى والهلاوس، وتجمدت حياته وتحطمت حتى النخاع. وحينما أدرك الحقيقة ازداد شعور القلق والعزلة. فهو لم يقترب من حافة الموت بهذا القدر من قبل. وفقدت الحياة رونقها ومذاقها، وشعر بخيبة أمل شديدة أفقدته حتى رغبة الانتحار. كان النوم بمنزلة تعذيب شديد كأنه سجين لعالم آخر، عالم تسوده القسوة والشر. رأى طيف والدته، ورأى نفسه عندما كان طفلًا. رأى طيف والده. لقد انتهت تمامًا كل بارقة أمل. كما لو أن زرقة السماء قد اختفت، اختفت زرقتها إلى الأبد، واختفى معها نسيم الصباح وشعور الراحة، وشعور الابتهاج الماضي، وشعور البراءة، وأصبحت أفراحه أحزانه كقطة حبيسة وازداد هلعًا، وجزع الجسد المريض بلا توقف. هذا مستحيل، إنه مستحيل.. لم يصدق ذلك الكم من الحزن. كآبة تثير الغثيان. مع كل شهيق يندثر كل ما كان جميلًا، ومع كل زفير يتلاشى كل ما كان يحب. لقد أُسقِطَ في يده، فالحمى والهلاوس التي اجتاحت جسده آلمته بضراوة. آلمت ذلك الجسد البائس المرتجف. لم يشعر "بيير كلايس" بدنو أجله من موت محقق، ولكنه تخيل أن ينتهي به الأمر بالموت عطشًا في هذا السرير المثير للاشمئزاز. إن هذا لا يُطاق، وتملك منه الذعر وأخذ يتقلّب في فراشه المغطى بالناموسية،

ثم انزوى متقوقعًا على نفسه مرة أخرى.

فتح "شي شياو" باب كوخ "كلايس"، واقترب من السرير، وأمسك بإحدى كفي الرجل المريض، وتحسس جبهته بيده الأخرى، ثم تحسس رقبته ثم كتفيه، وضغط برفق على طول الجسد المريض. ثم تمتم أغنية بلغة غير معروفة. ثم أمسك يد "كلايس" برفق وظل يواسيه طويلًا. وقد شخّص بوضوح إصابة "بيير كلايس" بالملاريا. ظل طريح الفراش قرابة الأسبوع، وخلال هذه المدة سُمِحَ فقط لـ"شي شياو" برؤيته. كان تحت سمعه وبصره. وما بين عشية وضحاها، قطع "شي شياو" كل اتصال له مع بقية البعثة لتكريس نفسه للعناية بـ"كلايس".

***

شعر "مبانزو" - الذي لم يكتمل وشمه - بالاستياء جراء التغيير المفاجئ في الموقف، وشعر بأنه جرى تجاهله. فقد كان يغدو ويروح، ويجلس أحيانًا، حائرًا، بالقرب من كوخ "كلايس"، ولا يدنو لمسامعه سوى صمت غامض. ألقى باللوم على نفسه لعرضه الصداقة على هؤلاء الغرباء. هو أسود وهم ليسوا كذلك. بدا له ذلك كحاجز منيع. ومع ذلك، فحينما نظر إلى العمال السود الآخرين، شعر بأنه أكثر حظًا من أغلبية هؤلاء الذين أفنوا حياتهم عبثًا. ويبدو أن مهنته كميكانيكي للباخرة "فلور دي بروج" الخاصة ببعثة "كلايس"، قد منحته قدرًا من الاحترام في التعامل مع البيض الآخرين، وأضحى يشعر بقدر لا بأس به من الحرية.

فقد أصبح صديقًا للجميع دون أن يكون عبدًا لأحد. وكان في وسعه أن يغادر "إكواتورفيل" ويواصل طريق مغامراته، ولكن الوشم غير المكتمل ترك له شعورًا غامضًا بالبقاء والارتباط بـ"شي شياو" وبعثة "كلايس" رغمًا عنه. وأصاب عقله الاضطراب الذي بدأ بسيطًا ثم ازدادت حدته بسبب عدم اكتمال الوشم. لقد شعر بأنه يبصر مصيره ونهايته لأول مرة منذ أن شرع في السفر حول العالم، حتى انتابته أفكار الموت في ريعان شبابه.

***

عندما تعافى "كلايس" وعاد إلى الظهور بعد مرضه، أصبح نحيفًا بشكل مخيف. بدا وكأنه كبر خمسة عشر عامًا وأصبحت نظرات عينيه الزرقاء هائمة تشوبها ضبابية لا يمكن التنبؤ بها. وفي اليوم التالي، رسا "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي" على رصيف مركز "إكواتورفيل" التجاري وقد امتلأ مخزن سفينته بالمسامير الجديدة. وقد صافحه "كلايس" بحرارة حينما استقبله.



بصق "فاندر دورب" في مياه نهر الكونغو العكرة، متذكرًا "مانون بلانش"، تراوده ذكريات أوروبا في السنوات السابقة، وذكريات شبابه. انتابه شعور الخجل. كان قد رآها آخر مرة يوم 19 يوليو 1870، على شرفة مقهى بسيط، عندما ضجت شوارع باريس المزدحمة بالسكان بانتشار أخبار إعلان الحرب. وقتها غضب "فاندر دورب" من عدم اكتراث "مانون بلانش" حينما أخبرها أنه سيُقتَل برصاص جنود "بروسيا"، مع أنه غير فرنسي. بالكاد استمعت إليه. تذكر أنها كانت تتصبب عرقًا في ذلك اليوم. ربما كانت الساعة الثانية ظهرًا وكانت رائحتها نفاذة. ساد الصمت بينهما. أخبرته أنها ستفارقه ذاهبةً إلى "أندرو كولينز" في لندن اليوم التالي. أصابت "فاندر دورب" نوبة بكاء أمام "مانون بلانش" بكل بساطة، وأمام الرواد المنشغلين لهذا المقهى البسيط. بكى "فاندر دورب" كطفل خسر للتو في أثناء لعبه وأدرك أن الحياة غير عادلة، لقد فقد كل شيء للتو بلا أدنى سبب. ومع صباح ذلك اليوم في بداية الحرب، تلاشت كل الأكاذيب وتلاشى كل ما تبقى له من مستقبل وفقد كل شيء معناه، ولم تعد هناك قيمة لباريس، أو القهوة، أو حرارة يوليو، أو الحشود، أو الأغاني الوطنية، ولا لظلال الأشجار على المباني القديمة، لا شيء منطقي. تمامًا مثل السنوات الأربع التي ضاعت منه والتي هام فيها وحاول الحصول على حب "مانون بلانش".

كانت ضربة قوية لـ"فاندر دورب". ببساطة لم يستطع تصديق أن على وجه الأرض رجلًا إنجليزيَّ الجنسية ويصغره سنًا، يُدعى "أندرو كولينز" ويقيم في لندن، سيصبح كاتم أسرار "مانون بلانش"، وينام ويصحو بالقرب من فمها طيلة العمر، ويدرك أسرارها وما خفي منها. يوجد رجل آخر على وجه هذه الأرض ليسمع أنينها ولوعاتها، ولكنه ليس هو. وقد سبق لـ"فاندر دورب" أن تخلى عن "كامي كلايس" وابنها في بروكسل من أجل "مانون بلانش". كان لا يزال يذرف الدموع عندما نهضت "مانون بلانش" وغادرت المقهى دون وداعه. رفع رأسه ورآها تختفي إلى الأبد وسط الجموع الغاضبة، تحت ظلال الأشجار. ثم بصق مرة أخرى في نهر الكونغو في حين غنَّت الحشود النشيد الوطني "لامارسييز".

***

اضطر "فاندر دورب" إلى الانتظار أسبوعين كاملين قبل أن يتمكن من الانطلاق إلى "إكواتورفيل" حيث كان يأمل في اللحاق بـ"جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي" وبعثة "كلايس". وقد أيقن أنه إذا وصل في الوقت المناسب، فلن يضيع موت "كلاين" الابن هباءً. منذ تلك الليلة في المشرحة، ظلت ذكريات السنوات الباريسية المضطربة والمؤلمة تراوده حتى اكتشف أن الانتظار قد جلب منفعة وأن حزنه لم يُشفَ. ومع أن جراح حزنه لم تندمل بعد، فإن مغامرته في إفريقيا قد أبعدت الحزن عنه مؤقتًا. كانت إفريقيا بالنسبة إليه بمنزلة تخاذل مخزٍ وعلاج غير مُرضٍ على الإطلاق.

بدأ تفكير "فاندر دورب" في "كامي كلايس" يتضاءل تدريجيًا. أحيانًا يراها في أحلامه، ولكن دائمًا بصورة مُشوَّشة. تذكر لطفها وصوتها الرقيق وقوة إيمانها. كانت قد غادرت "بروج" من أجله، لتلحق به في بروكسل، حيث استُدعِيَتْ لتأدية مهنتها كونها طبيبة. لقد كانت رائعة. كانت تتزين بالذهب على رأسها. وقد تدفق الحنان من عينيها بشكل يفوق حنان السيدة العذراء. لولا نفسيتها القلقة لغمرت عينيها السعادة. في الواقع، لولا "مانون بلانش" - التي جاءت إلى بروكسل في مايو 1866 لمقابلة بعض الشعراء الذين كانت تراسلهم - لكان "فاندر دورب" سعيدًا.

كانت في السابعة عشرة من عمرها. لقد رآها في البداية مرة أو مرتين في المناسبات الاجتماعية التي دُعِيَ إليها بحكم منصبه كونه شخصية بارزة في المدينة. قدَّمَ لبعض الشخصيات الفنية المحلية المساعدات المادية، وحظي بتقدير كبير في الأوساط الفنية. تردد بانتظام بين الشعراء والرسامين وشعر بالراحة بينهم. ثم سمع عن "مانون بلانش" وأُتيحت له الفرصة للتحدث إليها، دون أن يسبب له ذلك أي قلق. ثم بُهِرَ بها في إحدى الأمسيات، عندما

تحدث معها مرة أخرى.

لم تبقَ لديه سوى ذكرى مُشوَّشة عنها. بقيت في ذهنه صورة الشامة التي لاحظها على ذراعها، والتي ما كانت لتظهر لولا شحوب بشرتها. وتذكر أن أحدهم أدلى بملحوظة أن الفتاة ربما تعاني فقرَ الدم والإمساك بسبب بياض بشرتها والبقع الحمراء الواضحة تحت عينيها. فانقلب حاله رأسًا على عقب. وتراءت له "مانون بلانش" للتو، وأشعل سيجارته. شعر بأن ذاكرته قد خانته فيما يخصُّ باقي الأمسية، مع أنها تركت أثرًا غائرًا فإنها يصعب وصفها. لم يشرب الخمر قطُّ، ومع ذلك فقد شعر بحالة سُكر لدرجة تُفقِد الوعي. وأمضى باقي الأمسية في حالة نشوة صادمة من تلك العيون الخضراء المحاطة بهالات سوداء، عيون واسعة وعميقة بشكل أخّاذ لدرجة أنها أسرَته بأنوثتها الباسمة. لقد اقتنع الآن بأنه لن يصادف مطلقًا فتاة تفوقها ذكاءً وجمالًا، وأن رقة القلب الذي تحمله هذه الفتاة، الذي توقَّعه وراء هذا الوجه ذي السبعة عشر عامًا، عاد إليه كهدية قدَّمها له القدر إكرامًا لمعاناته وعذاباته. فـ"مانون بلانش" هي الهبة التي منحه القدر إياها. كانت الرجفة تسري في جسده حينما يتخيل فقدانها أو يتخيل رفضها له، تمامًا كمن يحاول معاندة القدر.

تخيل أنهما معًا في مكانٍ شديد الارتفاع، متباعدين، يحاولان الاتزان على الحبل. إن لم تتشابك أيديهما معًا، فسوف يسقط أحدهما بعيدًا عن الآخر. أصابت "فاندر دورب" الرجفة والدوار من مجرد التفكير في تخلِّي "مانون" عنه، وانتابه شعور الحب وهو يتخيل حنان تلامس أيديهما. لقد أحبها حبًا ليس له مثيل، حبًا يجعله رهن إشارتها وكان يتوق شوقًا إلى معرفة ماضيها. انتابه شعور حسي وتخيل نفسه وهو يلثم فمها ويقبل أنفها الرائع، ويتحسس جبهتها، ويشمُّ رائحة جسدها، وشعر بفناء ذاته في هذا الحب. ولم تعد "كامي كلايس" تخطر على باله قطُّ.

***

كانت "مانون بلانش" بارعة في الكتابة إلى حد كبير، بل يمكن القول إنها كانت مذهلة. وعلى الرغم من صغر سنها الذي لم يتجاوز الخامسة عشر، استطاع كُتيبها ذو العنوان البسيط "الزنبق" اكتساب احترام العديد من الشعراء المشهورين آنذاك. كانت واحدة من الأشخاص القلائل في بروكسل الذين نالوا شرف مقابلة "شارل بودلير" الذي كان طريح الفراش بعد نوبة شلل نصفي أصابته. بل قيل إنها دُعيَت أيضًا إلى بيت أسرة "هوجو" الذين نُفوا في بروكسل في ذلك الوقت. لقد استطاعت تحدي العالم وإثبات براعتها كونها شاعرة. وعلى الرغم من صغر سنها، فقد اتسمت بالأنوثة الشديدة. وكان تألقها النابع من استقلاليتها وعبقريتها يبعث على الغيرة. ولذلك

حاول الكثيرون النيل منها وتصيُّد الأخطاء في أسلوبها، وربما كانت بها عيوب فعلًا، لكنه من المستحيل عدم الاعتراف بموهبتها الأدبية الصادقة.

"مانون بلانش" ستكون بلا شك ممن يمتلكون مواهب واعدة في ابتكار المذاهب الشعرية الحديثة، هذا ما قاله لها "بودلير" المريض بصعوبة خلال زيارته القصيرة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت "مانون بلانش" تتمتع بروح الدعابة وعرفت كيف يمكنها تجديد العالم من حولها. سأل "أرمان رويمبيك":

- أتعتقد أنها لا تزال عذراء؟

شعر "فاندر دورب" أنه قد يفقد الوعي. فمجرد فكرة أن يسبقه أحد إليها، جمّدت الدم في عروقه. لم يبدِ صديقه "رويمبيك" أي قلق أو انزعاج جرّاء تألق الشاعرة الباريسية التي بَهَرَتِ المجتمع الراقي في بروكسل. لقد كان منشغلًا بإحدى الممثلات فعلًا. أبدى اهتمامًا بموهبة "مانون بلانش" الشعرية قبل كل شيء، حتى إنه خطط لكتابة مقال عنها، يسرد فيه السنوات الأولى لرحلتها المبكرة في الكتابة. وكان جليًا لعينه ما أثاره ذلك السؤال في نفس "فاندر دورب"، حتى إن الأخير لاذ بالصمت.

- أعتذر يا صديقي، لم أقصد أن أكون فظًا تجاهك.. إذا كنت تريد نصيحتي، أفصح لها عن شعورك في أقرب وقت.. عليك أن تجسّ نبضها.. أنت تعرف هذا حتمًا، كونك طبيبًا.

- هل يبدو الأمر عليّ جليًا إلى هذا الحد؟

- طبعًا. أرجو أن تفعل أي شيء قبل أن يحدث ما لا تُحمَد عقباه.

صافح "رويمبيك" صديقه طويلًا. كانت هذه واحدة من النقاط الفاصلة في حياة "فاندر دورب". وبلا أي مقدمات، كان شاب أسود يقف فوق الجسر يصرخ مستغيثًا باللهجة الكونغولية مشيرًا بإصبعه نحو مكان بعيد قرابة الخمسين مترًا من الباخرة الصغيرة. مشيرًا نحو تمساح هاجم فجأة إحدى صغار الجاموس التي حاولت الصراع من أجل البقاء.

***

لم يجرؤ "فاندر دورب" على الإفصاح عن حبه لـ"مانون بلانش". اتسمت حياته - خلال الأسابيع القليلة التي قضتها "مانون" في بروكسل - بالكثير من القلق. القلق بشأن عدم رؤيتها، والقلق من عدم وجوده إلى جوارها. والقلق أيضًا من أن ينتهي الأمر بالكشف عن لعبته، وهي أن يبدو دائمًا أنه يقابلها محض مصادفة كلما خَرَجَتْ. من حسن الحظ، كان "فاندر دورب" كثير

القراءة ويعرف الشعراء اللاتينيين. ومن خلال هذه اللقاءات، نجح في جعل "مانون بلانش" مهتمة بالمناقشات الأدبية التي تَلقَى قبولًا لديها. ولقد استغل هذه المزية إلى أبعد مدى. فقد كانت الشابة متعطشة إلى المحادثات العميقة، خاصة أن الوسط الأدبي في بروكسل، في بعض الصالونات البرجوازية العصرية، يبدو أحيانا كَوَسط سطحي وممل، وخالٍ من العمق الفني الحقيقي، يسوده الغرور والقصص الخيالية الشخصية ضئيلة المستوى والخالية من الإبداع بالنسبة إلى عقلية شابة يقِظة. وهكذا أصبحت أوقات المحادثة بينهما أوقاتًا تتسم بالذكاء والخصوصية.

تطرقت أحاديثهم عن الأدب إلى الابتعاد عن المواضيع المملة، تحت هواء الشرفات الطلق في أمسيات الربيع البلجيكي، أضحى "فاندر دورب" مبهورًا بها، ومع ذلك، لم يجرؤ قطُّ على تحديد موعد لمقابلتها. كانت لقاءاتهما تحدث دائمًا تحت ستار حدث أكبر، كانت تبدو كمصادفة تلقى ترحيبًا منها، وتستند إلى ذلك التفاهم الذي حدث بينهما ولم يرغب قطُّ في أن يتخطاه أو يتجاوزه. لم تعنِ هذه المناقشات بأي حال من الأحوال أي نوع من أنواع الرومانسية الحقيقية التي تتجاوز الأمور الفكرية. ثم إن شخصية "مانون بلانش" تبدو غامضة وبإمكانها أن تُنكِر، إذا سُئلَت، أي ميول عاطفية تجاه "فاندر دورب".

***

تدهورت الحالة الصحية لـ"بودلير" بسرعة هائلة. ففقد القدرة على الكلام، وأصابته كل المضاعفات العصبية والمَعِدِية التي سببها له مرض الزُهري الذي كان قد أصيب به منذ عدة سنوات وسبق تشخيصه خطأً. واتُّخِذ قرار إعادته إلى باريس إثر وجود والدته - التي جاءت إلى بروكسل لرعايته - حيث سيخضع لعناية الدكتور "دوفال". فاق إعجاب "مانون بلانش" به أي شخص آخر. وبعد أن رأته عدة مرات منذ لقائهما الأول، أضحت كاتمة أسراره في أيامه الأخيرة، وأرادت اختزال إقامتها في بروكسل من أجل مرافقته إلى فرنسا. وقد وقع هذا الخبر كالصاعقة على نفس "فاندر دورب".

رآها "فاندر دورب" في بروكسل للمرة الأخيرة في إحدى الحانات الريفية في أثناء احتفالية نُظِّمَت من أجل مؤلف ديوان "أزهار الشر" الذي بدا ضعيفًا ومحمومًا، تحت بطانيات كثيفة، بالرغم من الرطوبة الحارة في ذلك اليوم، جالسًا كظل ملك متكئًا على ذراعي كرسي من القرن الماضي جُلِبَ محمولًا على حمار. وحضر "فيكتور هوجو" الذي زاد الحضور شرفًا، ولعب مع الأطفال وتجاذب أطراف الحديث مع السيدات. وقد حضر قرابة العشرين شخصًا الذين أمضوا وقتًا ممتعًا على ضفاف بحيرة صغيرة ليس فيها أسماك للصيد سوى بعض السمك النهري وبعض

سمك السلور الصغير الذي تنضب حركته تدريجيًا عندما يُترَك ليموت على العشب على الشاطئ.

لم يستطع "فاندر دورب" الانفراد بـ"مانون بلانش" إلا في نهاية اليوم. حينما جلسا على حافة الماء، تحجب رؤيتهما أعوادُ القصب الطويل المتمايل، وقد قرر "فاندر دُورب" البوح لها بحبه. شجّعه على ذلك أنها منحته في الأسابيع الأخيرة بعض النظرات وبعض الكلمات التي أعطته الأمل في أنها تبادله شعوره، وأن عواطفه الجياشة وثقافته قد نجحت في التسلل إلى هذا القلب الغض. وحينما تناهى إلى سمعه أن "مانون بلانش" سترجع إلى باريس، اشترى لها خاتمًا من الذهب نُقِشَت عليه الحروف الأولى لاسميهما وأراد أن يقدمه لها حتى لا تنساه. جلس الاثنان يتحدثان على ضفاف النهر. بدت تلك اللحظات لـ"فاندر دورب" كالحلم، حينما باغتته "مانون بلانش" بالكلام:

- صديقي، أنا قلقة للغاية بشأن "شارل". كلما اتبع نصائح الأطباء "ماكس" و"مارك" ساءت حالته.. سمعتُ أنك طبيب مُميّز.. إن لم تكن ترغب في التدخل لعلاجه، هل يمكنك على الأقل التحدث معه؟

- نعم.. يا آنستي، إذا وافق، يمكنني أن أجلس بضع لحظات معه، لكن...

- سأكون شاكرةً جدًا!

ثم وضعت يدها على ذراعه.

- آنسة "بلانش"...

- نعم؟

- ستغادرين قريبًا، أقرب مما كنت أتخيل...

بدأ "فاندر دورب" يشعر بإحساس غريب في سرواله. شعر بشيء دافئ يتحرك على فخذه. ولكن لشدة تأثره، لم ينتبه كثيرًا.

- "مانون"، كنت أود.. أنا...

تحرك الشيء قليلًا في جيبه.

- سيد "فاندر دورب"؟

أصبح وجه "فاندر دورب" شاحبًا عندما أدرك أن ثعبانًا كبيرًا كان يحاول الاستقرار في أحد

جيوبه. ثم قفز قفزة هائلة في جزء من الثانية، وغطس سريعًا في الماء في حين وقع الثعبان من جيبه ليسقط عند أقدام "مانون بلانش".

أدركت الشابة ما حدث وضحكت بصوتٍ عالٍ وهي تلتقط الثعبان. رَاقب "بودلير" المشهد من بعيد، وضحك أيضًا، وكانت هذه هي آخر مرة يضحك فيها في حياته. أطلق "فاندر دورب" صرخة حادة جذبت بعض الأشخاص هرعًا إليه. كاد يموت خزيًا، إذ كان مبتلًا وتفوح منه رائحة الطين. ولقد ساعده أحدهم للوصول إلى الشاطئ وعرض عليه مرافقته إلى المدينة لتغيير ملابسه، فوافق على ذلك. وبينما هو في الطريق، أدرك أن الخاتم الذهبي لم يعد معه، ورجَّح أنه قد سقط في الماء وغاص في الوحل، فامتلأت عيناه بالدموع، واسترجع في ذهنه مشهد "مانون بلانش" وهي تمسك الثعبان في يديها.

***

بعد بضعة أيام، غادرت "مانون بلانش" بروكسل، وانهارت نفسية "فاندر دورب" التي حاول كبتها. وانتابته أسوأ الهواجس بسبب عشقه المَرضي. وقد حاول الاستغراق في بعض النشاطات لكبح جماح عواطفه، مثل الاهتمام بعمله، والاهتمام بأسرته وأن يبدو كأب صالح وزوج جيد. وحاول تسويغ عدم انتباهه وغيابه بادّعاء المرض والإرهاق الشديد. وقد نجح في ذلك بعضَ الوقت. الوحيد الذي كان على دراية بمدى عذابه هو صديقه "أرمان رويمبيك". لكنه لم يستطع مجالسته مدةً طويلة، فقد اضطرته مأساة عائلية إلى السفر إلى باريس طوال فصل الصيف. استسلم "فاندر دورب" لأحزانه، وفقد الاهتمام بكل شيء. توقف عن العمل. ثم عن النوم ثم عن تناول الطعام.

كرَّس أيامه ولياليه للمشي مسافات طويلة خارج المدينة. وكان يتوقف أحيانًا للنظر جنوبًا تجاه باريس. لم يجد الراحة إلا في النظر إلى زرقة السماء وبعض الغيوم التي تمرُّ بعيدًا فوق الحقول والمروج. وقد تخيَّل نفسه مع "مانون بلانش"، وهو يقبِّلها في فمها، ثم يتوقف العالم تمامًا من حولهما.

كان "فاندر دورب" يعود إلى المنزل كل مساء. لقد فقد حب "كامي كلايس"، وكذب عليها، وتملَّكه الشعور بالخزي والعار. لم يستطع أن يعترف لها بالأسباب الحقيقية لحالة الحزن الشديد التي يمر بها. فلو لم يلتقِ "مانون بلانش"، لعاش سعيدًا مع "كامي كلايس". ولكنه التقاها. وقد أدرك الآن أن قدره أن يعيش تَعِسًا.

أعلنت صفارة الباخرة الرسو في مركز تجاري، واستعدَّ العمال السود لتفريغ شحنة من

البنادق. تمنى "فاندر دورب" كل الخير لـ"كامي كلايس" وابنها. لقد أحبّ "بيير" الصغير واعتبره الطفلُ كوالده. وفي إحدى الأمسيات، اصطحبه في نزهة طويلة سيرًا على الأقدام. كانت السماء صافية، وراقبَا النجوم معًا، وحدّثه عن الكواكب. وبحلول منتصف الليل، أعاد "بيير" الصغير، نائمًا بين ذراعيه. وبينما كان يضعه في الفراش، قبّله قبلة طويلة على جبهته. وفي صباح اليوم التالي، استقلّ "فاندر دورب" قطارًا إلى باريس.

ضربت الباخرة ضفّة النهر بعنف. لم تكد ترسو حتى أخذ الرجال في العمل في الحرارة الشديدة. نسي "فاندر دورب" للحظة "مانون بلانش" و"كامي كلايس" و"بيير" الصغير.



انهارت معنويات "بيير كلايس" بسبب اختفاء والده بالتبني. لم يكن لديه خيار سوى تجرُّع حزنه الذي تحوَّل تدريجيًا إلى كراهية. كراهية شديدة تجاه هذا الأب الهارب، وظهرت هذه الكراهية الدفينة على شكل حزن. كانت هذه الكراهية بالتأكيد أحد الأسباب التي جعلته أيضًا يغادر بلجيكا ويجرب المغامرة الإفريقية. لم تكن لديه فكرة واضحة عمًا أصبح عليه هذا الأب المزيف، فكان يتخيله دائمًا هاربًا عبر البحار، أو ربما كان يرغب في العثور عليه لجعله يدفع ثمن فعلته.

وتسبب هذا الموقف الباعث على الاكتئاب الذي حدث في "إكواتورفيل" وخرج منه للتو، في إيقاظ هذا الغضب الكامن بداخله، ولأسباب يجهلها، فقد وصلت به الحال إلى أنه أصبح يكره بشدة ليس فقط والده بالتبني، بل كره كل أشكال السلطة الذكورية. كره نفسه لكونه جنديًا مأجورًا من الملك. عشرون عامًا من الغضب تمكنوا من قلبه في الأدغال الكونغولية. لم يكن "بيير كلايس" - الموظف الاستعماري، أو بتعبير الملك "ليوبولد": "موظف التقدم" - إلا مجرد شاب صغير عديم الفائدة، ابن لرجل يُعتبَر في عداد الموتى، بعد أن أفسد كل شيء بهروبه وأصبح لا يرقى إلى مكانة الأب. وقد تمكَّن من تحويل هذا الغضب الطفولي إلى خضوع من أجل التعايش في أوروبا في ذلك الوقت، ولم يستطع إخفاء هذا الغضب فظهر على شكل حزن دائم وفقدان ثقة اعتاده، بل وامتثل له، منذ أن هُجِرَ. وتذكر قراءته قصةً عندما كان مراهقًا، قصةَ رجل كان يحمل عجلًا بين ذراعيه بلا راحة، ثم تمكن على مر السنين وبتعوُّد ذلك، من النجاح في حمل ثورٍ دون عناء.

شغلت القصة ذهنه مدةً، ثم لم يعد يفكر فيها مرة أخرى لأنه قد أدرك أن ألمه الشبيه بالعجل

في القصة، لم يقدر قطُّ أن يتعوده ولم يعد لديه خيار سوى إلقاء نفسه في غيابات الكونغو الشبيهة بثور الأساطير الإغريقية "الميناتور".

***

إن "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي" هو الرجل الأبيض الوحيد الذي لم يكرهه "بيير كلايس" في الكونغو، في حين يرى أن الآخرين هم حفنة من المتطفلين الذين يمثلون الأوهام المريضة للملك "ليوبولد الثاني". هم موظفون تافهون على قدر كبير من السطحية تكفي لتلويث العالم الحديث بشكل مَرَضِي كوباء يمتد من أوروبا المريضة إلى بقية الكوكب. هؤلاء المسؤولون سواء من كان منهم قصيرًا أو طويلًا، أو سمينًا أو نحيفًا، هم حفنة من الأغبياء، ينتابهم الفخر حينما يطيعهم زنجي لا يملك من أمره شيئًا لأنه مُرغَم تحت تهديد السلاح. ويزدادون نشوة بإفراغ مَنيِّهم في جسد أي عاهرة في الثانية عشرة من عمرها. هكذا اعتادوا أن يفعلوا، وكذلك اعتاد أيضًا "بيير كلايس"، وما كان ليبغض تلك الخطايا لولا رجال مثل "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي". كان لدى هذا البولندي شيء أرقى، شيء أسمى، شيء أشعره بإمكانية التكفير عن ذلك كله والخلاص منه. لقد كان أحد البيض القلائل في الكونغو الذين يحترمون السود حقًّا، الذين لا تتغير نظراتهم عند الحديث عنهم أو مراقبتهم، وأحد القلائل الذين يتعاملون معهم بإنسانية كاملة.

أتيحت الفرصة لـ"كلايس"، خلال اليومين اللذين قضاهما البولندي النحيل في "إكواتورفيل"، لقضاء بعض الوقت معه. لقد ذهبا معًا للصيد برفقة "مبانزو"، وابتعدا قليلًا عن المركز التجاري. واستطرد "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي" في الحديث عن الأدب الذي توقف "بيير كلايس" عن قراءته منذ بضع سنوات. وانتابه الشغف الشديد لسماع هذا الرجل نحيل الجسد وشديد التميز. لم يتمكن من اصطياد أي شيء حتى هذه اللحظة. وكان قد تولى زمام منصبه الجديد لدى ملك بلجيكا بعد رحيل سلفه. وأبدى إعجابه بالأسلوب الساخر المزدوج لـ"جوستاف فلوبير"، بعيدًا عن جمال القوافي، فقد كان لديه أسلوب ساخر مزدوج مثلما تملك العملة وجهين. روى لهما قصة رواية "سالامبو" لـ"فلوبير" وهو يضع بندقيته على كتفه ثم أطلق النار على ظبي صغير لم يملك الوقت للهرب. ظلت عيناه السوداوان مفتوحتين. وعندما اقترب "بيير كلايس" منه، لاحظ جماله. وفكَّر في أن هذا الحيوان قد مات من أجله، ثم تناسى الفكرة سريعًا. وحمل "مبانزو" الجسد الصغير على كتفيه. وسهروا في تلك الليلة، برفقة "شي شياو"، الرجل الآخر الوحيد الذي كان "كلايس" يُكِنُّ له الاحترام. وشرب الجميع من نبيذ النخيل حتى ثملوا. وبحلول منتصف الليل، ترك "كلايس" رفاقه.

وعندما وصل إلى كوخه، تردّد قليلًا، ثم أخذ بندقيته وعاد أدراجه وتوجه نحو كوخ المراقب "لومير" مترنحًا وتذكر سخرية الأديب "فلوبير" التي أخبره عنها "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي". انتظر قرابة الساعة أمام كوخ "لومير" مترددًا في أن يطرق الباب، ماسكًا بندقيته وكان ثملًا لدرجة أنه لا يدرك ماذا يفعل. لم يره أحد. استلقى على الأرض وهو يدخن ويستمع لأصوات الغابة المحيطة. وأخذ يفكر لحظة في أن يُقدِم على الانتحار. بدا ذلك غير منطقي على الإطلاق. وراودت ذهنه أفكار مثل الظباء الصغيرة التي سبق أن اصطادوها، ثم انتقل تفكيره إلى شيء آخر ألا وهو الاكتشافات الفلكية التي قد قرأ عنها مقالًا مثيرًا للاهتمام قبل أيام قليلة من الشروع في السفر إلى إفريقيا، وذكرت هذه الاكتشافات أن وراء "أورانوس" كوكبًا ثامنًا. ثم أغمض عينيه قليلًا وبدأ يستعيد هدوءه ثم عاد إلى الفراش ليخلد للنوم.

***

جُهِّزَتِ الباخرة "فلور دي بروج" للإبحار. عاد "جوزيف تيودور كونراد كورزينيوفسكي" إلى "ليوبولدفيل"، مصابًا بالإسهال منذ اليوم السابق لمغادرته. وبناءً على نصيحته، تمكن "كلايس" من السيطرة على غضبه وقلقه، أو على الأقل تحجيمهما. وقد سبق أن حكى له موقف انتظاره في أثناء الليل أمام كوخ المراقب "لومير". انغمس "جوزيف" في التفكير وقد أصابته الحيرة وظل محدقًا إلى مهندس المساحة، دون أن يتكلم ثم ربت بود كتفه قائلًا:

- أدّ مهمتك وارجع إلى أوروبا يا "بيير".. فهذا البلد لا يناسبك.. أنت رومانسي للغاية.

ترك الصديقين بعضهما بعضًا وتواعدا باللقاء مرة أخرى في إفريقيا أو في أوروبا. وبمرور ثلاثة أيام، غادرت باخرة "فلور دي بروج" مدينة "إكواتورفيل". وقد آثر "بيير كلايس" - الذي كان على رأس البعثة - الصمت مدةً طويلةً.



وصل "فاندر دورب" إلى ضفاف "إكواتورفيل" الموحلة بعد أسبوعين من رحيل "بيير كلايس" وبعثته. وزار المراقب "لومير" الذي أشاد بـ"كلايس" واصفًا إياه بأنه شاب غريب الأطوار، ولكنه يتسم بقوة العزيمة وهذا يبدو واضحًا من ثبات نظراته. وصفه أيضًا بأنه مقدام، يتمتع بروح المغامرة، بلجيكي أصيل تحمرُّ وجنتاه من حرارة المناخ الاستوائي، ثم أردف ضاحكًا أنه على الرغم من النقص الشديد للبيرة، فإنه لن يغادر الكونغو لأنه أحد أولئك الذين تحتاج إليهم البلاد بشدة. في هذه الأثناء خرجت فتاة صغيرة من كوخ مراقب المقاطعة وهي تركض وتقيأت ما في بطنها أسفل إحدى الأشجار.

- هؤلاء الفتيات الصغيرات لا يتحمَّلن المناخ الإفريقي، حتمًا سيغادرن معك غدًا على متن الباخرة التي ستركبها.. إنه لشيء مؤسف.. فبإمكانهنَّ جني الكثير من المال هنا.. الوحيدة "كامي" الطويلة هي من اعتادت ذلك.. ستكون هنا الليلة.. إنها ذكية جدًا، سترى ذلك بعينيك، فهي تختلف كثيرًا عن الزنجيات.

رفض "فاندر دورب" الدعوة بطريقة مهذبة وطلب أن يُمنَح كوخًا ليستقر فيه بضعة أيام. عرض عليه "لومير" الكوخ الذي كان يسكنه "كلايس". عندما دخله "فاندر دورب"، وجد بعض الملاحظات المكتوبة بخط اليد المتعلقة بحسابات هندسية مختلفة غامضة بالنسبة إليه. طوى هذه الملحوظات بعناية ووضعها في حافظة جلدية كان يحملها أينما ذهب. ولاحظ بعض

أعقاب السجائر التالفة على الأرض وآثار لأقدام بدت واضحة في الغبار الأحمر. لقد مرّ ما يقرب من ربع قرن منذ أن كان بهذا القرب من "بيير كلايس".

عندما قرر الرحيل، كانت لحظة الفراق هي الأصعب. ظل يكرر لنفسهُ طوال الليل أنه ليس ابنه الحقيقي، بل ابن رفيقته. طغى هوسه بـ"مانون بلانش" على كل شيء. وعندما وصل إلى "جار دو نور" (محطة قطار الشمال) بباريس، كانت السماء تمطر. ولكنه لم يُلقِ بالًا بذلك ما دام يقترب من "مانون بلانش"، هذا هو كل ما سيطر على جوارحه.

***

اضطر "أرمان رويمبيك" إلى السفر عاجلًا إلى باريس ليلحق بعمته الوحيدة العجوز المريضة التي كانت تموت بسبب سرطان الحلق في صيف عام 1866 الحار. هذه العمة، "ليوني كولوميه"، كانت فلمنكية الأصل، ولكنها تتحدث الفرنسية بطلاقة، وقد تزوجت بعد وقت قصير من معركة "واترلو" ضابطًا منشقًّا من جيش "نابليون" المهزوم الذي آثر - بعد الهزيمة - أن يُغيِّر اسمه ومهنته سرًّا. وقد أحبها بجنون، وهي الفتاة ذات الحسب والنسب التي قابلها على ناصية شارع في بروكسل. وقد أثمرت هذه العلاقة عن حدوث بعض التغييرات في توجهاته، فقد تحوَّل إلى العمل في صناعة السكر، وهي صناعة خرجت من رحم الاستعمار وازدهرت فيها تجارة والد "ليوني".

اختار "فرانسوا بيشان" أن يحمل اسم جده "تيوفيل كولوميه" - وهو اسم لا يمتُّ إلى طائفة النبلاء بِصِلة - هذا الجد الذي كان قد مات تحت المقصلة عام 1793. غيَّر اسمه إلى "تيوفيل كولوميه" تزوج "ليوني رويمبيك" واستقر في باريس في "بوليفار دو تامبل" حيث كان يساعد حماه في إدارة استيراد السكر.

لم ينجبا أطفالًا. كان "فرانسوا كولوميه" قد أصيب إصابة بالغة في معركة "واترلو" ولكن بالرغم من ذلك فقد حظي بحياة هادئة ومريحة.

في صباح أحد أيام أبريل 1861 وبينما كان "فرانسوا" نائمًا في هدوء بين ذراعي "ليوني" فاضت روحه بعد بضع دقائق جراء توقف مفاجئ لعضلة القلب. وبعد بضع سنوات، قضت "ليوني" أيضًا نحبها، في هدوء، وهي تمسك بيد ابن أخيها العزيز الذي كان بمنزلة الابن البار بها، والذي تركت له كامل ميراثها متضمنًا مصنع السكر وشقة "بوليفار دو تمبل".

"كل شيء لك يا صغيري "أرمان"، لن تضطر إلى العمل بعد الآن. فالعمل بمنزلة استهلاك ليس له نهاية لحياة الإنسان القصيرة".

حجبتِ الشمسَ بعضُ السحبِ، وأسدِلَتِ الستار على حياة السيدة الطيبة.

بدأ "أرمان رويمبيك" الذي أسعفه حظه بالتحلل من الأعباء المادية عيش حياة أدبية بعيدة عن التزامات العمل في ذلك الصيف، وقد كرّس حياته فقط للانغماس في الملذات والمغامرات غير المحسوبة. ثم زاره صديقه "فاندر دورب" في بداية سبتمبر. لم يتفاجأ به كثيرًا، وكان يبدو مضطربًا بشكل واضح، وإذ إنه يعرف ما يشتهيه، فقد أحضر له كوبًا من مشروب "البابونج".

قضى الرفيقان بضعة أيام معًا في شقة "بوليفار دو تمبل" رقم 35. دعا "رويمبيك" "فاندر دورب" للعيش معه، بعد أن فهم أن "فاندر دورب" قرر الاستقرار في باريس. وهنا قرر "رويمبيك" أن يُفصِح عما يجول بخاطره قائلًا:

- تزوج شريك عمي الراحل امرأةً شابةً، ابن عمها شاعر. أتيحت لي عدة فرص للقاء هذا الشاعر.. هو رجل غريب الأطوار وقد رأيته مرة أخرى مؤخرًا بعد أن نشر شيئًا مثيرًا للاهتمام، شيئًا جديدًا، وقد دعوته لتناول الغداء هذا الأسبوع. إن "مانون بلانش" تُكِنُّ له كثيرًا من الاحترام، ولو دعوتُها ستأتي حتمًا، وحينها ستبدو المقابلة في إطار طبيعي جدًا.

لم يحرك "فاندر دورب" ساكنًا في حين كادت ضربات قلبه تُسمَع في الغرفة.

حُدِّدَ الموعد ليوم الخميس المقبل في الحادية عشرة والنصف.

***

استفاق "فاندر دورب" من شروده على صوت ضحكات صادرة من كوخ "لومير". هل استغرق في النوم حقًا؟ وحينما جاء الليل شعر كأنه سقط مثل جسد ثقيل، يتصارع مع الظلال. استلقى "فاندر دورب" تحت ناموسيته وهو ينفث دخان الغليون بعمق، وجال بخاطره ذلك اليوم الذي اعترف فيه لـ"مانون بلانش" بحبّه.

وصل "بول فيرلين" أولًا واستقبله "رويمبيك" بحرارة. وقد تمالك "فاندر دورب" نفسه عندما رأى التشابه الشديد بينه وبين قرد النسناس الصغير أو قرد "الكابوشي" الذي رآه قبل بضع سنوات في حديقة حيوان بروكسل. دخل الصالون وقد أقحم نفسه في بدلة كاملة لا تناسبه، بل تبعث على السخرية أيضًا.

كانت يداه المغطاة بالإكزيما مُقزِّزة للغاية. سيطر على "فاندر دورب" شعور بالارتياح، حينما دار بخلده أن "مانون بلانش" لن تشعر بما هو أكثر من الإعجاب تجاه هذا الرجل. يبدو بعيدًا أن تشعر بأي شيء تجاهه خلاف الصداقة. وحقيقة أن الضيفين لم يصلا معًا بعثت في نفسه

الطمأنينة أيضًا. وتلاشت مخاوفه التي لا حصر لها والتي شغلته في الليالي والأيام السابقة. من الواضح أن "فيرلين" هذا ليس عاشقَ "مانون بلانش" بالتأكيد.

- تشرفتُ بلقائك يا سيد "فان بر بور"... لقد حدّثني "أرمان" عنك كثيرًا.

ابتسم "فاندر دورب" لـ"فيرلين" بلطف. دخّنوا سجائرهم واحتسوا مشروب الكحول باليانسون. ثم جاءت "مانون بلانش".

تذكّر "فاندر دورب" ذلك بدقّة وهو مستلقٍ في إحدى ليالي الكونغو الطويلة. في ذلك اليوم احتسى الكحول باليانسون، وهو الذي لم يحتسِ الخمر قطُّ. احتساه ذلك اليوم ليس فقط لتهدئة توتره، ولكن ليتمكن من مراقبة الشاب "فيرلين" بدقة. مع أنه يبدو خجولًا، فإن نظراته اللامعة جريئة إلى حد مقلق، وهذا ما يتطلب فرض الرقابة عليه. وقد بدا له كأنه شخص شهواني منحرف أبيض نحيف. تذكر "فاندر دورب" أيضًا الكلمات الأولى التي وجّهتها له "مانون بلانش" عندما رأته: "لقد احتفظتُ بالثعبان!".

حاول "فاندر دورب" أن يجد ردًا سريعًا وذكيًا، ولكنه لم يجد ردًا مناسبًا. روت "مانون بلانش" قصة الثعبان لـ"رويمبيك" و"فيرلين" وأكدت أنه منذ ذلك اليوم لم يرَ أحد "بودلير" يضحك مثلما ضحك آنذاك. إنه هو من طلب الاحتفاظ بالثعبان في حوض بقرب سريره في باريس. فالثعبان الذي غيّر جلده حديثًا كان بمنزلة الحارس له في فراشه. واحتفظت "مانون بلانش" بالجلد المنسلخ القديم، بل إنها حاكته بالخياطة على قبعة صيفية أرادت أن تهديها لـ"فاندر دورب".

صاح "رويمبيك" قائلًا:

- في صحة أعظم الشعراء.

وشربوا جميعًا. رد "فيرلين":

- كفاك مبالغة!

واستمرّوا في احتساء الخمر. رفعوا كؤوسهم نخب أشياء أخرى ثم جلسوا ليتناولوا الغداء. حاول "فاندر دورب" تذكر تفاصيل المحادثة المنسية. تذكر ذلك الجنون الفج الذي تفوّه به "فيرلين" وهو يحتسي الخمر. ضحك "فاندر دورب" كما لم يضحك منذ مدة طويلة حتى بصق طعامه على الطاولة. تذكر أنه كان يتناول لحم العجل الشهي قليل الشواء. انفجرت "مانون بلانش" ضاحكة هي الأخرى حتى بصقت الصلصة من فمها على المدعوين. دار الحوار طبعًا

حول الديوان الأول لقصائد "فيرلين" التي وعد "رويمبيك" بمراجعتها وتنقيحها. وتحدثوا أيضًا عن ديوان شعر "مانون بلانش" الذي كان "فيرلين" معجبًا به بشدة. ووعد "رويمبيك" بمراجعته وتنقيحه أيضًا.

ثم تناولوا الحلوى - لم يكن "فاندر دورب" متأكدًا من كون هذه الحلوى فطيرة روسية أم شيء آخر - واحتسوا معها الشامبانيا. ثم أخذوا يدخنون الحشيش الذي أحضرته "مانون بلانش" معها، وفتحوا المزيد من زجاجات الشامبانيا واحتسوها. نهض "فيرلين" وتبوّل عبر نافذة حجرة السفرة في المنور الداخلي. كان ضوء النهار يتلاشى تدريجيًا بالخارج، وكانت أصوات المدينة تصل إليهم وكأن العالم الخارجي ما زال ينبض بالحياة. وثب إلى ذهن "فاندر دورب" خوفه المفاجئ من فكرة تقدم العمر. وانتابه شعور بأنه قد يفدي حياته مقابل قُبلة من "مانون بلانش"، حتى لو أدركه الموت بعد ذلك في "بوليفار دو تمبل"، جراء سكتة قلبية أو تمزق لشرايينه، وهو يقبّل شفتيها الدافئتين.

انتابت "فاندر دورب" - عصر ذلك اليوم من سبتمبر 1866 - حالة من اللهو والنسيان وشعر بأنه في عالم آخر مترامي الأطراف. انطلق الرفاق الأربعة - في حالة سكر تام - إلى شوارع باريس، ممسكين ببعضهم بعضًا ذراعًا في ذراع، وشعروا بتوقف الزمن تمامًا. طبعًا نسوا جميعًا الشوارع التي مروا بها، وشعر "فاندر دورب" بأنه يُحلّق سعيدًا فوق المدينة التي لم تتمكن من كبح جماحه. وازداد ذلك الشعور بوجود "مانون بلانش" التي جعلت الدنيا من حوله مزدهرة كألوان الخريف الذهبية. ازداد الغبار الناجم عن أشعة الشمس، الذي توقف في الهواء بخفة مثلما توقف الوقت. تبوّلت "مانون" بفجاجة بين شجرتين تصطفّان على جانب الطريق. استمع "فاندر دورب" إلى ضحكة "فيرلين" وهو يشاهد البول الساخن يتخلل الغبار. أمسكت "مانون" يد كل واحد منهما هو و"فيرلين" وانطلقوا مرة أخرى.

جلسوا في شرفة أحد المقاهي وطلبوا شرابًا كحوليًا. ليت الزمان جمعهم هم الأربعة من قبل. إنهم مثل "آرتوس" و"بورتوس" و"أراميس" و"دارتانيان"، شخصيات قصة "الفرسان الثلاثة". شهد ذلك اليوم بداية صداقة كبيرة وطويلة، ولم يجرؤ "فاندر دورب" على تخطي حدود الصداقة مع أنه كان يتخيل تفاصيل صدر "مانون بلانش" من خلال فستانها الخفيف، ولن يجد صعوبة في تخيل باقي التفاصيل لكونه طبيبًا. تخيّل قلبها النابض داخل قفصها الصدري، رئتيها الورديتين برائحة اللوز. معدتها التي ما زال بداخلها لحم العجل الذي تناولته على الغداء وقد امتزج به لعابها والكحول الذي احتسته. ثم تخيل أمعاءها المتوترة المتشابكة ككتلتين من اللحم الطري، ثم استقر خياله في النهاية حيث يقبع الشرج والفرج في قلب الزمن كالسر الإلهي. أشعل "فاندر

دورب" سيجارة أخرى وكان على وشك أن يذوب شوقًا. نظرت إليه "مانون بلانش" وهي تبتسم. ثبت نظره على جسدها لحظةً. وشعر بنشوة الرغبة فيها من مجرد النظر ثم ابتسم.

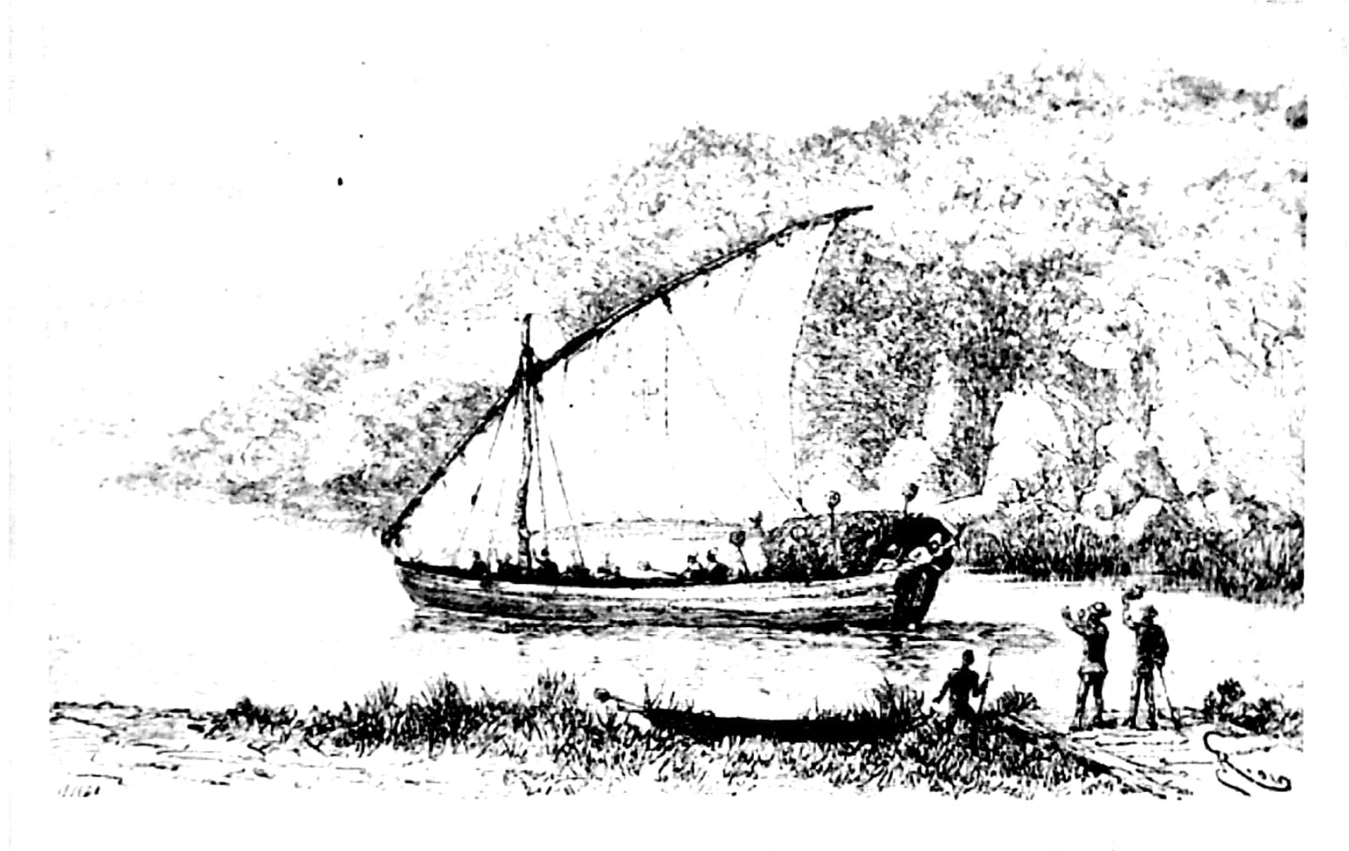
***

تقيأ "فيرلين" ما في جوفه بعد مدة وجيزة من غروب الشمس، وقد رافقوه إلى "بوليفار دو تمبل" بدلًا من توصيله إلى منزله. كان "فيرلين" لا يزال يعيش مع والدته، وأشفقوا على السيدة المسكينة من رؤيته وهو في غاية الثمالة. لذلك أسندوا "فيرلين" أرضًا وهو مستلقٍ ثم انتاب "رويمبيك" أيضًا الشعور بالغثيان. ثم خرج "مانون بلانش" و"فاندر دورب" معًا وأرادت "مانون بلانش" إهداء القبعة المزينة بجلد الثعبان لـ"فاندر دورب" وتجوّلا لبعض الوقت في باريس وقد أمسكت يده.

تذكر "فاندر دورب" ذلك كله هنا في "إكواتورفيل"، بعد مرور سنوات عدّة، وكأنه ما زال يشعر بهذه اليد الصغيرة الدافئة ويتحسسها بإبهامه وهو مستلقٍ على سرير عسكري صغير، في كوخ خشبي رطب، ثم تنهّد في جوف الليل حسرةً على حاله. وتذكّر حينما وصل مع "مانون بلانش" إلى منزلها ثم قبّلها قُبلة خاطفة. وأهدته تلك القبعة التي احتفظ بها طوال حياته لتخليد ذكرى قصة الثعبان وجمال ودقة خطوط جلده الأخضر والأصفر الذي يعكس الضوء على قش القبعة كانعكاس ضوء القمر. لاذ "فاندر دورب" بالصمت أمام جمال هذه القطعة الجلدية المقلوبة الجافة وغموضها، كانت تُشكّل أعجوبة تماثل أعجوبة قصة حبه، أعجوبة جمال بشرة "مانون بلانش" وجمال قلبها وصدرها ومكنون داخلها، وجمال فمها وعينيها الذي يأخذه بعيدًا عبر الزمن إلى عالم بلا حدود مترامي الأطراف.

- أحبك يا "مانون"...

- لا يا "فاندر دورب"، لا...



أبحرت الباخرة "فلور دي بروج" - من نوفمبر 1890 إلى يناير 1891 - بصعوبة في نهر "أوبانجي". توقف "مادس مادسن"؛ وهو أحد القباطنة القلائل في "جمعية الكونغو العليا" الذين تمكنوا من إدخال سفينة بخارية إلى العمق داخل الأراضي، فقد امتنع عن النوم حتى يتمكن من توجيه المركب والطاقم بين ضفاف النهر الخصبة المظلمة. حرص على المباشرة بنفسه على إرساء سفينته ليلًا على الضفاف البرية. بالكاد كان يغفو قليلًا لأوقات لا تتجاوز عشرين دقيقة، هكذا أصبح نمط حياته. وجعل "مبانزو" الرجل الثاني في إبحار السفينة. في الواقع، كان في إمكان "مبانزو" الإبحار مدةً أطول وكان في إمكان "مادس مادسن" أن ينام وقتًا أطول، لكن نظرًا إلى طبيعة "مادس مادسن" القلقة، أصرَّ على أن يوقظه "مبانزو" عند أدنى مصدر تهديد، سواء كان مصدر التهديد رملًا ضحلًا أو اقتراب فرس نهر أو إزعاج مواطن فضولي. أصبح لا ينام إلا نومًا خفيفًا متقطعًا في أثناء النهار. قال إنه اعتاد ذلك كثيرًا في أثناء الحرب، ولم يعلم أحد عن أي حرب كان يتكلم، ولكن الجميع كان يومئ برأسه بإعجاب أمام هذا المجهود المبذول عن طيب خاطر.

كان بعض أفراد الطاقم من أقلية "البانتو" بالإضافة إلى القبطان الدنماركي وقائد البعثة البلجيكي ورجله الثاني الصيني، لا يوجد أحد في بعثة "كلايس" يجيد التحدث مع الجميع حقًّا. وإضافة إلى ذلك كان هناك الشمبانزي الذي اختار مواصلة المغامرة على متن الباخرة "فلور دي بروج" والذي أطلق عليه "كلايس" اسم "ليوبولد"، على اسم ملك بلجيكا. وبدا أن الباخرة الصغيرة كانت مزيجًا من أطياف متعددة الأجناس تائهة في الأدغال، مجموعة من الأشخاص

يتعاملون فيما بينهم عن طريق لغة الإشارات والجسد.

ازدادت علاقة "شي شياو" مع "بيير كلايس" كثيرًا، فكان يدنو إلى جواره كل مساء، يحادثه بصوته الرقيق وبإشارات يديه بكل رشاقة عن فنه الذي تعلمه. كان يحاول أن يسرد له قصصًا عن تدريبه كجلاد، وعن ضحاياه من بداية عمله إلى الآن. ومع أن "كلايس" لم يفهم سوى القليل، فهو قد فهم ما يكفي لمعرفة أن هؤلاء الضحايا لم يعانوا كثيرًا لأنه كان يستخدم الأفيون. لكنَّ الأمر كان يختلف كثيرًا مع أولئك الذين أُخِذوا من الطبقات الدنيا في المجتمع أو أولئك الذين ارتكبوا أبشع الجرائم لأنه اعتاد إعطاءهم جرعات متزايدة من المخدرات، وهذا ما أدى إلى موتهم بجرعات زائدة قبل وقت كافٍ من بداية تقطيع أجسادهم.

وعلى الجانب الآخر، فإن الأشخاص الأبرياء من أي جرم؛ من اختاروا وسيلة تعذيب تمثل طريقة من طرق الانتحار وتُسمَّى وسيلة التعذيب هذه "الموت بألف جرح" وفيها بالكاد يُخدَّرون. وكان الجلادون يتعاملون معهم بلطف ومهارة لدرجة أن هؤلاء الضحايا لم يشعروا بأي ألم في أثناء التقطيع، بل كانوا أيضًا فريسة لإثارة جنسية عنيفة تنتهي بنشوة رائعة. هؤلاء المنتحرون كانوا يُعرَضون أمام جلسة مُجتمِعة من أجل هذا الحدث. كانت عمليات القتل هذه خاصة جدًا، فقد كانت تُعقَد دائمًا بحضور المقربين والأصدقاء والأقارب. كانت وجوه المنتحرين تُبدي تعبيرات هادئة وأحيانًا مدهوشة من هذه النشوة الرقيقة غير المسبوقة. بدت نظراتهم الأخيرة مُتصلِّبة على أحبائهم منفصلة عن الحياة، مشوبة بالفرح. وعندما فارقوا الحياة، لم تبقَ منهم إلا كومة من الأعضاء على الأرض ليست لها علاقة بالحياة. لم يتبقَّ من علامات البشرية إلا الوجه الهادئ، الراقد بين أفراد عائلته.

وبينما كان "بيير كلايس" يحاول فك شفرة كلام "شي شياو"، إذا بالباخرة تبحر تدريجيًا نحو قلب إفريقيا وكان الوضع أشبه بشريان مجروح تداويه الشمس كل مساء، ثم لا يلبث أن يلوثه البعوض ليلًا كلعنات منبعثة من الغابات الاستوائية المظلمة.

عاود "شي شياو" الاتصال بـ"مبانزو". وفي إحدى الليالي الصافية، وبينما كان أفراد الطاقم يغُطّون في نوم عميق، كان "مادس مادسن" يراقب الباخرة "فلور دي بروج"، تزامن ذلك مع إنهاء "شي شياو" رسم الوشم الغامض الذي يُزيِّن أسفل بطن "مبانزو"، ذلك الشاب المنتمي إلى "الوويو". لم يشعر "مبانزو" قطُّ بهذا القدر من المتعة البريئة التي شعر بها خلال هذه الجلسات الليلية. لقد بدت له في هذه اللحظات أن تركه لعائلته وسعيه في المغامرة بمنزلة أغنية لها طرب مسموع يخالطها أزيز كائنات الطبيعة التي تداعب قلبه. انتابه كثيرًا الشعور بالنشوة خاصة تلك اللحظات التي كان يفتح عينيه فيها وينظر إلى القمر. وفي ختام كل جلسة، كان هو والجلاد

الصيني يتجاذبان أطراف الحديث حتى طلوع النهار في حين يخالط أسماعهما خرير الماء وأصوات الحيوانات الليلية. كان حديثهما يتنوع ما بين المرح أحيانًا والهمس أحيانًا، وتذكر الماضي ومشاركة المستقبل بكل توقعاته.

سأل "مبانزو" "شي شياو" عن ذلك الحزن الذي يراه في عيني "بيير كلايس". أخبره أنه عرف الكثير من البيض لديهم صرامة تفوق "كلايس"، ولكنه لم يجد قطّ ذلك البؤس والشقاء الواضح في عيني "كلايس". أخبره أيضًا أنه منذ مغادرتهم لـ"ليوبولدفيل"، رأى في عيني "كلايس" غضبًا يزداد يومًا بعد يوم، غضبًا ساطعًا من عينيه. أجاب "شي شياو" أن "بيير كلايس" لا يعرف أنه قد اختار بإرادته المحضة أكثر بكثير من مجرد ترسيم حدود سيادة ملكه على الكونغو. وتابع "شي شياو" قائلًا إن "بيير كلايس" لا يعرف أصوله العائلية وأنه ابن رجل يجيد مهنته، وأنه ترجع سلالته إلى رجال نافذي الهمم والبصائر إلا أنه تشوبهم بعض الأمراض المتوارثة. اعترف "شي شياو" لـ"مبانزو" أنه قد هام عشقًا بـ"كلايس" إلى حد الموت والتفاني في العشق بلا حدود. سأل "مبانزو" "شي شياو" أكان يعرف متى سيموت "كلايس". أجاب "شي شياو" بالإيجاب. ثم سأله "مبانزو" أكان يعرف متى سيموت هو، "مبانزو". تبللت عيون "شي شياو" وأومأ برأسه بالإيجاب.

***

اتفق جميع العمال السود في بعثة "كلايس" على أن "بيير كلايس" هو أقل البيض عنفًا من الذين عملوا تحت أوامرهم. ومع أنهم لم يتمتعوا بالامتيازات الممنوحة لـ"مبانزو" و"شي شياو"، مثل الحق في تناول الطعام على مائدة القبطان ومهندس المساحة، فهم لم يعانوا الإذلال والعنف والقتل الذي كان يمثّل النصيب اليومي للعمال من السكان الأصليين. لم يضرب "كلايس" أيًا منهم بعصا أو يوجه بندقيته إلى أحدهم، وكان هذا شيئًا نادر الحدوث. إذ لم يمت أحد منذ مغادرة "ليوبولدفيل". كانت مصائرهم تبدو كئيبة وغامضة مثل أي شخص في مكانهم إلا أنهم كانوا يشعرون بمصير أفضل مع هذا البلجيكي الصغير. فقد كان "كلايس" يعاملهم باحترام يشوبه بعض البرود، ولكن طبعًا كانت شخصية "بيير كلايس" عنصرية مثل أي مستعمر معاصر لهذا الجيل. ولكن عنصريته لم تكن موجهة للسود - كما كان الحال مع مواطنيه - كانت كراهيته غامضة، احتفظ بها بداخله. وبالرغم من تزايدها في قرارة نفسه غير محددة الهدف، فقد كافح لإخفائها. كان الأمر صعبًا لكنه حاول استجماع قواه للبقاء ومواصلة الصمود. أحيانًا كان يسرح بخياله وهو يراقب خرائط إفريقيا، وهو يعاني نوبات الحمى الشديدة، وأحيانًا كان يغالبه التفكير في الضحايا الصينيين من المنتحرين الذين ودّعوا أحباءهم وبدا هذا لـ"كلايس" غير منطقي بالمرة. فهو لا يستطيع الربط بين ما كان يفعله الجلادون من تقطيع لأجساد الضحايا

بأي متعة أو نشوة. لم يستطع عقله فهم ذلك، إلا أنه حاول تقبل تلك الفكرة. وأدهشته الطبيعة أيضًا إذ إنه لم يكن ليتخيل قطُّ كائنات بهذا الجمال مثل آلاف القردة والطيور التي رآها على ضفاف نهر "أوبانجي". دار في خلده أن الجنة هي مجرد صورة لتلك الغابة الإفريقية. وفي بعض الأوقات، كان يتمنى لو أنه رأى تلك الزهور في طفولته لحظي بطفولة أكثر سعادة وبساطة. وكان يحدّث نفسه أحيانًا بأن تلك الجنة الموجودة في مكان ما على وجه الأرض هي أكثر جمالًا من الجنة المذكورة في تعاليم المسيحية، جنة تحمل كل الألوان والأطياف.. مكان غير معتاد، حتى الموت نفسه كان على غير العادة، مكان يجمع بين المعاناة والجمال معًا. معاناة الحرارة الشديدة اليومية مع جمال شروق الشمس المقدس.

وفي الليل، كان "كلايس" يرفع عينيه إلى السماء ويراقب النجوم كما اعتاد في مهنته. ومع ذلك، كانت السماء مختلفة عند خط الاستواء. لم يعد "نجم الشمال" مرئيًا بوضوح عند خط العرض نفسه. ظهرت المجموعات النجمية في ضوء مختلف، فقد رأى مجموعة "الجبار" و"الشجاع" و"حامل الثعبان" و"الكلب الأصغر" والعديد من المجموعات الأخرى التي اكتشفها "كلايس" وأثارت في نفسه تأثرًا كبيرًا. وعلاوة على ذلك، تخيل شكل السماء الجنوبية، تلك السماء المقلوبة التي لا يستطيع إلا تخيلها كهاوية مظلمة تُسكب مباشرة على صحراء التتار، هاوية باردة بلا شكل محدد. ليلة بعد ليلة، كان "كلايس" يلاحظ مقياس تقدم الظل داخله، الذي يتراجع من قوته الأفريقية كي يزيد من ظلامه الداخلي. وكان ذلك يثير في نفسه الشجون، فكان يبكي كطفل صغير خائف من الغرق أو من المجهول أو من موت موعود.

***

في يوم عيد الميلاد عام 1890، نزل "مادس مادسن" و"بيير كلايس" إلى الرصيف برفقة "مبانزو" وقتلوا ثلاثة من قرود الشمبانزي من بين حشود من القردة الفضولية التي كانت تتبع القارب لبضعة أيام. وحينما أطلقوا النار على ذكرين وأنثى، فرَّت بقية القرود الخائفة. واقترب "كلايس" من الجثة الأكبر حجمًا وكانت لذكر قد مات للتو ومع ذلك كانت عيناه صافيتين كالحليب، لا تعبر نظرته عن الكراهية. كان جسده ملقى على الأرض، وتبدو تركيبة بنيته مثالية. أصابت "بيير كلايس" الصدمة من براءة هذا الكائن الذي فقد حياته للتو. حمل "مادس مادسن" و"مبانزو" و"كلايس" الجثث الثلاث وعادوا بها إلى المركب.

طها القردة عاملان كونغوليان، ينتميان إلى قبيلة أخرى غير قبيلة "مبانزو". قُطّعوا إلى قطع ونُظّفوا وفُرّغوا من الداخل، وبدوا كالأطفال المسلوخين بشكل يثير الأسى والغضب. ودُعِيَ كل أعضاء البعثة للانضمام إلى الوليمة، من بينهم الشمبانزي "ليوبولد" الذي راقب البشر

بفضول وهم يأكلون بني جنسه. وهذا ما دفع "كلايس" إلى أخذ العهود من الطاقم بألا يسببوا أي ضرر لهذا الشمبانزي. أومأ الرجال برؤوسهم. وأرادوا الاحتفال بعيد الميلاد في وقت لاحق بطريقتهم الخاصة ووافق "كلايس" على ذلك. لم يتوقف الرجال عن الغناء والرقص طوال تلك الليلة واستأنفت الباخرة "فلور دي بروج" رحلتها في اليوم التالي ورست بعد أسبوع في مركز "زونجو" في مواجهة "بانجي" وهي مدينة فرنسية تأسست في العام السابق على الضفة المقابلة.

***

كانت العلاقات ودية بين المستعمرين الفرنسيين والبلجيكيين في مدينتي "بانجي" و"زونجو". لم يشعر الموظفون الاستعماريون لدولة الكونغو الحرة بأي عزلة على الرغم من بعدهم مئات الكيلومترات من "ليوبولدفيل"، فهم ببساطة يعبرون نهر الـ"أوبانجي" بانتظام لزيارة الفرنسيين حيث تجمعهم اللغة نفسها وحب النبيذ المستخلص من النخيل.

عند وصول "كلايس" - الذي كان من المفترض أن يضع عمله حدًا للنزاعات الحدودية - احتفل البلجيكيون بعمل وليمة دعوا إليها رفاقهم الفرنسيين. ونظرًا إلى العنصرية السائدة، لم يُقبَل أحد سوى "بيير كلايس" و"مادس مادسن". تكوَّنت الوليمة من العديد من الغزلان والأسماك الطازجة التي صِيدت حديثًا وطُهِيَت من قبل العمال المحليين. فتحوا برميلًا من خمر الـ"روم" الذي جلبه الفرنسيون من جزر "الهند الغربية". وبينما قرر "بيير كلايس" أن يشرب حتى الثمالة، كان "مادس مادسن" قد انهار بعد ثلاث كؤوس ونام وسط اللهو والألفاظ النابية المترامية.

انتاب "مبانزو" شعور بالإحباط لعدم دعوته إلى العشاء للاحتفال بوصول بعثة "كلايس". مع أنه كان جزءًا لا يتجزأ منهم، ولا يمكن الاستغناء عنه وهو أكثرهم مغامرة وأكثرهم تضحية. ووافق على مضض البقاء على متن الباخرة "فلور دي بروج" كما أمره "بيير كلايس". أما العمال الآخرون، فلم يقل أحد منهم شيئًا واستلقوا على سطح السفينة في أماكنهم. وقد لمعت عيونهم في ظلام الليل مثل الأطياف الخيالية. وآثر "شي شياو" العزلة عند مقدمة الباخرة، وقد لازمه الصمت مثل "بوذا" الحزين. أما الشمبانزي "ليوبولد" فقد قفز برشاقة وحيوية على الشاطئ لاكتشاف مدينة "زونجو" والمناطق المجاورة لها.

لم يكن لدى "مبانزو" من يبوح له بمرارة شعوره. وجلس على سطح السفينة وكانت ساقاه تتأرجحان تحت السور وهو يسمع دوي الضحكات والأصوات الصاخبة القادمة من الكوخ الكبير الذي تقام بداخله الوليمة. وسَمِعَ بعض الكلمات الفرنسية التي كانت تدوي في الهواء مثل دوي

الطلقات النارية في جوف الليل ووسط أصوات المياه. مع كل صوت صاخب، شعر بالمرارة. ومع كل كلمة، شعر بفقدان كيانه وتاريخه وشعر بالمرارة من لون بشرته ووشومه. حدق "مبانزو" إلى يديه تحت ضوء القمر والنجوم وشعر بأنه يشاهد خرائط رحلاته. وتأمل نفسه مليًا ونظر إلى جسده وذراعيه وبطنه وساقيه وقدميه ورأى نفسه إنسانًا كالآخرين. لمع الوشم الذي يغطي جسده تحت ضوء النجوم كالأبنوس البني. وبدت وشومه وعروقه وهي تلمع تحت ضوء النجوم وتغطي جسده كافة من رأسه إلى أخمص قدميه وأعضائه كافة، وازداد تألق وشم العين التي رسمها "شي شياو" أسفل بطنه. ثم نهض "مبانزو" ونزل من فوق سور السفينة إلى الأرض.

***

كان "بيير كلايس" يتقيأ على بعد خطوات قليلة من الكوخ عندما جاءه القرد "ليوبولد". وعلى مسافة بعيدة، تعالت الأصوات الصاخبة للاستعماريين السُكارى في جوف الليل الهادئ. بدا له الشمبانزي في الظلام أقل انحناءً وأطول مما كان عليه في الحقيقة. لمح "كلايس" ظل القرد في الظلام وهو يلتقط أنفاسه وسط أصوات طفيفة يُصدِرها من فمه. ثم ساعده "ليوبولد" على النهوض وأجلسه. وقف القرد خلف مهندس المساحة، وغطى عينيه بيديه. استسلم "كلايس" لذلك بعد أن شعر بالراحة بعدما أخرج ما في جوفه. هدأ قليلًا مع براءة القرد واستسلم لتدليكه بيديه القويتين. شعر "كلايس" براحة شديدة وكأنه في عالم آخر. لقد استطاع ذلك القرد الذي يحمل اسم الملك أن يمنحه الهدوء والراحة. قلَّت وتيرة حركات "ليوبولد" رويدًا رويدًا، حتى تلاشت تدريجيًا في جو دافئ ومريح.

شعر "كلايس" بشفتيه الطريتين تلمسان أذنه اليسرى. ثم سادت لحظة صمت وسمع "ليوبولد" يهمس بهذه الكلمات: "إلى اللقاء يا حبيبي".

ثم هرب القرد في الغابات المظلمة. تراجع "بيير كلايس" إلى الوراء وتقيأ ما في جوفه مرة أخرى. ثم سَمِعَ دوي إطلاق نار. نهض "كلايس" بصعوبة ومشى في تجاه مصدر الصوت حتى وصل عند مجموعة من الرجال يحملون كشافات مضيئة وكانوا ملتفِّين حول كومة تشبه كومة القماش.

تعرف "كلايس" أصواتَ موظفين بلجيكيين كان قد تعرَّفهما سابقًا وهما "جوزيف لوكلير" و"أونوريه تونان". يبلغ أحدهما من العمر تسعة عشر عامًا والآخر ثلاثة وعشرين. وكلاهما مولود في "أنفير". ناداهما "كلايس" من بعيد فردًا عليه وكانت تبدو عليهما آثار الثمالة. ضحك "أونوريه تونان" ضحكة حادة ومستفزة كضحكة الضباع. أنزل مشعله على كومة الخرق القديمة وسأل

"كلايس":

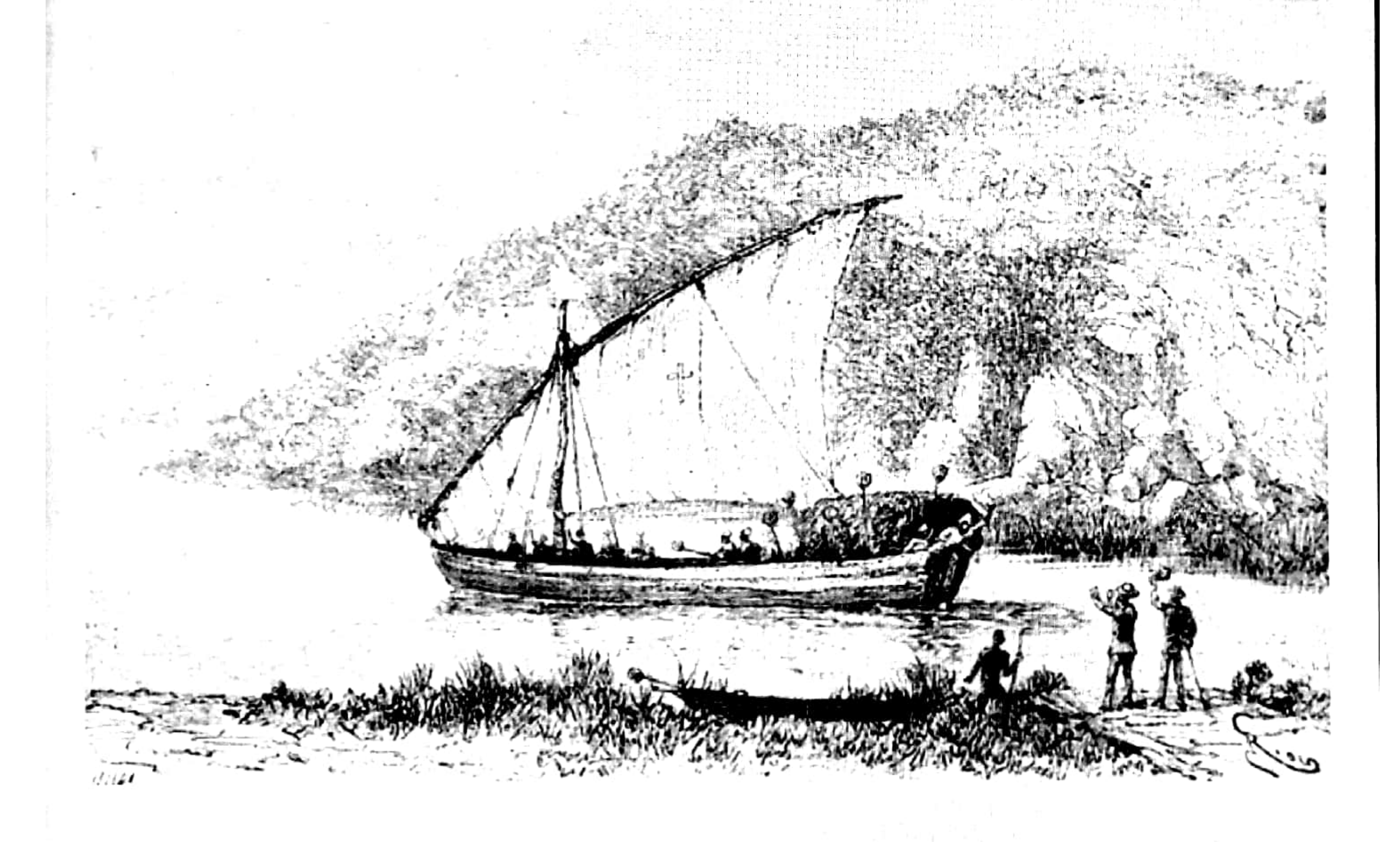
- هل هذا الزنجي تابع لك؟ كان يحوم حول الكوخ فجعلته يتوقف عن ذلك.

تعرف "كلايس" في كومة الملابس الرثة على جثة "مبانزو" وقد اخترقها ثقبان من الرصاص وشوهتها عدة ضربات بمؤخرة السلاح. وسال أثر كثيف من الدم من أسفل بطنه.

قال "لوكلير" وهو يعطي لـ"كلايس" زمزمية تحتوي على خمر الـ"روم":

- دعونا نتخلص من هذه المخلفات في النهر قبل أن تصدر رائحة نتنة.

لمعت وشوم جسد "مبانزو" على أضواء المشاعل معلنةً وصوله إلى رحلته الأخيرة. جلس "شي شياو" يبكي في صمت عند مقدمة الباخرة "فلور دي بروج"، حيث جرت دموعه من عينيه كجريان الماء في نهر "أوبانجي". على سطح السفينة، لمعت العيون المترقبة في ظلام الليل.





استأنفت بعثة "كلايس" رحلتها في اليوم التالي لمقتل "مبانزو" وألقِيت جثته في نهر "أوبانجي" دون أي مراسم. لم يُبدِ "كلايس" أي احتجاج واكتفى بتمتمة بضع الكلمات التي سرعان ما تلاشت في الهواء الرطب. عندما استيقظ "مادس مادسن" في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وسمع بالخبر، انزعج بشدة وأخذ يصيح بلغته الفرنسية الركيكة، ولم يكد يمر سوى

ليلة من تناوله ذلك اللحم وشربه خمر الـ"روم" وتدخينه التبغ. لقد كان "مبانزو" ميكانيكيًا مميزًا في مهنته، وزميلًا رائعًا على متن الباخرة، ومن دونه وجوده، لم تكن للباخرة "فلور دي بروج" إمكانية الوصول إلى "زونجو" بهذه البساطة. وقد أدرك "مادس مادسن" في قرارة نفسه أنه لن يستفيد بأي شكاوى إن أبلغ عن مقتل عامل أسود في تلك الأراضي الاستعمارية، ومع أنه أراد أن ينفث غضبه تجاه هؤلاء البلداء الذين ليس لديهم أدنى شعور بأنهم قتلة. كان يعلم أيضًا أن بعثة "كلايس" أوشكت أن تنتهي، حيث تقع "زونجو" على بعد نحو خمسين كيلومترًا من نهاية الجزء القابل للملاحة من نهر "أوبانجي".

أوصل "مادس مادسن" "كلايس" ورجاله إلى "موكانجا" وهي محطة استعمارية أخرى تكثر فيها روافد النهر وتفريعاته، ثم سيذهب أيضًا لتوصيل المزيد من الرجال ولتحميل المطاط والعاج من مدينة "زونجو" ثم يتجه مرة أخرى إلى "ليوبولدفيل". أما "شي شياو" فسوف يحل محل "مبانزو" حتى يصلوا إلى "موكانجا". استعاد "مادس مادسن" هدوءه وأشعل غليونه وغمرته السعادة لأنه خلد إلى النوم ليلة كاملة، لأول مرة منذ أسابيع.

***

بعد مرور مدة استراح فيها "كلايس" من الحُمى في الأسابيع الأخيرة، انتكَسَت حالته بشدة وعاودته الحمى ما بين الحرارة الشديدة ثم البرودة، وهذا ما أصابه بالخوف الشديد. شعر "كلايس" تدريجيًا بفقدان صحته ومضى كالغريب في هذا التخبط كما تمضي سفينته "فلور دي بروج" في جسد الطبيعة الغريبة وبدأ "كلايس" ينفصل تدريجيًا عن واقعه.

بدت ضفاف نهر "أوبانجي" مكانًا سمجًا خاليًا من الجمال الطبيعي المعتاد، كانت مناظرها الطبيعية متنافرة للغاية؛ هنا نبات عريض الأوراق وهناك عشب شديد الطول، وفي الأفق تلوح شجرة عملاقة شديدة العشوائية، تهتز بشدة مع الرياح الساخنة، وقد أوحى هذا المنظر الطبيعي لـ"كلايس" بأن الوعود زائفة وكلما اقترب اللقاء زادت المشقة وانتابه خوف كخوف طفل صغير أبعِدَ عن أمه. دار بخلد "كلايس" تفسير الأصل اللاتيني لكلمة طفل والذي تعلمه في المدرسة ومعناها "الذي لا يتكلم".

عاودته ذكرياته القديمة.. ذكريات لبيت قديم جميل ترتفع عبر نوافذه أحلام زرقاء كزرقة السماء المقدسة. وتذكر رغباته النقية الصادقة ودار في خلده الكثير من المشاهد المتداخلة كذلك الأثاث اللامع، وتلك الرغبات الحميمية منذ بداياتها. وكلما ازدادت تلك الحالة حاول نسيانها وإنكارها بشكل مؤلم وشعر بأنها لا تليق وسط كل ذلك العنف والوحشية الاستعمارية.

اضطرَّ "كلايس" إلى وأد تلك المعاني الرائعة من الحب من بقايا ذكرياته حتى لا يتألم كثيرًا بتذكرها. كان أشبه بصبي عابث ألقى في البحر أثمن أشيائه ليراها بعينيه وهي تختفي رويدًا دون إمكانية العودة أبدًا. تذكر ذلك كله وسط حركة المياه القاتمة لنهر "أوبانجي".

وكلما رأى مشهد الغروب، ازدادت ظلمة الغابة وقتامتها، وكلما تذكر "كلايس" ذلك الصبي الصغير حلَّت محله جثة "مبانزو" المشوهة وقد جاءت أمه لتحتضنه وهي تجهل بأي ذنب قُتِلَ، مع أن نور الحياة كان لا يزال في عينيه. ووسط ظلمة الليل كان كل شيء يبدو كأنه يغرق في الظلمة كأسير الرمال المتحركة، وكأن كل شيء يصرخ من الصمت ومن الذعر ومن الذكريات. وهكذا، يومًا بعد يوم انهارت معنويات "بيير كلايس" في الشدة المظلمة من تلك الظلمات التي أسَّست قلب إفريقيا. استغرقت الرحلة إلى "موكانجا" نحو عشرة أيام بلا مصاعب تذكر. كوَّن "كلايس" وحدة جديدة داخل البعثة، حيث جمع الطاقم بأكمله وقت تناول الطعام بلا أي تمييز أو عنصرية. وتمكَّن أخيرًا من تمييز أسماء العاملين السبعة المنتمين إلى قبيلة الـ"بانتو" المرافقين له: "لوزولو" و"لومالا" و"أسونجا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا". تحدثوا قليلًا مع بعضهم بعضًا، روى لهم قليلًا عن مسقط رأسه بلجيكا، وعلى الجانب الآخر روى له العاملون حكايات عن مناطقهم وقراهم. وقد شرح لهم الغرض من بعثته، ووضَّح لهم بعض المبادئ الأساسية للهندسة، وأدى "شي شياو" أحيانًا دور الوسيط بينهم. شرحوا له معتقداتهم، وأوضحوا له النظام المعقد للأرواح، وحذروه من الأرواح التي سوف تقابله ومن الروح التي سكنته فعلًا وكانت تنخر في جسده. انتابت "كلايس" الحيرة في البداية، ثم سرد لهم جزءًا من معاناته وسردوا له البعض من معاناتهم. قال "كلايس" إنه لم يعد يستطيع فهم نفسه مؤخرًا. أجابوه بأنهم يستشفون ذلك، وأنه لن يستطيع مساعدته إلا ساحر كبير. وقطع لهم "كلايس" وعدًا بألا يؤذيهم.

***

كانت نقطة شرطة "موكانجا" صغيرة جدًا تتألف من كوخين متهالكين ومن المفترض أن يكونا مقر إقامة لضابطين كانا في الخدمة منذ ما يقرب من خمسة عشر شهر. انزعج "كلايس" في البداية بشدة من قذارة المكان. تناثرت على الأرض القمامة من جميع الأنواع تفوح منها رائحة كريهة كعفن الموت. وقد أكلت بقايا النار المتناثرة سطح الأرض التي جعلها الدجاج سوداء ونتنة. ربط أحدهم ثورين جائعين في جذع شجرة صغيرة تحت أشعة الشمس الساطعة، وهذا ما تسبب في تقرحات جلدية أتلفت جلدهما وتقيحت تلك الأجزاء جراء التعرض لأشعة الشمس المفرطة وحام الذباب الكبير حول الأماكن الملوثة. نامت ثلاثة كلاب مريضة في ظل

أحد الأكواخ وقد أعيتهم الحرارة الشديدة وبالكاد فتحت أعينها عندما وصل "كلايس" ورفيقه. تفاجأ "كلايس" على الفور بغياب العمال السود. وقد بدت نقطة الشرطة خالية تمامًا. وأشار إلى "شي شياو" ليتبعه وعبأ بندقية صيده. وبعد أن حرر الثيران، اقترب الرجلان من الكوخ الأول الذي لم يكن مغلقًا. وهاجمتهما بعنف رائحة البول والبراز وسط حرارة الجو الشديدة التي حملت الرائحة إليهما.

تغلب "كلايس" على رغبته في التقيؤ ودلف إلى الداخل وبعدما اعتادت عيناه الظلام، استطاع أن يرى ما يقرب من اثنتي عشرة جثة حية تنظر إليه ما بين نساء وأطفال ورجال مقيدين بعقد من السلاسل ويغطيهم الذباب. وشُوِّهَ العديد منهم وكانت بعض الأيدي مفقودة والأقدام أيضًا.

ثم لاحظ "كلايس" أن العديد من الأطفال قد ماتوا منذ عدة أيام، وبطونهم منتفخة إلى حد الانفجار. ساد الصمت المكان. اقترب "كلايس" وأطلق النار على السلسلة فارتدت الرصاصة. ثم أطلق طلقة ثانية فانفجرت السلسلة. لم يحرك أحد ساكنًا. ثم هدأ الغبار المنبعث من الطلقة وتلاشى صوت الرصاصة. بدأت بعض الأجساد تتحرك وتحرر نفسها من الكومة المعدنية الصدئة وحاولوا القيام بصعوبة وأخذوا يحركون تدريجيًا عضلاتهم المنهكة. وقفت امرأة ثم رجل ثم آخرون، يتكئون بعضهم على بعض، دون النطق بكلمة وهم يحملون جثث الأطفال. خرجوا جميعًا في موكب صامت للابتعاد والاختفاء في الغابة.

عاد "كلايس" إلى الباخرة "فلور دي بروج" وأشرف على تفريغها وأنزل رجاله. لم يذكر شيئًا عما رآه هو و"شي شياو" للتو. حُمِّلَت الباخرة بالحطب. وأمر "كلايس" "أسونجا" كي يرافق "مادس مادسن" إلى "زونجو" حيث سيُجهِّز الطاقم المناسب. وتبادلوا كلمات الوداع وأبحرت الباخرة الصغيرة في النهر. أعطى "كلايس" الأوامر بإشعال نار وأعاد تعبئة بندقيته.

بعد مرور ساعة على رحيل الباخرة "فلور دي بروج" ظهر رجلان على حدود الغابة. واتضح أنهما اثنان من البيض يسحبان وراءهما جثة فهد صغير. صاح "كلايس" عليهما واقترب ممسكًا بندقيته ووجه فوهتها نحو الأرض. وعندما أصبح على مقربة من الرجلين أسند البندقية إلى كتفه وأطلق النار على الرجل الذي على يساره في رأسه، فأرداه قتيلًا. ثم صوَّب بندقيته تجاه الآخر وأسقطه أيضًا بعد أن أطلق صرخة قصيرة قبل أن يطير ويرتطم على الأرض.

عاد "كلايس" وجلس في صمت بين رجاله. وبعد عدة دقائق استأذنه "لوزولو" بأن يطهو الفهد. فأجاب "كلايس" بالإيجاب، وكان الظلام قد حلَّ مبكرًا كما هو الحال في المناطق

الاستوائية.





مكث "فاندر دورب" في "إكواتورفيل" لأنه لم تكن لديه أي طريقة للذهاب شمالًا لمقابلة "بيير كلايس". لقد حصل على إذن من "لومير" لكي يقطن الكوخ القديم الذي كان يسكنه سابقًا مهندس المساحة، يشغله كما يشاء للمدة التي يبتغيها. وكان مفوض مقاطعة "إكواتور" قد سمع من قبل عن "فاندر دورب"، فهو أحد الرجال الموثوقين لدى "كلاين" الأب، ومن أوائل البيض الموجودين على الساحة، ولهم دور بطولي. لقد كان منحازًا إلى الفرنسيين في البداية، حتى إنه كان يعرف المستكشف "برازا". تيقن "لومير" من أن "فاندر دورب" قد دمرته الملاريا، حتى إنه كان يتوقع تلقّي خبر قضاء نحبه كل صباح، وهو مدّثر في سريره العسكري، بسروال داخلي متهالك وقد غطت الإفرازات عينيه.

لكن "فاندر دورب" لم يمت، بل عاش طويلًا كشبح هزيل متحديًا الموت بجسده النحيل وبدخان غليونه الكثيف يأبى أن يترك الحياة مع أنه على شفا الموت. راقبه بعض الرجال من

كُتب وخُيِّلَ لهم أنهم يشهدون تلاشي جسد رجل ذي مكانة وتدهوره وتحلله، وذلك كان أشبه بذوبان الجسد تدريجيًا من الحرارة الحارقة. لم يَشُك أحدهم لحظةً أن "فاندر دورب" الصامت كان يحصر تركيزه على صورة "مانون بلانش" الباهرة، يتذكر نفسه وهو يقبّلها مرة وحيدة ثم تتركه في شوارع باريس.

رجع "فاندر دورب" من "بولفار دو تمبل" ممسكًا بالقبعة المنسوجة بجلد الثعبان. كان ثملًا وارتمى بجسده على الأريكة في غرفة المعيشة، غلب عينيه النعاس في بادئ الأمر ثم استسلم بعد ذلك لأحلام اليقظة اللانهائية، وقد غالبه الشعور بأنه قريب من أنفاس "مانون بلانش" متذوقًا شفتيها التي كانت شبيهة بفلقتي خوخة منقسمتين. كان مبهورًا بتلك التفاصيل وهو يسترجعها متذكرًا جمال تلك القبلة التي عبرت حدود حياته كما لو أنها فاقت حدود باريس كلها بشوارعها وسمائها. "مانون بلانش" هي كوكب قد أفَلَ وغاب نجمُه. "مانون بلانش".. "مانون".. هما نجمان تلاقت مصايرهما معًا وذابا في بعضهما بعضًا في ذلك المدار اللامتناهي الذي يحمل اسم "مانون بلانش". لقد فقد الشعور بأبعاد المكان والزمان وخرج إلى مجال سرمدي لا حدود له: جمال "مانون بلانش".

ذات يوم، نهض "فاندر دورب" من الأريكة للذهاب إلى منزل الشاعر "فيرلين". وجده متكئًا بغرفة معيشته مشغولًا بتصفح جداول التقويم والمناخ السنوية ثم اصطحبه إلى أحد المقاهي في الجوار، وثملا حتى النخاع وتجاذبا أطراف الحديث. أخبره "فاندر دورب" عن اعتقاده بأنه قد حلَّت عليه لعنة إلهية وأبدى "فيرلين" تفهمه لذلك، حتى إنه أردف قائلًا إنه هو نفسه ضحية لتأثير فلكي ضار من كوكب "زحل" لدرجة أنه قد سُلِبَتْ منه حبيبته.

تبادلا العناق وارتبطا فيما بينهما برباط الأخوة ثم ترنحا في "بوليفار دو تيمبل" حيث سيعود "فيرلين" إلى المبيت مرة أخرى. وفي اليوم التالي كان "فيرلين" مصابًا بالدوار والغثيان والضعف، وطلب من "فاندر دورب" أن يَعِده بأن يعود لرؤيته، ولكن قبل ذلك، أن يذهب ويتحدث ولو مرة واحدة فقط إلى "مانون بلانش". أغمض "فاندر دورب" عينيه تحت الحرارة الشديدة وشمس الظهيرة المتوهجة.

وافقت "مانون بلانش" على أن تمنحه موعدًا في الصباح الباكر في حديقة "لوكسمبورج". كان الهواء باردًا والجو خريفيًا جميلًا. صعد "فاندر دورب" إلى شارع "سان ميشيل" وبهرته رؤية باريس في مثل هذا الوقت المبكر، وكأنها قد استعدَّت للقائهما، لدرجة أنه شعر أن سماءها على استعداد للانبطاح تحت قدميها.

في الحقيقة، تراءت له المدينة بأكملها كديكور لمسرح خيالي مثلما في الأحلام. كانت الأوراق تتساقط في الحديقة، وكانت "مانون بلانش" تنتظر على حافة حوض الحديقة. جلس "فاندر دورب" إلى جانبها وفتحت له "مانون بلانش" عينيها الخضراوين المحاطتين بهالات سوداء وتركته يتأملهما في وداعة. نظر إليهما "فاندر دورب" مدة طويلة وأمعن في النظر إلى حدقتيها الجميلتين. رأى في وسط كل عين حدقة سجينة يصعد منها بريق خفي. حاول "فاندر دورب" كثيرًا تفسير ذلك البريق الغامض وانتابه التفكير في ماضيه وشعر بأن حياته قد سُلِبَتْ منه. اغرورقت عيناها بالدموع وسالت دمعة على وجنتها حتى لامست شفتيها. لاذت "مانون بلانش" بالصمت وبدت غامضة بعض الشيء. أشرقت الشمس الآن بما يكفي لتنير السماء كلها. ومرت نسمة خفيفة تحمل رائحة الماء والحب وأوراق الخريف الجافة. ثم ساد الصمت مرة أخرى. سأل "فاندر دورب" بصوت حزين:

- ألن تبادليني الحب إذن؟

أمسكت "مانون بلانش" يده برقَّة وأجابته بحزن:

- لا. الوداع يا صديقي.

نهضت "مانون بلانش" وابتعدت. لم ينطق "فاندر دورب" شيئًا. وبعد ساعات قليلة، عند موعد خروج المدارس، جاء الأطفال يلعبون على حافة حوض حديقة "لوكسمبورج". وانزوى "فاندر دورب" بينهم باكيًا في صمت.

عرض "أرمان رويمبيك" على صديقه "فاندر دورب" استضافته طوال الوقت الذي يحتاجه. كان لديه من المال ما يكفي شخصين، ولم تكن حياة الفن واللهو التي أراد أن يعيشها من الآن فصاعدًا تتعارض بأي حال من الأحوال مع حضور ذلك الصديق الذي ذكَّره بسنوات دراسته، بل على النقيض من ذلك. وبحلول المساء انضم "فاندر دورب" إلى "فيرلين" وذهبا معًا إلى أحد المقاهي ليحتسيا الخمور حتى الثمالة.

بحلول الخريف في باريس تساقطت أوراق الأشجار ثم تجمدت في الشتاء. شُغِّلَتْ التدفئة في أماكن متفرقة في بعض المنازل. لم يستطع "فاندر دورب" أن يمنع نفسه من تخيل "مانون بلانش" داخل أحد هذه المنازل وقد خلعت ملابسها بسعادة على أريكة عثمانية ذات سلَّة مليئة بكتب مكتوبة بعناية شديدة وقد توارت محاسنها خلف الكتب، وهذا ما ولَّد لديه شعورًا بالغيرة من حرمانه من تلك اللذة إلى الأبد. أصابه كمد شديد، وهذا ما جعله يلقي نفسه على الأرض بعصبية، وهو ما تسبب في شعوره بالاختناق وبكسور في جسده. استفز هذا المشهد المثير

"فيرلين"، وهذا ما جعله يصرخ بشدة ويبصق، وشتم صديقه وضربه ولعن المارة الفضوليين الذين توقفوا لمشاهدة تلك الواقعة المخزية. وبعد مرور هذا الموقف، توسل "فيرلين" إلى "فاندر دورب" لكي يسامحه ويحبه مرة أخرى.

سيطرت عليه حالة من الحزن والغثيان وأصابه الدوار في الأيام التالية، وبحلول الربيع انتقل "فاندر دورب" و"رويمبيك" إلى الجنوب ومكثوا في "إيكس أون بروفانس"، ثم فضَّل "فاندر دورب" المناطق النائية حيث وجد فيها ضالته وحلَّ عليه ما يشبه السلام النفسي. ثم عاد إلى القراءة مرة أخرى وعاد إلى التفكير. واستعاد ذهنه بعض الذكريات "كامي كلايس" و"بيير" الصغير وأخذ يفكر في العودة إلى بروكسل.

مع بداية الربيع بدأ ريف "بروفانس" في الازدهار. وبدا عبير الزهور واضحًا وكأنه بداية لعهد جديد بعد الغفران. وازدانت السماء وقت الربيع كراحة السكنى. فكر "فاندر دورب" في الاستقرار كطبيب في "إيكس أون بروفانس" وقد استمرَّ هذا مدةً قصيرة ثم جاء الصيف وأراد العودة إلى باريس. رأى "مانون بلانش" مرة أخرى وأراد أن يتبعها كظلها. لقد كان يعاني فعلًا في كل مكان، سواء في وجودها أو غيابها.

***

تدهورت حالة "بودلير" الصحية بشكل خطر. كان الشاعر مشلولًا ورهين محبسه، وازداد غضبه وقلقه مع رطوبة أغسطس وأصابته نوبات من الحنق تجاه حياته، قبل أن يعود إلى حالة من الجمود جعلته كنبات خامل، وقد قضى معظم أيامه على هذه الحال. وقد بدأ في التكيُّف على هذه الحالة الشبيهة بحالة النبات الساكن، وهذا ما جعله يعيد التفكير - بما تبقى له من إدراك - في صدق المعتقدات الدينية في الشرق عن التناسخ وإعادة التجسيد التي قد سمع عنها قبل بضع سنوات.

اعتادت "مانون بلانش" أن تزوره يوميًا وتجلس معه إلى جانب سريره، أحيانا لمدة ساعة أو أكثر كانت تتحدث إليه بصوتها العميق، وتخبره عن نفسها وتُسِرُّ له عن خفاياها المثيرة، كأنها تمنحه هدية قبل الفراق أو نفحات من الحياة لشخص على مشارف الموت.

***

أخذت تمرر إسفنجة رطبة ومتشبعة باليود على وجه الشاعر وذراعيه، وهذا ما أراح عن كاهله الأثقال. مع هذه اللمسات المداعبة، كان "بودلير" يخرج من عالمه، ويستسلم لعالم أكثر نقاءً وتصالحًا مع القدر. وغلبه شعور أن الحياة المفعمة تنساب منه مثل دمعة باكية تنساب

بعيدًا. وأمام هذا المشهد المؤثر، كانت "مانون بلانش" تذرف دموعها الباكية بغزارة. وقد بدا أن ساعة خلاص الشاعر قد اقتربت وبدا أنه اقترب من الموت أكثر من ذي قبل.

شعر "فاندر دورب" بحسد وغيرة شديدة لهذا الاهتمام الذي تقدمه "مانون بلانش" لـ"بودلير". لم تكن بسبب تفاصيل هذه اللقاءات، ولكن بسبب اهتمامها المبالغ فيه الذي بدا من طريقة تحدثها عنه. قررت "مانون بلانش" دعوة "فاندر دورب" للحضور إلى بيت "بودلير" المُحتضِر في إحدى أمسيات نهاية أغسطس، رافقها "فاندر دورب" إلى جانب فراش "بودلير" وكانت والدة الشاعر - مدام "أوبيك" - هناك تراقب ابنها من كثب برفقة صديقها "شارل أسلينو". كان "بودلير" فاقدًا الوعي، يتنفس بانتظام. وهناك، بالقرب من إحدى النوافذ، يوجد حوض زجاجي مفروش ببعض الحجارة والأغصان يؤوي بداخله ذلك الثعبان الشهير المُفعَم بالحيوية الذي لم يتوقف ذهابًا وإيابًا بحثًا عن فريسة مفقودة.

راقب "فاندر دورب" عيني الثعبان عن قرب وبدا له أنهما فارغتان.. قلقتان وقد أثقلها الحبس والسجن. سألته "مانون بلانش":

- هل تريد أن تحمله؟ إنه رقيق جدًا وله رائحة كالمسك.

أشار "فاندر دورب" برأسه بالرفض.

ناقشت مدام "أوبيك" و"شارل أسلينو" حالة "بودلير" مع "مانون بلانش" ثم شكراها على رعايتها واهتمامها به، وذهبا لتناول العشاء. اقتربت "مانون بلانش" من "بودلير" المريض وجلس "فاندر دورب" على أريكة بجوار حوض الثعبان. ظلَّا صامتين هنيهة ثم شرعت "مانون بلانش" في ترطيب جبين الشاعر. فتح "بودلير" عينيه وثبَّت نظرته على "فاندر دورب". وقد بدت نظرته شبيهة بنظرات الثعبان الذي كان يصدر أصواتَ حفيفٍ بين الجدران الزجاجية بصوت مسموع لـ"فاندر دورب". همست "مانون بلانش" ببعض الكلمات وقد أومأت برأسها تجاه رأس الرجل المحتضر. ثم جاء المساء ولم تكن في الغرفة إضاءة إلا بشمعة واحدة. وحينما وصل إلى لحظة النشوة التي أعقبها الموت، أصدر "بودلير" أنينًا خافتًا واتسعت حدقتاه كعيني ثعبانه. بدت "مانون بلانش" وكأنها تُحرك فخذيه وتفركهما معًا. اختلطت روائح البول والمسك معًا في الغرفة ولاذ الجميع بالصمت. ثم شرعت "مانون بلانش" في تنظيف جسده السفلي المتسخ بالفضلات بقليل من الصابون والماء. أشاح "فاندر دورب" برأسه بعيدًا وأضفى ظل الثعبان المتحرك ذهابًا وإيابًا المزيد من التوتر والعصبية.

افترقت "مانون بلانش" و"فاندر دورب" دون أن يتفوها بأي شيء. ومع أن "فاندر دورب" لم

يحتسِ شرابًا تلك الليلة، فقد تقيأ في صباح اليوم التالي في حزن وكمد. لم يكن يزعجه المرض، فقد رأى أكثر من ذلك وأسوأ بحكم كونه طبيبًا. لقد كان شيئًا مزعجًا للغاية يفوق الوصف. كان يدخن بشراهة وانتابه القلق وظل يحوم من غرفة إلى أخرى ويلصق وجهه بالنوافذ المطلة على الشارع. ثم في لحظة ما، لم يستطع الصمود وارتدى ملابسه بسرعة وذهب إلى المستشفى في شارع "دوم" حيث كانت تقبع غرفة "بودلير" وطرق الباب ففتحت له إحدى الممرضات وبدت من ورائها مدام "أوبيك". حينما رأته ركضت إليه وقالت بتعجل شديد:

- سيد "فاندربورت" لقد مات ابني للتو.. لقد مات ابني.. حدثت الوفاة حالًا.. لقد مات ابني يا سيد "فاندربوت".. لقد مات ابني للتو.. لقد مات ابني.. حدثت الوفاة حالًا.





أثرت وفاة "بودلير" بعمق في "مانون بلانش" حتى إنها غادرت باريس بعد وقت قصير من جنازة الشاعر وعادت إلى أحد الأقاليم بالقرب من والدتها وأخواتها. وصل ذلك إلى مسامع "فاندر دورب" من أحد معارفهم المشتركين وكان لهذا الانسحاب المفاجئ لـ"مانون بلانش" من حياته تأثير يشبه الطعنة الغادرة. أما مشهد احتضار الشاعر بالأمس القريب، فكان يطارده

بضراوة دون أن يتمكن من تفسير ذلك الشعور.

استمرت الحياة في باريس من دون "مانون بلانش" وكذلك استمرت حياة "فاندر دورب" أيضًا من دونها. مرّ الخريف محملًا بالأوجاع. استأنف "فاندر دورب" ممارسة الطب سرًا إلى حد ما، وإجراء عمليات الإجهاض وعلاج الخارجين عن القانون والعمل بأسعار منخفضة في الطابق السفلي من المتاجر المشتبه فيها. لقد فعل كل ذلك من أجل المال - القليل نسبيًا في نهاية الأمر - إضافة إلى أنه كان يفعل ذلك من أجل تعاطفه مع مآسي الآخرين. وقد أضحى الطب شغفه الأول أشبه بممارسة روحانية لما احتوته من تجسيد لمعاناة الآخرين، ونوعًا من الفن الإلهي الذي يمارَس في الأجساد والقصص التي سعى من خلالها إلى أن يجد تفسيرًا لآلامه الخاصة.

استمر "فاندر دورب" في التردد على الشاعر "فيرلين" والشرب بإفراط، وهذا ما لم يمنعه من ممارسة جراحاته وعلاجاته بدقة ومهنية تضاهي مثيلاتها بالمستشفيات الحكومية. أحيانًا كان يستيقظ بحالة من الغثيان والارتعاش والارتباك، ومع ذلك يُجرِي جراحة ما مثل الناسور أو يفتح خُرّاجًا متقيحًا بهدوء ومهارة. وسرعان ما اكتسب سمعة بأنه طبيب الفقراء، وحظي بتقدير الكثيرين واكتسب استحسان الطبقة الفقيرة من الشعب، حتى إنه اتخذ منهنّ بعض العشيقات، من بين أولئك زوجة مصرفي شديدة الثراء قد أُغرِمَت به، ولكنه لم يتعلق بأي منهنّ.

مع نهاية عام 1868 المنصرم، استعاد "فاندر دورب" الكثير من كرامته المسلوبة وأحيا مجددًا ما أسماه "حياته الميتة". وتقصّى أخبار "مانون بلانش" من "رويمبيك" إذ علم بأنها قد سافرت إلى لندن حيث حققت ترجمة قصائدها نجاحًا كبيرًا. تمكن من تجنب التفكير في الأمر. وخلال إحدى جلسات احتساء الشراب، تعرف طالبًا إيطاليًا شابًا يُدعى "بييترو باولو" وأصبح صديقًا له. كان يتلقى تعليمه في المدرسة الثانوية "كوليج سانت جينيفيف" في "فرساي" ليتمكن لاحقًا من الالتحاق بالكلية البحرية بـ"بريست". حدّثه "بييترو باولو" عن إفريقيا وآسيا التي كان يطمح إلى استكشافهما. وكانت الموضة السائدة تشمل كل ما هو متعلق بالخارج. سادت في ذلك الوقت أحاديث المغامرات، وكُتِبَت في شكل روايات لليافعين. كانت الرمزية الصاعدة تعبر عن تبجيل أحلام الاستعمار، وسَعَت إلى تصدير أفكار أنه من الممكن تحقيق المزيد من الاكتشافات الهامة بعيدًا.

سبق لـ"بودلير" نفسه السفر. تأثر "فاندر دورب" بالنباتات الاستوائية والسفن العائمة والسيدات ذوات البشرة السمراء. وكلما خاض في الحديث مع "بييترو باولو" فهم مدى اشتياقه إلى السفر، وكان ينشد الراحة التي سيجدها هناك بقضاء أمسيات رائعة أو أن يجد نهاية مثالية لحياته.

في ربيع عام 1869، عادت "مانون بلانش" إلى باريس حيث مكثت بضعة أسابيع. حاول "فاندر دورب" أن يتحاشى مقابلتها، لكنه لم يستطع مقاومة الرغبة في الاطمئنان عليها. علم أنها قد أحبّت شخصًا ما. فقد التقت "مانون بلانش" في لندن الشاعرَ "أندْرو كوليينز" الذي كانت تُقدِّر أعماله وقد أقامت معه مراسلات أدبية في بادئ الأمر. وقيل إن الاثنين حينما التقيا لم يتركا بعضهما بعضًا قطُّ. أصاب هذا الخبر "فاندر دورب" في مقتل. لقد سُرِقَتْ حياته مجددًا وإلى الأبد. وبدا أن كل توافُق حسي أو جنسي لـ"مانون بلانش" مع هذا الشاعر كان ينزع أسباب وجوده في هذا العالم. قال لـ"فيرلين": "الحب هو اللامبالاة بالوجود من أجل المحبوب. والحب بخيبة أمل هو نفي الوجود في العالم". سر الوجود يكمن في هذه الحكمة، وحينما يكون الهدف مستحيلًا تتلاشى حميمية ومتعة وموت من نحب ومن نملك الغيرة تجاهه، غيرة لأنه الأفضل ولأنه حل محله وتفوق عليه، وحكم على المحب بالانتحار بعد فشله البيِّن في كسب حبيبته، وهكذا سقط في هاوية بعيدة عن عالمه لا قرار لها بعد أن زلَّت أقدامه من على الأرض التي ينتمي لها وسُلِبَتْ أرضه التي كان يحلم أن يموت فيها، وهي الحضن الدافئ لـ"مانون بلانش".

***

كان "فاندر دورب" ثملًا ومتوترًا، وهذا ما جعله يتخيل أن الإنسان يفكر بشهواته وغرائزه المجردة من أي تعقُّل. لا شيء يستحق عناء التفكير، فالغرائز الفِجّة هي مصدر التوجُّه وتحمل في طياتها الآلام والأحلام والدموع والمتع. الجنس بالنسبة لكل رجل هو الانحطاط الفظيع للصبي الصغير، والجنس بالنسبة لكل سيدة هو نفسه بالنسبة للصبية الصغيرة، كلٌ منها مصدر إلهام للجمال والحنان والموت الذي لا يمكن أن نحظى بمتعته إلا إذا صادفنا الحب المتبادَل والذي لم يحظ به "فاندر دورب" ولم يسعفه الحظ لذلك.

أشرقت الشمس بشدة وشملت الغابة بشعاعها وتعالت أصوات الطيور وصرخات القرود. أخذ "فاندر دورب" يُدخِّن ببطء، وقد انتاب تفكيره أن لحظة وفاته قد حانت. في ذلك المساء قرأ الشاب "بييترو باولو" أجزاء من بعض القصائد وهو يضحك بعفوية صبيانية. لم تكن نوبات الأسهال الدموي التي كانت تعاود كل مرة بعنف أكبر، كافية أن تشفيه نفسيًا. وتفاقمت حالته حتى شعر أنه يفقد شغفه ووعيه بالحياة، فهو ليس بأبٍ ولا حبيب فقد ذبل في أحلام اليقظة والندم.

***

سرعان ما أعادت أخبار الحب السعيد لـ"مانون بلانش" المعاناة الرهيبة إلى "فاندر دورب"

بالرغم من نجاحه في كبح جماحها من قبل. وتمادى في إحباطه حتى أصبح يعاقر الكحوليات بشكل متزايد برفقة الشاعر "فيرلين" الذي غرق في إحباط يائس مع مزيد من العنف والجنون بعد أن سحقته نوبات طويلة من اليأس. وسرعان ما فقد "فاندر دورب" القدرة على ممارسة الطب. وكان في بعض الأحيان يشرب إلى حد الهذيان. في إحدى الأمسيات، كان هو و"فيرلين" قد وصلا إلى أقصى درجات الثمالة حتى إنه حاول قتل "رويمبيك" بقطعة من الزجاج، ثم علل ذلك صارخًا بأنه أراد أن يقطع بطنه ويُخرِج منها البيض الذهبي، إلا أن "رويمبيك" دافع عن نفسه بإطلاق النار من مسدسه وأصاب "فاندر دورب" في صدره. انتاب "فيرلين" شعور بالخوف وخرج هاربًا. وأسفرت الطلقة التي تلقاها "فاندر دورب" عن ثقب في الرئة اليمنى، فهُرِعَ صديقه به إلى طبيب مشهور تمكن من إنقاذه. ادّعى "رويمبيك" أن ما حدث كان عفويًا، ولم يرغب في الإفصاح بأنه كان دفاعًا عن النفس، لأن ذلك من شأنه أن يُجَرِّم صديقه.

أُعيد "فاندر دورب" إلى شقة "رويمبيك" حيث مكث لمدة أسبوعين بين الحياة والموت، ولم يحتفظ عقله بأي ذكريات لهذين الأسبوعين باستثناء إحساس مبهم بحقيقة ما حدث. عندما استفاق من نومه، وجد "رويمبيك" بجوار فراشه، وعينيه دامعتين، ممسكًا بيده التي وضعها بعد ذلك على فمه ليقبّلها. تبادلا النظرات وسط صمتهما ثم كسر "فاندر دورب" الصمت قائلًا:

- إلى أي مدى تكرهني يا صديقي؟

- أقل من كرهك لنفسك.. في الواقع، أنا لا أكرهك.. فكيف يمكن لأحد أن يكره شخصًا يحمل معاناتك؟

ضغط "فاندر دورب" بأطراف أصابعه الضعيفة على يده برفق وابتسم لأول مرة منذ وقت طويل. في الخارج، كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة عصرًا، في أحد أيام شهر أكتوبر، وتصاعدت بعض أصوات لسرب من الحمام استقر تحت السقف القديم.

في الصيف نفسه وفي نوبة عنف أخرى، حاول "فيرلين" قتل والدته. ثم أصابه الخوف من تصرفه هذا خاصةً وأنه قد خطب حديثًا فتاة شابة كان قد وقع في حبها قبل بضعة أسابيع، ولذلك قرر أن يعيش حياة خالية من الخمور، حياة منظمة ولو مؤقتًا، ولذلك قرر الابتعاد عن رفيقه "فاندر دورب" الذي كان يذكره بشكل مخزٍ بمغامراته السيئة.

كان هذا الابتعاد مفيدًا أيضًا لـ"فاندر دورب" الذي رفض أن يصبح مصدر خطر على أصدقائه، واختار أيضا الابتعاد عن المُسكرات. ومع ذلك، استمر في اعتبار أن حياته لا جدوى لها، وفكّر في الانتحار دون أن يتمكن من فعل ذلك، إذ لم تكن في نظره حياةٌ ليحياها، إلا أن في الحياة ما

يكفي للعيش كالأموات. عاش "فاندر دورب" حياة شبه منعزلة عند "رويمبيك"، كان يحلم بإبادة سامية ومحو تام لحبه لها، لكن في نهاية الأمر - بلا حول له ولا قوة - وبعناد تام كانت عيون "مانون بلانش" الواسعة ذات الهالات السوداء تتراءى له.

***

في مطلع عام 1870، طرقت "مانون بلانش" باب شقة "رويمبيك". قالت إنها ستوجد في باريس لمدة ثلاثة أشهر وأنها تريد السؤال عن "فاندر دورب" والاطمئنان عليه، إذ إنها تفتقد صداقته. اعتقد "فاندر دورب" أن القدر يبتسم له وأنه سيعوضه عما فاته ولو عن طريق الصداقة فقط بحيث يحتفظ بوجود "مانون بلانش" في حياته. إلا أنه سرعان ما أدرك أنه يكذب بشدة على نفسه لعدة أسابيع، لأنه حاول إخفاء شعوره الحقيقي عن نفسه بأنه لا يمكن أن يرضى بأي صداقة أو علاقة من شأنها أن تستبعد حميمية الجسد التي من دونها لا يمكن تحقيق حميمية القلب وحميمية الموت السامية والنقية التي كان يطمح إليها.

ظلت "مانون بلانش" غامضة في حديثها على الرغم من كلامها، وازدادت غموضًا مع أنها تبوح ببعض أسرارها، التي تعبّر عن مكنونها وروحها، ولكن يبدو أنها كانت تخفي الكثير كأنها شمس ساطعة لا يمكن اختراقها.

لم يكن "فاندر دورب" مهتمًا بالتوترات على الساحة السياسية الأوروبية، المليئة بنداءات القومية والرأس مالية التي بلغت ذروتها وقت فراغ العرش في إسبانيا، لأنه كان شغوفًا بأشياء أخرى.

***

هذه المرة الأخيرة تفوّق على أوجاعه السابقة بأنه استطاع تحديد أن الحب هو سبب معاناته. لقد أدرك تمامًا أن حبه لـ"مانون بلانش" سلاح ذو حدين، فهي مصدر حبه وأصل معاناته في الوقت نفسه، وأضفى جمالها الطفولي وجاذبيتها المغرية مزيدًا من المعاناة لأنها صعبة المنال بالنسبة إليه. ويبدو أن "فاندر دورب" قد استسلم للحب واستسلم للمعاناة أيضًا، وإذا كانت "مانون بلانش" قد أعطته الفرصة لذلك كما لم يحدث من قبل ولن يحدث من بعد. تظل الحقيقة الواضحة أن "مانون بلانش" لا يمكن اختزالها في أنها سبب للمعاناة والحب فقط، ولكنها تجسّد قَدَرِيًا أصل هذه المعاناة وأصل ذلك الحب واحتياجه المُلِح إلى ذلك. لم يجد "فاندر دورب" أي عزاء في هذه الفكرة، بل على العكس من ذلك، ذكّره وجود "أندرو كولينز" بأن الحياة بالنسبة إلى آخرين قد تتخذ مسارًا رائعًا. أما رؤية "فاندر دورب" من منظور معاناته جعله أشبه بالشخص

الأعمى العاجز الصامت، أشبه برجل على مشارف الغرق، غمرته المياه حتى رأسه ولم يملك إلا محاولات يائسة لأنفاس أخيرة في الحياة.

في الثالث عشر من يوليو، استقبل ملك "بروسيا" "فنسنت بينيديتي" سفير فرنسا من أجل إغلاق قضية عرش إسبانيا. في ذلك اليوم، في أثناء نزهة على ضفاف نهر "السين"، باح "فاندر دورب" لـ"مانون بلانش" بشعوره مرة أخيرة. تنهّدت "مانون بلانش" وأعلنت له أنها ستتزوج "أندرو كولينز" في الخريف. وفي التاسع عشر من يوليو، أعلنت فرنسا الحرب على "بروسيا" ورأى "فاندر دورب" "مانون بلانش" آخرَ مرة في حياته.

***

حملت السنوات الثلاث التالية لـ"فاندر دورب" الكثير من الاضطرابات في العواطف والكثير من الضبابية في الحياة. فقد تجنّد طبيبًا في صفوف القوات الفرنسية - وليس في خط المشاة كما ادّعى - وكما ستقودنا الأسطورة التي سيُروِّج لها لاحقًا بخصوصه في إفريقيا إلى الاعتقاد.

هُزِمَت فرنسا أمام بروسيا في معارك "ويسمبورج" و"فروشويلر ويرث" و"نواسفيل سيرفيني" و"سيدان"؛ وشهد "فاندر دورب" آنذاك تلك الكوارث الفرنسية، فكان يبتر جراحيًا طوال اليوم العديد من الشباب الجرحى الذين لم يبلغوا العشرين من العمر. هكذا هُزِمَت فرنسا. في مارس 1871، انضم "فاندر دورب" إلى حركة تمرد مدينة باريس "لا كومون". وهناك التقى "فيرلين" الذي تزوج وكانت زوجته حاملًا. أما "رويمبيك" فقد سافر ليرافق راقصة إلى كندا الناطقة بالفرنسية القابعة بالقارة الأمريكية.

شهدت حركة تمرُّد مدينة "لا كومون" المزيد من حمامات الدم لـ"فاندر دورب". كان يبدو ظاهريًا غير متأثر لما يشهده، فقد كان يؤدي عمله المعتاد من جراحات شق الجلد وإفراغ الجروح والبتر والتضميد، حتى إن عينيه لم تعد ترى في الأجساد سوى الصورة السلبية وأحيانًا أخرى يرى الصورة الحقيقية لثقافته. فمن خلال الفتحات الدامية للجروح كان يخرج في بعض الأحيان عظمٌ نائم، وكأن الراحة تولد من رحم المعاناة. وهذا ما جعله يفكر في أن طب الحروب يشبه إلى حد ما ممارسة طب أمراض النساء.

في نهاية حركة تمرد "لا كومون"، توارى "فاندر دورب" عن الأنظار بعض الوقت حتى نُسِيَ. ثم طلب منه "فيرلين" أن يصبح أبًا روحيًا لابنه، إلا أن "فاندر دورب" رفض ذلك. ثم التقى "فيرلين" الشابَ "آرتور" الذي وقع في حبه حبًا جنونيًا، والذي كاد يقتل نفسه من أجله. ولم يره "فاندر دورب" بعد ذلك.

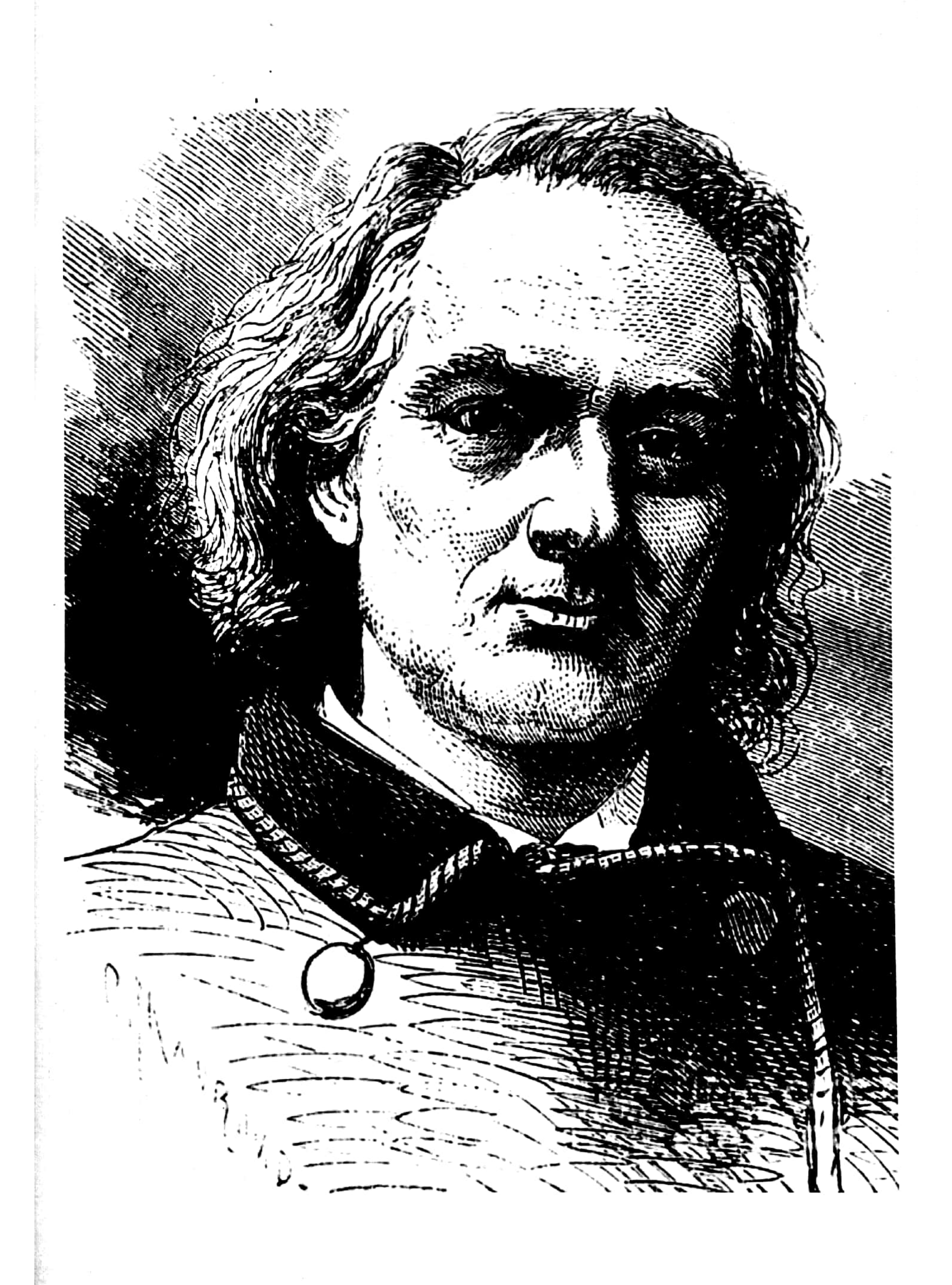
وفي أحد الأيام، التقى " بييترو باولو" مصادفة على أحد المقاهي، وكان مارًا عبر باريس بضعة أيام بعد أن أصبح حامل راية على سفينة تتبع إحدى الوحدات القتالية خلال الحرب وحصل على الجنسية الفرنسية. وقد انتهز الفرصة لتغيير اسمه إلى أحد الأسماء الفرنسية، فأطلق على نفسه اسم "بيير سافورنيان دو برازا". ثم أخذته بعثاته بانتظام إلى إفريقيا وتحديدًا إلى الجابون، حيث خطط للإبحار في نهر "أوجويه". وكان يبحث عن طبيب لبارجته وعرض على "فاندر دورب" مرافقته. استقل "فاندر دورب" سفينة "فينوس" تحت اسم مستعار "فان دير جور"، لكيلا يلفت انتباه السلطات الفرنسية إلى ماضي الطبيب "فاندر دورب" وقت تمرده. ولكن أزال تأثير "برازا" أي صعوبة في هذا الصدد.

وفي عام 1874، تمكّن "برازا" من تنفيذ مشروعه للإبحار في نهر "أوجويه"، ومن ثمَّ بدأ حياته المهنية مستكشفًا من شأنه أن يصبح مشهورًا عالميًا، مصطحبًا معه في كل رحلة من بعثاته طبيبه المخلص الدكتور "فان دير جور".

لمدة خمسة عشر عامًا، أخذ "فاندر دورب" يجوب غرب إفريقيا. وبمشاركته في رحلاته الاستعمارية، شهد الجنون المريض والبغيض للعنصرية الغربية. لم يفكر من قبل أنه يمكن تعذيب نفس عن طريق إدخال عصا من الديناميت في فتحة شرج أحدهم وإشعالها! اعتبر نفسه ميتًا مع أنه حيّ. وعندما استقرَّ طبيبًا في "ليوبولدفيل"، استعاد اسم "فاندر دورب" مرة أخرى، وقد ارتبط بأسرة "كلاين". تعرَّضت إفريقيا لكثير من المهانة والضربات والانتهاك. أحب "فاندر دورب" الابن الصغير لأسرة "كلاين". مثل كل أولئك الذين لديهم اليد العليا أو يمثلون الطرف الأقوى في المعادلة، قد غضَّ الطرف عن الكثير من الأشياء. باتت رحلته أشبه بانزلاق دمعة من الدم من بروكسل إلى "ليوبولدفيل".

في عام 1886 سافر إلى إنجلترا مع الشاب "كلاين" الذي كان بصدد دراسة التجارة هناك. وفي لندن، قابل بعض معارفه القدامى من الأيام الخوالي لباريس، وسرعان ما علم أن "مانون بلانش" قد تُوفِّيت في أثناء الولادة في عام 1871، في نهاية حملها الأول. وسرعان ما شرع "فاندر دورب" في البكاء وسأله الشاب "كلاين" عن سبب بكائه، فأسرَّ له "فاندر دورب" بصراحة قصة شبابه الجامح وحبه المحبط. وفي 26 ديسمبر 1888 غادرا معًا من "ليفربول" إلى الكونغو.

كان الليل قد حلَّ على مدينة "إكواتورفيل". وفي الصباح، أبلغ اثنان من العمال من السكان الأصليين "شارل لومير"، مفوض مقاطعة "إكواتورفيل"، بالعثور على جثة رجل أبيض تحت ظل بستان من الأشجار ذات الوَرد.





كثيرًا ما كان "بيير كلايس" يستيقظ وهو يتصبَّب عرقًا، فيتحسَّس "شي شياو" بقطعة قماش مبللة على جبينه ويهمس بلغته الأم بكلمات لم يفهم "بيير كلايس" منها سوى أنها تعبير عن الحنان. مرت ثلاثة أسابيع على موقعة "موكانجا"، ولم يتحدث أحد مرة أخرى عن مقتل المستوطنَين أو عن المشهد المرعب للجثث المكبلة بالسلاسل التي كانت في الكوخ.

أحضِرت ثلاثة زوارق على متن الباخرة "فلور دي بروج" للبعثة التي خُفِّضَتْ إلى ثمانية رجال، وهذا ما سمح لتلك الزوارق بمواصلة صعود نهر "أوبانجي". كان "كلايس" قد خفَّف من أحمال المعدات إلى الحد الأدنى الذي يحتاجون إليه. إذا لزم الأمر، كان مخططًا أن يُوظَّف عمالة إضافية من الرجال في مركز "بانزيفيل". لم يشعر "كلايس" بالذنب لإطلاق النار على موظفي "موكانجا" ولم يُعِز أي اهتمام حتى بنقل الجثث، فالحيوانات ستتولى الأمر. بدا "بيير كلايس" أجوف الأحاسيس، غلب على أحاسيسه التشتت الشديد وساد الاضطراب روحه كرياح عاتية واستسلم لقلقه وأحزانه إلى حد كبير.

وعلى الجانب الآخر، أعرب العمال الستة من السكان الأصليين عن تقديرهم المساواةَ في المعاملة لجميع أعضاء البعثة التي كان مهندس المساحة يحاول فرضها، تظل الحقيقة الواضحة أنه لم يحدث أي توافُق حقيقي بينهم. كانوا يمضون قدمًا بصمت، وأحيانًا يتبادلون بضع كلمات بأصوات خفيضة. وعلى الرغم من اهتمام "كلايس" بهم، فإن حقيقة انتزاع "لوزولو" و"لومالا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا" من قبيلة الـ"بانتو" باقية: لقد استؤصِلوا من قريتهم

وأجبِروا على العمل ضد بلادهم وثقافتهم.

من جانبه، لم يعرف مهندس المساحة طريقًا سوى أن يكون مستعمرًا بلجيكيًا مُفوّضًا من قِبل الملك "ليوبولد الثاني" لاقتطاع الأراضي المسروقة. توقفت علاقتهم عند هذا الحاجز الذي لا يمكن تخطيه. أما بالنسبة إلى "شي شياو"، وهو صيني تابع لا يملك من الأمر شيئًا، لولا الحب لما استطاع أن يحيا وسط الحشرات ويتحمل الضجيج الإفريقي والحر الخانق الذي لا يُطاق.

***

وصلوا إلى "بانزيفيل" بعد نحو خمسة عشر يومًا، وهو آخر مركز بلجيكي مهم قبل الأدغال اللانهائية. تفاجأ "كلايس" بعدم العثور على أي من الأشخاص البيض. تُوفي آخر ملازم في الخدمة بسبب الملاريا ولم يكن من المتوقع أن يحل محله أحد قبل عدة أشهر. كان المركز تحت إدارة رجال "تيبو تيب"، وهو تاجر الرقيق الشهير وأصله من "زنجبار" وامتد نفوذه في جميع أنحاء شرق إفريقيا. وسطع اسم "تيبو تيب" إلى جوار الأسماء البارزة في الاستعمار الإفريقي مثل "ليفينجستون" و"ستانلي" و"فون وايزمان" قبل أن يعرض خدماته مباشرة على "ليوبولد الثاني". بعد أن كوّن ثروة من بيع العاج والعبيد، وقد عرض عليه منصب حاكم منطقة "شلالات ستانلي". وقد شغل رجاله - ومعظمهم من الشرق - أكثر المواقع النائية في دولة الكونغو الحرة التي ما زالت دون قيادة بيضاء.

رحّب ملازم "تيبو تيب" وهو "علي بن الحسن المغربي" وهو أيضًا من مواليد "زنجبار"، بـ"كلايس" بكل الاحترام الواجب كقائد حَفلَة بتكليف من الملك. دعاه بلغة فرنسية ضعيفة، هو و"شي شياو" إلى الاسترخاء تحت ظل سقف من جريد النخيل. قدّم "علي بن الحسن المغربي" لضيوفه العديد من مشروبات من خلاصة النباتات والفواكه المجففة. وقد أُبلِغ مرسال بزيارة "كلايس" وكان سعيدًا لأنه تمكن من إظهار مركزه وهو مُنظّم للغاية. وبعد تناول وجبات خفيفة، قاد "كلايس" و"شي شياو" إلى مخازن العاج والمطاط الوفيرة ذات الجودة العالية. ثم قدّم لهم "علي بن الحسن المغربي" بكل فخر حديقة صغيرة يزرعها ويفتخر بها، وخاصةً بمزروعات اللفت والجزر.

بدت المباني الطينية والخيام القليلة التي يتكوّن منها المخيم مرتبة نسبيًا، ودُهِش "كلايس" من أن هذا المركز البعيد كان أحد أفضل المراكز المُعتنَى بها على الإطلاق. كان هناك ماعز ودجاج ينظرون بأعينهم الحمقاء والسعيدة إلى العالم، هاربين من الشمس تحت ظل الأكواخ. وعند مدخل إحدى الخيام كان اثنان من كلاب الـ"ماستيف" المنهكة من شدة الحرارة يراقبان

المشهد بعيون فارغة. وعلى بعد عشرة أمتار بالكاد، في نهاية شاطئ رملي صغير، تتدفق شلالات نهر "أوبانجي"، متلألئة بنضارة على سطح مياهه الرمادية، في تيارات فائقة الجمال تشق طريقها بين الأعشاب والنخيل.

أدرك "كلايس" أنه حتى الآن لم يرَ أي عامل من السكان الأصليين. إلا أنه بالكاد رأى بعض الظلال البشرية تتحرك بصعوبة على الأرض في بستان بعيد أدت الحرارة إلى تشويش رؤيته.

عندما عادوا إلى ظلال النخيل، أحضر "علي بن الحسن المغربي" جميع الخراطيش التي أُطلِقَت منذ توليه منصبه بالإضافةِ إلى عشرات الأيادي المقطوعة - والعديد منها قُطِعَت حديثًا - للتقشف في استخدام الذخيرة كما هو موضح بدقة في السجل الذي أراه لـ"كلايس". تضمَّن السجل الأيدي المقطوعة فقط لتسويغ استخدام الذخيرة، وليست لأولئك الذين قُطِعَت أطرافهم وهم أحياء كإجراء عقابي. وبعد هذه القراءة، أخذ "كلايس" يراجع بدقة لضمان عدم الإهمال. لقد كُتِبَ كل رقم بعناية ونُسِّقَتِ السطور باستخدام المسطرة وكُتِبَ أمام كل رقم سبب إطلاق النار: قلة الإنتاجية، السرقة، العصيان، التمرد، ازدراء الأديان، وما إلى ذلك. في بعض الأحيان كان "كلايس" ينظر إلى الأعلى ليرى عيني "علي بن الحسن المغربي" تنظر إليه، حزينة وعميقة ومحاطة بتجاعيد جافة صغيرة. وعند النظر مرة أخرى في السجل، تعجَّب بداخله كيف أن يَدَيْ مُضيفِه تبدو نظيفة ومتواضعة، هاتان اليدان اللتان قتلتا واللتان قطعتا أيادٍ أخرى. ثم نظر "كلايس" إلى يديه أيضًا، إنها يدان شابتان، ولكنهما لا تعلمان ماذا تفعلان.

تراكمت عند قدميه العشرات من الأيادي السوداء المقطوعة التي جففتها الشمس، وكانت أشبه بعدد كبير من سرطانات البحر التي تتوارى عن الأنظار مُعبِّرة عن كم العار الذي لحق بهؤلاء الأحياء. هذه الأيادي التي استمرَّت أظفارها في النمو بالرغم من اختفاء أجسادها، قد فاق أنينها صرخات الحيوانات والأشجار العملاقة وتعاقب الليل والنهار، وشعور الندم وصراخ البشر. ستصرخ هذه الأيادي وتخترق العالم حتى تُشوِّهه وتفضحه، بشدة صراخها. ستذهب هذه الأيدي إلى مهد كل طفل حديث الولادة وإلى فراش كل عجوز وإلى عتبة كل منزل لتحمل الأخبار السيئة، حتى تصل إلى لحية "ليوبولد الثاني" نفسه التي سيقتلعونها في النهاية كما يقتلعون كل تمثال للمسيح من على صليبه لكي يصفعوه ويعلنوا له وهم يضحكون ويغنون، مثل زنوج نهر الكونغو من نهر الكونغو، ليعلنوا مجيء الموت، والخوف، ونهاية العالم. وضع "كلايس" السجل، فقد رأى ما يكفي.

***

ويبدو أن الكثيرين بدأوا يتهامسون حول "بيير كلايس" الأسطوري بعد أن ذاقوا الذل والمهانة، أصبح بالنسبة إليهم أسطورة حقيقية. ويبقى التساؤل المطروح هو تحديد متى تحوّل مهندس المساحة إلى قراره الذي لا رجعة فيه.

صار الاعتقاد السائد لدى البعض بأن جرائم القتل في "موكانجا" أصبحت أهم ما يمثل تلك الحقبة المضطربة، ولدى آخرين يرجع ذلك إلى الحادث العصيب الذي حدث في "إكواتورفيل"، والبعض الآخر يتحدث عن أيادي "بانزيفيل" المقطوعة. ويظل التفسير الأمثل لهذه القضية المظلمة - مع الأخذ في الاعتبار قضية السيد "دي بلزاك" - عندما قاد "كلايس" بجدية ومثابرة - أو تظاهر بذلك - بعد مروره بـ"بانزيفيل"، ولبضعة أسابيع أخرى، أنشطة المهام المُوكَلة إليه. فمن المؤكد أن عند رحيله من "بانزيفيل"، أدرك مهندس المساحة تمامًا أن بعثته قد قُدِّر لها الفشل. وتبدو هذه الحقيقة ماثلة بسبب أنه لم يبقَ في "بانزيفيل" سوى ليلة واحدة فقط، وأنه غادر المركز دون أن يطلب رجالًا أو طعامًا أو مُعدّات، وهو ما كان يجب منطقيًا فعله لإكمال رحلته وفقًا للأوامر المُوجّهة له. ولكنه لم يفعل ذلك. حتى نحن أنفسنا - الذين نعرف بعض الأسرار الأكثر خصوصية لهذه القصة - لا نجد تفسيرًا لذلك ولا حلًا لهذا اللغز المراوغ. كل ما نعرفه على وجه اليقين هو أن "بيير كلايس" و"شي شياو" و"لوزولو" و"لومالا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا" أخذوا زوارقهم واستمرُّوا في إبحارهم في نهر "أوبانجي" صعودًا على الرغم من النقص الحاد في الموارد.

***

كان الموضوع أشبه بالحلم اليائس لـ"كلايس" الذي ظل يقاتل في صعود النهر بالرغم من جسده الذي مزّقته أدوار الحُمى وحوّلته إلى شبح بائس، فقد استكمل إبحاره في النهر الذي أخذ يضيق أكثر فأكثر. قد يبدو ذلك ضربًا من الجنون ولا مبالاة واضحة، إلا أن ذلك يتماشى مع غموض عالمه الخاص ونفسيته المتصارعة أمام عوائق طبيعية شديدة الصعوبة لا تعرف الهوادة، وتناوبت عليهم الأيام والليالي مثل المطارق الثقيلة بعدما مرَّ المغامرون الثمانية على التوالي بمحطات "أبيراس" و"ياكوما" و"بانجاسو" دون مشكلات للوصول إلى نهاية الطريق المائي، حيث كانت حدود الدولة الخاصة بالملك "ليوبولد الثاني" خالية من الترسيم المادي والذي سيُحدِّده ويرسمه "كلايس" ذلك الشاب البائس من مواليد مدينة "بروج"، مهتديًا بالفلَك وحركة النجوم.

بدأ الرجال الثمانية في العمل واستعان "بيير كلايس" بـ"شي شياو" في مهام المساحة التي شملت دراسة حركة النجوم، بالاستعانة ببعض الأدوات العلمية الدقيقة مع تطبيق بعض حقائق

حساب المثلثات، ليتمكن في النهاية من ترسيم الحدود التي مكّنت الرجل الأبيض من اقتطاع الأراضي الإفريقية البكر لكي يغزو قلبها ويدنس روحها.

أخذ مهندس المساحة في تنقيح الخرائط كل يوم وقام بتدوين تقسيم الأراضي أولًا بأول. ووفر "لوزولو" و"لومالا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا" بقية الاحتياجات الضرورية للبقاء، وتولّوا مهام الحراسة والصيد وتقسيم المسارات وإشعال النار للتدفئة. وفي المساء، تجمّعوا حول نار جديدة وتناولوا الطعام في صمت.

ثم تجمّع رجال قبيلة الـ"بانتو" بعيدًا عن النار، وتهامسوا فيما بينهم، ولمعت جلودهم الزرقاء في ظلمة أول الليل. ثم ارتقى "بيير كلايس" و"شي شياو" على فرع مرتفع يطلُّ على المظلة التي راقبوا منها موقع النجوم من أجل أعمال اليوم التالي. ثم عاد "بيير كلايس" إلى خيمته، وتبعه كالمعتاد "شي شياو". ثم أغلقوا مدخل الخيمة المُكَوَّن من قماش سميك وتعاطوا كميات كبيرة من الأفيون من إعداد الجلاد الصيني في أنابيب صغيرة تشبه المزامير الغريبة، المصنوعة من الخشب والمعدن. ويبدو أن روح "بيير كلايس" الحبيسة داخل جسده قد وجدت حريتها وخرجت من معاناتها بضع ساعات ظل يطير خلالها هنا وهناك مثل ورقة في مهب الريح، جالسًا مع "شي شياو" يطالبه أن يقصّ عليه ليلة بعد ليلة - مثلما كان ملك بلاد فارس يطلب من "شهرزاد" - قصصًا عن فنون التعذيب الصينية مليئة بالرعب والنشوة والحنان والدم في آنٍ واحد. أراد "بيير كلايس" أن يعرف كل شيء عن النظرات الأخيرة والكلمات الأخيرة والتنهُّدات الأخيرة لهؤلاء الضحايا الذين تحوَّلوا لاحقًا إلى جلد منكمش مشقوق، مقلوب رأسًا على عقب بفجاجة بعد أن انقلب عالمهم كياقوت أحمر دموي مُرَصَّع بنقاط سوداء كالنجوم. وكان "شي شياو" يحكي له بصوت خفيض ما رآه وما فعله، ثم أعاد ملء الأنابيب التي أشعلها بجمرة حمراء صغيرة لامعة. في حين كان عقل "كلايس" يحاول أن يستوعب هذه الدموية المقيتة التي ترتفع إلى عنان السماء حتى إنها تصطدم بالقمر والكواكب التي أصبحت أشبه ما تكون بجماجم تمثل الموت بعد الحياة ثم يحتضن الكون الحب كما تحتضن روافد النهر البحر مرة أخرى. وأخيرًا يطفئ "شي شياو" مصدر الضوء الوحيد ألا وهو شعلة مصباح الكيروسين الصغير الرقيقة الوامضة لينتهي اليوم ويصير الليل مسحورًا حتى اليوم التالي.

***

في إحدى الأمسيات، لم يكن لدى "شي شياو" قصة جديدة ليرويها، فطلب منه "بيير كلايس" أن يكون هو موضوع القصة التالية. طلب "بيير كلايس" من "شي شياو" أن يرسم وشمًا على جسده يماثل الخطوط العريضة للقطع وأن يطبّق عليه فن التقطيع الصيني، ولكن هذه المرة في

قلب إفريقيا. أراد "بيير كلايس" أن يسترخي مستمتعًا بالنجوم بعيدًا عن حياته المأساوية. كان "شي شياو" يعرف منذ بداية صداقتهما أن "بيير كلايس" سيطلب منه هذا الطلب وكان يعرف أيضًا أنه سيوافق عليه.

وبينما كان "بيير كلايس" يرسم ويحدد مساحات الغابات بالنهار، كان بالليل يقدّم جسده لفن "شي شياو" على ضوء مصباح الكيروسين الصغير تحت تأثير تعاطي جرعات أكبر من الأفيون. وانهمك "شي شياو" في الرسم على الجلد الذهبي للشاب، الذي ما زال جسده يملك بعض الروائح الطفولية وأخذ يرسم وشمًا رائعًا يتبع التوازن السري للجسم مع حدود الموت، فوضع الجلاد الصيني خطوطه الجاهزة للتقطيع الذي يعلم جيدًا أنه سيكون الأخير في حياته المهنية وفي حبه وعالمه. أما "بيير كلايس" فكان يصحو كل صباح وقد غطّت جسده الخطوط أكثر من اليوم السابق في انتشار مذهل كأرابيسك حلزوني وغريب يحاكي الحياة واكتمالها.

أصبح مهندس المساحة يعيش عاريًا، مُزيّنًا برسوم تحمل أنماطًا مغالية من الحبر الأسود جعلته أشبه بإله قديم. لم يعُد جسده يُصاب بالحمى وعادت إليه شهيته مرة أخرى. واصل عمله رسامَ خرائط، بمنتهى الجد والكد، وأنهك عينيه في مراقبة النجوم بكل عناية واستنفد نفسه في الحسابات، غير عابئ بالنظرات السلبية للعمال المحليين. وكل ليلة كان "شي شياو" يخوض بيديه الماهرتين المزيد في هذا الجسد العاري الذي أنهكه الجهد والحزن والأفيون.

وفي إحدى الأمسيات، بعد تناول الطعام، ابتعد "بيير كلايس" قليلًا عن المخيم للوصول إلى منطقة خالية يتمكن من خلالها من مراقبة السماء. كانت الغابة تعج بالحياة الليلية وبالحيوانات المفترسة والحشرات الهائمة الكثيرة. وبينما كان البدر مكتملًا، تناهى إلى مسامع "بيير كلايس" صوت تكسّر أحد الفروع من خلفه. التفت سريعًا متخوفًا من وجود بعض القطط البَرِّية الليلية الشرسة التي تتحيَّن الفرص للهجوم. وبالرغم من ضوء القمر المكتمل فإن الظلام الدامس لم يسمح له برؤية تتخطى المتر أو المترين. صوَّب بندقيته وانتظر في صمت وبلا حَراك. أخذ يُمعِن النظر في الظلام، ثم خُيِّلَ إليه أن هناك من ينظر إليه فانتفض. ثم خرج هيكل شبيه بالبشر في جوف الظلام الدامس، يبدو غريبًا ومنحنيًا. وسريعًا ما تعرَّف "بيير كلايس" "ليوبولد" الشمبانزي.

- "ليوبولد" يا صديقي، ماذا تفعل هنا؟ هل اتبعتنا؟

التزم "ليوبولد" الصمت وتقدم ببضع خطوات ثم مدَّ يده لـ"بيير كلايس" الذي مدَّ يده هو الآخر له.

وضعها "ليوبولد" على وجهه وأبقاها عليه. خمَّن "بيير كلايس" أن "ليوبولد" كان يبكي، ثم أغمض عينيه وثبَّت كلاهما مدةً طويلةً. ثم قال "ليوبولد":

- "فارفيل ماين ليف".

ثم اختفى في الغابة وهو يقفز ويصرخ.

"فارفل ماين ليف" تعني "الوداع يا حبيبي" باللغة البلجيكية الفلمنكية.

وبمرور بضعة أيام، مع الفجر، أنهى "شي شياو" الجزء الأخير من الرسوم التي بموجبها يتعين عليه أن يقتل حبيبه. كان "بيير كلايس" قد استسلم للنوم، ففتح عينيه ورأى "شي شياو" يحمل شفرة في يده اليسرى، وكان قد خلع ملابسه. التقت نظرات الرجلين مثل العشَّاق في حين كانت الغابة في الخارج تغطيها النجوم في سواد الليل النقي.

***

لم يستطع "شي شياو" أن يكمل للنهاية. لم تكن لديه القوة لفقدان "بيير كلايس". وعندما شرع في تقطيع حبيبه، رأى في انحسار الجلد المنكمش على طول الجروح القطعية، نهاية لحبه.

رأى بعينيه موت الحب واستشعر الوحدة اليائسة بعد فقدان أقرب الناس له. لم يمتلك "شي شياو" الشجاعة لفقدان هذا الجسد على الرغم من خطوط فنه الذي امتلأ بها. اختار "كلايس" أن يموت في الخارج، عند سفح شجرة ضخمة. وبينما كان يعمل على ضوء الفجر، أعاد الجلادُ مهندسَ المساحةِ إلى طين هذه الأرض إلى بداياته في هذه الغابة الحافلة بالحياة والموت التي اخترقتها أضواء الشمس البكر، إلا أنه لم تكن لديه القوة للذهاب إلى نهاية هذا الضوء.

تأمل "شي شياو" الصندوق الخشبي النادر الذي يحتوي على أنماط الوشم والشفرة المعدنية التي كانت ترافقه دائمًا. إن لهذا الصندوق تاريخًا حافلًا وهو أقدم منه بكثير. فقد توارثه عن مُعلمه، الذي أعطاه إياه في اليوم السابق لرحيله. تاريخ هذا الصندوق، كما أخبره معلمه، إلى جانب غيره من الصناديق الشبيهة يعود إلى بدايات ظهور فن الجلادين في تقطيع البشر. فهو يحمل بين جنباته كل مصائر أساتذة الوشم ومعلمي فن الجلادين والتقطيع في الماضي والحاضر والمستقبل. عُرِفَ فن الجلادين في الصين بأنه فن التنبؤ وتحديد المصير. بل وتضمن أيضًا اكتشاف المستقبل. كانت رؤية معلم ذلك الفن هي كيفية تقطيع لحم الجسد لكل إنسان بشكل يشبه مصيره كأنه زهور القدر التي تُقتطَف وتقطع معها حياتها ووجودها. ومن المنطقي أن كل علبة عليها رموز تخص صاحب العلبة أي الجراح نفسه وليس رموزتخص الضحية . لأن الضحايا كثيرون والرموز واحدة تدل على شخص واحد وهو الجراح نفسه. وزُيِّنَ كل صندوق

برموز معينة تحمل مسار حياة سلالة الأساتذة من الجلادين الذين نقلوا علمهم إلى تلاميذهم الذين أصبحوا أيضًا أساتذة فيما بعد. وقد أضاف كل منهم إلى ذلك الفن ما جعله يُثبِت وجوده. زُيِّنَ الصندوق الذي تسلمه "شي شياو" بالرموز التالية:

暗黑

وهذا ما يعني: ظلام.

أدرك "شي شياو"، قبيل مطلع الفجر وهو يرى جسد حبيبه الدامي، الجانب المظلم من فقدان حُبه واختنق من الفكرة فتوقف عن الشق وقد خنقته العبرات.

- ماذا هناك يا صديقي؟

قالها "بيير كلايس" الدامي والذي فقد القدرة على الحركة بالرغم من يقظته. ترك "شي شياو" شفرته وأخذ صندوقه واختفى في الغابة دون أن يستدير للنظر وراءه.

- يا صديقي؟

قالها "بيير كلايس" القابع بجوار الشفرة الحادة وقد تصفى دمه ببطء.

بعثة "كلايس" الاستكشافية الثانية

فبراير 1892 – مايو 1892



"تُقطّعني وقد أحببتك منذ الأزل".

في بداية حياتي المهنية كجزار، كان كل تركيزي على لحم البقر الذي أقطعه،

لكن بعد ثلاث سنوات من الممارسة، لم أعد أرى اللحم لأن عقلي فقط هو الذي يعمل أكثر من عينيّ،

فقد أصبح الأمر معتادًا لكل حواسي...

"تشوانج تسو"



"توما بريل" هو النسل الأخير لأسرة يُعد أسلافها من أصحاب الرؤى والبصائر الممزوجة بالجنون والسحر، حتى إنه قد حُرِقَت إحدى جداته القدامى لكونها ساحرة. وادَّعى جده "جانس بريل" أنه كان يرى في السماء عددًا لا حصر له من المعاطف الزرقاء مثل رداء السيدة العذراء، ذات شكل هندسي ومُقَطَّع ومشتعل عند الأطراف، بدلًا من أن يرى سماءً صافية لا حدود لها. وقد وافته المنية بعد أن تجاوز المائة عام. ظل يصطحب حفيده مرارًا ولأعوام متتالية وكانا

يسيران بمحاذاة الجداول المائية أو في الريف القريب، مشيرًا بإصبعه إلى القمر أو كان يقُصّ عليه حكايات مؤلمة ذات طابع دموي وقصصًا أخرى ذات طابع هادئ وجميل. أُعجِب بها "توما بريل" كثيرًا، حتى إنه احتفظ في ذهنه بذكريات متناقضة: ذكريات قصص الألم هذه بالإضافة إلى الصورة الهادئة لأمسيات الليل الفلمنكية. بعض هذه الذكريات ما زال مختبئًا في جنبات هذه القصص، والبعض الآخر قد اخترق الحدود حتى وصل إلى السحاب وسقطت كدموع مُقدّسة، أو هكذا خُيّلَ إليه.

خلال سنوات صباه، وتحديدًا بعد أن انتهت طفولته، حاول والد "توما بريل"، المدعو "هوجو بريل" أن يجعل من هذا الصبي رجلًا، لكنه فشل وظل هذا الصبي ذو الخيال الجامح طفوليًا، صبيًا لطيفًا، لا يملك لحية، وفقد والدته في وقت مبكر جدًا، وبات عقله وقد غزاه الكثير من الأصوات المتنافرة، حتى إنه ادعى أن الحيوانات خاصة كانت تُكلّمه معلنة له اقتراب نهاية العالم، وأصبح جزارًا كما كان والده يعمل. وأحب الرسم، حتى إنه كان يرسم حياته اليومية والذبائح المعلقة والعيون التي فارقت الحياة وكُتَل اللحوم وأكوام العظام والمخلفات التي يعف عليها الذباب المتطاير الضخم.

كل مساء كان "هوجو بريل" يجلس أمام ألواح خشبية صغيرة وإلى جانبه إبريق نبيذ، وكان يرسم على هذه الألواح بألوان مخملية بعناية. اعتاد أن يرسم على لوحين منفصلين في وقت واحد. وقد ساعده ذلك في هدوء نفسه وتجنب الجنون الذي كان يعانيه بعضَ الوقت. ولكن ذلك لم يَدُم سوى مدة قصيرة. فقد هاجمته الأصوات بشراسة وسرعان ما أصبحت عادة رسم اللوحات الزيتية غير كافية لاحتواء الأصوات الجنونية. حتى إنه في إحدى الأمسيات استسلم "هوجو بريل" لأوامرهم الغاضبة، واستولى على ساطور وقطع خصيتيه فجأة، ثم ألقاهما إلى كلب والده. الكلب، بعد أن التهمهما بشراهة ثم نبح عليه وكأن صوت النباح يقول: "اقتل ابنك!". قاوم "هوجو بريل" الفكرة ورفض رفضًا قاطعًا. لكن كل مساء، منذ ذلك الحين، يعود الكلب المخلّط ليستلقي تحت الطاولة الخشبية الثقيلة لمطبخ الأسرة ويهمس له كأنه يأمره قائلًا: "اقتل ابنك! اقتل ابنك!". شعر "هوجو بريل" بالتشتت وطلب من والده التخلص من الكلب، فوافق على إعطائه لأول شخص يريده. وقد أخذ الكلب أحد البحارة العابرين وذهب إلى بحر "أوستند"، متوجهًا إلى أمريكا. بمرور الأسابيع التالية، اختفت الأصوات وعاد "هوجو بريل" إلى رسم اللوحات الزيتية مرة أخرى. وفي أحد الأيام، أُذيعت أخبار تفيد بأن سفينة أبحرت من "أوستند" متجهة إلى "نيويورك" قد غرقت في المحيط الأطلنطي. شعر "هوجو بريل" بهاجس غامض عند سماع الخبر. ثم مرت الأيام.

وفي إحدى ليالي شهر نوفمبر، سمع "هوجو بريل" صوت خربشات عند باب مسكنه. في البداية لم يُعِزه انتباهًا، لكنّ الضوضاء استمرّت حتى أصبحت لا تُطاق. نهض "هوجو بريل" وهو غاضب، وفتح الباب، ولكن الضوضاء كانت قد توقفت فجأة. لم يكن هناك سوى بركة من المياه الخضراء التي خرجت منها آثار رطبة غامضة تؤدي إلى المطبخ. تتبع "هوجو بريل" الآثار. وعندما وصل إلى المطبخ، رأى أن الباب المؤدي إلى الخارج كان مفتوحًا على مصراعيه. وكانت الآثار متوجهة نحو الخارج، فاستمرّ في متابعتها. وفي الخارج تفاجأ برؤيته أن حجم القمر قد تضاعف ثلاث مرات. ولاحظ أن شعاع القمر خرج من السماء فجأة ليصطدم بالأرض عند قدميه مباشرة. ظهر الكلب المُخَلَّط، أو بالأحرى جثته المبللة والمغطاة بعشب البحر. تقدمت جثة الكلب الغريق مباشرة نحو "هوجو بريل" ورفع شعره الميت نحو القمر الذي شهد الواقعة. وعندما وصل إليه، صدر ذلك الصوت البغيض العميق: "اقتل ابنك!".

عُثِرَ على "هوجو بريل" مشنوقًا في اليوم التالي. لم يسمع أحد في أثناء الليل أي ضجيج أو ضوضاء ولم يُعثر ذلك الصباح على بقايا بركة غامضة من المياه الخضراء، ولا عُثِرَ طبعًا على جثة كلب مُخَلَّط ملطخة بالدماء.

تُوفِّيَتْ والدة "توما بريل" بعد ذلك بوقت قصير بسبب التهاب في المبايض، تاركة طفلها الوحيد الذي حمل الأسى والحزن. أدار "جانس بريل" متجر الجزارة العائلي وعلَّم المهنة لحفيده، وظلت جزارة "بريل" أحد أشهر الجزارات في "بروج".

***

بعد وفاة والدته، اعتاد "توما بريل" زيارة كنيسة "الدم المقدس" بانتظام في "بروج" التي تلقَّت بضع قطرات من دم المسيح الذي أعاده "تييري دالزاس" من الأرض المقدسة. لم يكن "توما بريل" يصلي لدم المسيح، بل كان يصلي للوحة "لا بييتا" للعذراء الباكية للرسام المسمى بـ"سيد الدم المقدس" والمعروضة في مُصَلَّى الكاتدرائية. لقد كان الخط الأحمر المُنحدِر من الجانب الذهبي البارد للمسيح يثير شجونه. ذكَّره بالنزيف الذي رآه يسيل على ساق والدته قبل مدة من مرضها. اعتقد في ذهنه أن هذا الدم هو دم المسيح للرسام المُسَمى "سيد الدم المقدس"، وهو الدم نفسه المذكور في قصص جده عن القمر الجريح الدموي.

لم يرَ "توما بريل" أمه عارية من قبل أو أي امرأة أخرى عارية، وتسبب له جهل مصدر هذا النزيف - المختبئ تحت الفستان السميك - في تساؤلات مزعجة وعميقة. بينما كان يصلي للوحة "لا بييتا" الموجودة بمصلى كاتدرائية "الدم المقدس"، دخل في نوع من الغيبوبة رأى فيها - عند

منبع ساقي والدته - جرح المسيح النازف كما رسمه "سيد الدم المقدس"، كان الجرح منحنيًا قليلًا مثل الهلال، وقد خرج منه خط أحمر مستقيم، كما لو كان يهرب من الجاذبية، كالمعجزة. و"توما بريل" لا يزال راكعًا أمام "لا بييتا"، ويتصبب عرقًا من إبطيه وجبهته، ثم رأى الهلال يتوسّع ليصبح دائرة كاملة ثم ينقسم إلى قطعة لحم تسيل منها سوائل حمراء وبيضاء. ثم تملّكه خوف رهيب، خوف طفولي إلى حد الهلع، لا يمكن تخيله، شعر بالاختناق الشديد وعلى إثر ذلك غادر المبنى المقدّس على عجل وترك نفسه لبرودة الهواء الخارجي وانتعاشه.

في أحد أيام شهر مايو، بينما كان يسترخي على حافة جدول صغير للقناة المجاورة للكاتدرائية، أخذت جميع أجراس مدينة "بروج" تدق في الوقت نفسه. وأخذت الحرارة اللطيفة تشع في جسده وشعر بالمتعة الشديدة مع رنين الأجراس، حتى انتابه شعور بأنه يطير عاليًا فجأة فوق مدينة "بروج" وأعلى من برج الجرس في الميدان الكبير، بل إنه يُحلّق أعلى من سحاب فصل الربيع، وبلغ تحليقه درجة أنه دنا من الشمس التي شعر أنها بمنزلة أبيه. قالت له الشمس إنه هو "توما بريل"، ابنها المدلل الذي يستمع لموسيقاه الخاصة من بين كل أنواع الموسيقى، والذي يعيش حياة بين حيوات أخرى، وأنه مثل نصل السكين الذي سوف يكون سبب موته. وهنا انتابت "توما بريل" الحيرة والارتباك، وعندما عاد إلى وعيه على الأرض، وجد سرواله ملطخًا بالمَنِي. ها هو قد اختبر متعة الشبق لأول مرة.

لم يعد "توما بريل" يذهب إلى الصلاة في كاتدرائية "الدم المقدس" كثيرًا مثل ذي قبل. ومرّت السنوات حتى أصبح الصبي شابًا، وبعدما كان مساعد جزار، أصبح جزارًا. وفي عام 1860 كان عمره ثمانية عشر عامًا. كان "جانس بريل" آنذاك في قمة لياقته البدنية، ويدير الجزارة العائلية بنشاط وحرص. عُيِّنَ كاتبان ومن المحتمل أنه سيُوظِّف كاتب ثالث لأن العمل كان يسير جيدًا. كان "توما بريل" ماهرًا في تقطيع ذبائح الثيران. يحب أن يسرح بخياله بين الذبائح لدرجة أنه يرى على السطح الرطب للحوم الذبائح الخطوط التي كان يتبعها وقت الذبح، فقد كان يجيد فصل شريحة لحم الخاصرة عن لحم الصدر، ويجيد فصل لحم المؤخرة عن لحم الساق، وفصل الرقبة عن الخدين. وبدأ يرى العالم بعيني الجزار الماهر الذي يرى قطع مجزّأة ومرتبة وكأنه يرى العالم واضحًا بلا أسرار ومستقرًا بلا اضطراب. أصبح مسيح "سيد الدم المقدس" بعيدًا عن مخيلته ونظرته إلى الحيوانات المذبوحة المُقطّعة نظرة أسمى من كونها ميتة. لقد تمكن من أن يجد لنفسه مكانًا في هذه الحياة مقابل العمل الشاق، وكان يجد الكثير من المتعة في تأمل لوحات والده الذي كان يهوى الحيوانات بشدة. وارتبط بكلبين ضخمين من رعاة الماشية اللذين لم يفارقاه قطُّ وقد أحبهما حبًا شديدًا. ثم في شهر أبريل، التقى "توما بريل" "كامي كلايس".

***

لم تتلقَّ "كامي كلايس" سوى القليل من التعليم، ولكنها كانت تعرف الموسيقى والشعر والرسم، وهو أمر غير معتاد بالنسبة إلى الفتيات من أقرانها في ذلك الوقت. كانت يتيمة وقد ربّتها بعض الراهبات، ثم بدأت عملها في سن الخامسة عشرة خادمةً لدى أسرة فرنسية من "أنجولِم"، تُدعى أسرة "كوانتيه"، والتي حققت ثروة من بيع الورق، وتمكنت العائلة من ابتكار تعديل يقلل من تكلفة التصنيع واحتفظت بسر ذلك التعديل. زعمت بعض ألسنة مروجي الإشاعات في مدينة "بروج" أن أسرة "كوانتيه" قد سرقت هذا الابتكار من أحد مالكي المطابع ويُدعَى "سيشار"، وأنها تسببت في إفلاسه عن طريق الاحتيال. وعلى كل حال، لم تنل منهم تلك الشائعات، فقد كانت أسرة "كوانتيه" غنية. ورحبوا بخدمات "كامي كلايس" بأكبر قدر من الود. فقد علموها الفرنسية وعلموها طريقة غير شائعة للطهو في "فلاندر". اكتشفت "كامي كلايس" - تلك الفتاة ذات الأحاسيس المرهفة - في نفسها موهبةً للطهو وذوقًا خاصًا بها. وسرعان ما أتقنت طرق إعداد سجق اللحم وطهوه، ويخنة "سانتونجيز" المضاف إليها اللحم المقدد. أتقنت أيضًا إعداد الكرشة بطريقة "أنجوموازين" وطهوها. كانت أسرة "كوانتيه" متمسكة بأصولها القديمة وكانت تشتري اللحوم من جزارة "توفري" التي يديرها زوجان من "نانت". كانت "كامي كلايس" تذهب إلى هناك كل اثنين وخميس لشراء الخنزير أو اللحم البقري أو لحم الضأن أو الدواجن وتخزينهم، وفقًا لوصفات الأسبوع.

في ذلك العام، وفي وقت الاحتفال بعيد الفصح، احتفلت أسرة "كوانتيه" بتعميد ابنهم الأصغر ودعوا لهذه المناسبة العديدَ من أقاربهم من فرنسا. وقد خطَّطت السيدة "كوانتيه" أن تطهو لضيوفها طاجنًا من لحم الخد البقري مع الأنشوجة. وفي الأسبوع الذي سبق الاحتفال، ذهبت "كامي كلايس" لطلب ثمانية كيلوجرامات من الخد الطازج من عند السيدة "توفريه". وطلبت منها السيدة "كوانتيه" التي أصرت على لحم ذي جودة عالية موضحة أنه إذا لم يكن محل جزارة "توفري" لديه القدرة على تزويدها بمثل هذه الكمية في التاريخ المذكور، فإنها سوف تختار وصفة أخرى، كإجراء احتياطي. إلا أن السيدة "توفري" أكدت أنها ستحصل على لحم الخد الطازج في الموعد المحدد. وحينما مرَّت "كامي كلايس" لتسلُّم الطلب كما جرى الاتفاق، وعادت إلى منزل "كوانتيه" لبدء إعداد الطعام. وبمجرد دخولها المطبخ وارتدائها مئزرها، اكتشفت خلط لحم الخد بقطع من لحم الفخذ. ويبدو أن جزارة "توفري" قد فشلت في الحصول على ثمانية كيلوجرامات من الخد المطلوبة، فدَسَّت بعض القطع من الفخذ خفيةً للوصول إلى الوزن المطلوب. أبلغت "كامي كلايس" ذلك للسيدة "كوانتيه" التي غضبت من ذلك

نظرًا إلى حرصها على تقديم خدمة مميزة في متجرها. فهُرِعَت إلى "توفري" متذمرة وفضحت الأمر، وقد بدا غضبها من صوتها المرتفع وعينيها المنتفختين. ثم ذهبت إلى الجزارة المنافسة لهم وهي جزارة "بريل" حيث اشترت ما يكفي من لحم الخد لاستكمال الكمية الناقصة. أدى ذلك إلى نجاح طاجن عيد الفصح، إذ إن لحم جزارة "بريل" كان أفضل من لحم جزارة "توفري"، وللمفارقة فإن سعره أيضًا كان أفضل. ومنذ ذلك الحين، أصبحت أسرة "كوانتيه" تشتري اللحوم من جزارة "بريل".

كان "توما بريل" نحيفًا وشاحبًا وله شعر أسود فاحم، كان يبدو طفوليًا وشارد الذهن، شفتاه كشفتي فتاة وعيناه ناصعتان للغاية. شعرت "كامي كلايس" بالإعجاب تجاهه، وحينما كانت تذهب أيام الاثنين والخميس من كل أسبوع للجزارة، كانت تهتم بنفسها أكثر من المعتاد، فتمشّط شعرها الذهبي بعناية، وتعطّر نفسها ببضع قطرات من العطر الذي قدمته لها السيدة "كوانتيه" في عيد الميلاد المجيد. وبانتهاء الربيع وحلول الصيف بدا على "توما بريل" الشرود الدائم وغارت عيناه حتى أصبحت نظرته كالذئب. وفي أحد الأيام رأته في الجزء الخلفي من متجر الجزارة يتصبّب عرقًا في قميصه وكان يذبح خنزيرًا مُعَلَّقًا ويجمع الدم الأسود الذي كان يخفقه كخفق الكريمة. وعندما اعتدل، كانت يداه الذكوريتان ووجهه الطفولي ملطخين بالدماء. لدى رؤيتها هذا المشهد، شعرت "كامي كلايس" بحاجة شديدة إلى احتضان جسد "توما بريل" حتى يصيرا كجسد واحد. واصلت طريقها وهي في شديد الارتباك وقد أزهرت حولها العديد من زهور فصل الصيف وخبأت الحجارة القديمة للمدينة العديد من أسرار الحب الطائش التي شهدتها في أوقات أخرى.

اهتمَّت "كامي كلايس" بـ"توما بريل" بدافع الحب حتى تحول هذا الحب إلى حالة من الهَوَس بالشاب. انتابها هاجس من أن تكون له عشيقة أو ربما أسوأ من ذلك، أن يكون مرتبطًا بفتاة ما، وهي التي لم تفكر في هذا الاحتمال من قبل. هذه الأفكار جعلتها تتنهد دون أن تحاول إخفاء ذلك، فسألتها السيدة "كوانتيه" عن سبب هذه التنهيدة - وكانت تساعدها في تحضير طاجن اللحم - وكانت تُكِنُّ لها الحب، فلم تستطع "كامي كلايس" أن تخفي عنها الأمر وأخبرتها عن حبها بخجل وأشعرها ذلك بالراحة.

- يا سيدتي، أنا أحب الجزار الشاب "بريل"، ولا أفكر إلا في أن تصير أجسادنا كجسد واحد.

ضحكت السيدة "كوانتيه" فردَّت عليها قائلة:

- أتسخرين مني يا سيدتي!

- لا أسخر يا "كامي".. أنا سعيدة من أجلكِ، فأنتِ الآن في سن مناسبة لهذه الأمور، وأتمنى أن تحدث لكِ قريبًا.

- ولكن يا سيدتي هو بالكاد يلاحظ وجودي، ربما يكون خاطبًا؟ ماذا أفعل؟

طمأنتها السيدة "كوانتيه" التي كانت تعرف القليل عن أسرة "بريل"، فـ"توما بريل" ليست له أي تجارب سابقة للحب، فهو عذري مثلما هي عذراء أيضًا. لكنها حذّرتها مما يقال عن أسرة "بريل"، وأنهم سلالة من الرجال غريبي الأطوار، فهم يخضعون للأصوات والرؤى كما يُروى عنهم، حتى إن الأب قد قطع أعضاءه التناسلية بنفسه بعد مرور بعض الوقت من خضوعه لهذه الأصوات والرؤى. وأشيع عن "توما بريل" أنه قد شُوهِد عدة مرات مضطربًا ومنتشيًا، بالقرب من كاتدرائية "الدم المقدس".

- كل هذا يزيد من إعجابي به يا سيدتي!

- في هذه الحالة يا "كامي"، عليكِ أن تخبريه بشعوركِ وبرغبتكِ.. عليكِ أن تخرجي عن المألوف في حالتكِ.

لم تنم "كامي كلايس" طوال الليلة التالية. أخذت تتقلّب في سريرها، ثم خارت قواها بحلول الصباح بعدما كتبت على ورق مُعطّر من تصنيع "كوانتيه"، رسالة مُوجّهة لـ"توما بريل". وقرّرت أنها ستوصلها إليه في اليوم التالي. تركتها السيدة "كوانتيه" نائمة حتى الظهر. وبحلول اليوم التالي الموافق لأول خميس من شهر يوليو، أعطت الجزارَ الشابَّ ظرفًا أزرق - لا يحمل اسمًا أو عنوانًا - وهي ترتجف وتشعر بالتوتر وقد أعطته في الوقت نفسه مقابل شراء كيلوجرام من الكرشة ولسان من اللحم البقري وعشر قطع من لحم الضأن، فأخذه بيديه النحيفتين البيضاوين الملطختين بقليل من الدم، ووضعه في جيب مئزره السميك. وعند حلول المساء، عندما أُضيئت الشموع ونام كلباه اللذان يرعيان ماشيته عند قدميه، فتح "توما بريل" الظرف الأزرق الصغير وأخرج الورقة المعطرة من صناعة "كوانتيه" وبدأ على الفور في قراءة كلماته التي كُتِبَت بيد مرتجفة من الأرق والرغبة، وكانت فحواه:

"سيد بريل،

لقد شغلْتَ تفكيري منذ الربيع. أرغب في تقبيلك وفي وحدة أجسادنا معًا. أود أن أذوق طعم شفتيك، إذا كنت ترغب في ذلك سأكون سعيدة أيضًا. إذا شعرتَ أن متعتك يمكنها أن تتحقق من خلالي، فقابلني يوم السبت في الخامسة عند برج الجرس.

مع حبي،

كامي كلايس".

تملَّك القلق "توما بريل" حتى إنه قرأ الرسالة عدة مرات، ثم قام وشرب الكثير من الماء، ثم تبوّل وتحسس الكلبين الكبيرين، وجلس والورق المعطر لا يزال في يديه. وتذكر قبل عدة سنوات عندما شعر بتلك المتعة التي لم يجرب مثلها، عند مخرج كاتدرائية "الدم المقدس". أصابه الرعب من رغبته وقد كانت بالنسبة إليه الأثر المادي في هذا العالم لحياة الآخرة التي يراها في رؤاه، وتأكيدًا لصحة قصص جده عن الحليب والقمر والدم، وترسيخ لحالة الفقد والهجر التي حرمته من والديه والتي جعلته يحمل السكين ويذبح الحيوانات كل يوم. ومنذ سنوات مراهقته الأولى فقد كرَّس معظم طاقته لإسكات رغبته والاحتفاظ بسائله المنوي بداخله، حتى إنه لجأ إلى ارتداء قميص الرهبان المصنوع من الشعر لكبح جماح رغباته.

بعد عدة سنوات من العمل والصلوات الوثنية التي بدت مجنونة بالنسبة إليه، تمكَّن من حبس رغباته في إحدى زنزانات روحه. لكنَّ الوضع تبدَّل الآن، لقد أحيت رسالة "كامي كلايس" هذه الرغبة ألفَ مرة، فها هو قد استرعى إعجاب "كامي كلايس" ذات الستة عشر ربيعًا وذات البشرة المغطاة بالنمش. والآن خرجت تلك الرغبة بقوة بعد أن حاول إنكارها بكل كيانه وإبقاءها بقوة في هذا العدم. إلا أن هذا الإنكار قد انهار فجأة كانهيار السد الفائض بالمياه، وتدفقت الصور تباعًا في ذهن "توما بريل"، وتخيل ساقي "كامي كلايس" مرورًا بردفيها، وكأن موضع التقاء ساقيها جرح يشبه الجرح الهلالي للمسيح في لوحة الرسام "سيد الدم المقدس". ومن نزيف هذا الجرح انسابت معه كل أحزانه على والده الذي انتحر ووالدته التي انساب دمها القاتم من الداخل وتداعت له كل الرؤى التي اخترقت أعماق الزمان والمكان وقد عصفت بها الأخطاء. وأثارت الرؤى مخيلته؛ حتى إنه رأى العذراء وقد تشوَّهت لوحتها بالمزيد من الاضطراب والصخب، وانتابته الرغبة الحيوانية في "كامي كلايس" ورغب بشدة في مضاجعتها. وانتابه الألم وهو يتذكر شقاء حياته الدائم وشعوره بالعجز تجاه جسد والده المشنوق. علت الهموم على كاهل "توما بريل" حتى إنه جثا على ركبتيه وانخرط في البكاء محتضنًا فراء كلبيه الكثيف.

في المساء التالي، استغرق "توما بريل" في التأمل في لوحات والده. وجد في ذلك ضالته ببعض الراحة التي ينشدها. ببساطة شديدة، كان "هوجو بريل" قد قدَّم في لوحاته الأمور العادية في حياته اليومية مثل طاولة العمل وشفرات الذبح والذبائح المرسومة بالزيت ببعض التفاصيل الدقيقة، وبعض البريق الأبيض هنا وهناك، الشبيه في قوامه باللعاب الأبيض، وكذا لون السماء الزرقاء الظاهرة في الخلفية من النافذة، مُعلنة عن حقيقة العالم الخارجي بمجده

وحزنه. هذه اللوحات القليلة - التي تبدو متواضعة للآخرين - فتنت عيني "توما بريل"، فهي تمثل بالنسبة إليه ما تبقى من وجود والده. كان "توما بريل" يعتزُّ بشدة بهذه اللوحات. ما إن اطلع عليها حتى شعر أنه بين أيدٍ حانية، بعيدًا عن شقاء حياته المضطربة. كانت تلك الأيدي الحانية تحمل له محبة الوالد وعزاءه في هذه الحياة التي لم ينل منها سوى العزلة والتفكير في الموت. انتاب "توما بريل" الشعور باقتراب نهايته وبقرب لقائه مع والده وتوحُّد جنونهما كأنهما يعيشان في جسد واحد لا يمكن فصلهما عن بعضهما، فقد اشتركا في الوجود بين جنبات هذا العالم المرسوم باللوحات الزيتية اللامعة السائلة المجيدة، وأمام طاولة عمل والده التي أصبحت ملكه الآن، شعر "توما بريل" بحقيقة هذا الارتباط الذي سيقوده بالتأكيد نحو نهايته كما قادت والده إلى نهايته. وبالرغم من غموض "هوجو بيرل" للآخرين فإنه كان في غاية اللطف والحب بالنسبة إلى ابنه.

كان الدافع الوحيد وراء زواج "هوجو بريل" هو تبادل المصالح بين عائلتين ثريتين من "بروج". كانت زوجته تحتقره. كانت علاقتهما الحميمة التي نادرًا ما تحدث - مهينة ومؤلمة لكليهما - ومع ذلك أثمرت طفلًا شديد الشبه بوالده، كلما ازداد تشابهه بوالده كل يوم، خابت آمال والدته. "هوجو بريل"، ذلك الرجل الذي تسببت رؤاه وجنونه في نبذ الآخرين إياه وفي فقدانه متع الحياة، لم يُكِن له أحد حبًا إلا ابنه الذي استمر بشكل نقي ومتواصل. وكان حبه بمنزلة المواساة له في حياته، وكلما شعر بنفسه يغرق، شكر الله على هذا الضوء المتمثِّل في ابنه الذي كان بمنزلة طوق النجاة من الغرق. لذلك، عندما أدرك أنه سيذهب مع هلوساته واضطراباته بلا عودة، أراد تخليد هذا الحب وبدأ برسم نفسه مع ابنه جنبًا إلى جنب وفي وقت واحد. وحينما أوشك أن ينتهي من هذه الرسمة المزدوجة، جاءه ذلك الشبح المُهَجَّن يطرق بابه مساءَ يوم وفاته. أراد أن ينقل كل شعور حُبه في تلك اللوحة الزيتية قبل أن ينتحر، وأراد أن يتفوَّق على الشيطان الذي أراد عكس ذلك. لم يُمهِله القدر لإتمام هذا العمل الذي اعتقد "توما بريل" أنه ثمرة رؤى مجنونة. ويبدو أن "توما بريل" لم يكن على دراية بإرث والده من اللوحات، واستمر في تفحُّص لوحاته الأخرى بعناية وبعاطفة شديدة، تبوح بحبهما لبعضهما.

***

لم يأتِ "توما بريل" في الساعة الخامسة يوم السبت أسفل "برج الجرس" في الميدان الكبير "جراند بلاس" في "بروج"، حيث كانت "كامي كلايس" تنتظره، كان شعرها مُصفَّفًا بعناية بمساعدة السيدة "كوانتيه" وتفوح منها رائحة العطر. واصطبغت خدودها باللون الأرجواني من طول الانتظار. كانت الفتاة تأمل قدومه طوال المساء في حين انتشرت أشعة شمس الصيف

الذهبية على المدينة ونال المارة قسطًا وافرًا منها، خاصةً من لم يكن لديهم مناسبة ما، عادوا إلى منازلهم الرحبة والدافئة تملأهم المحبة والكثير من الأسرار والأحلام التي تخبئها الأغطية الوثيرة.

ومع حلول المساء، ذابت "كامي كلايس" من الألم في فستانها الشاحب إذ أدركت أن "توما بريل" لن يأتي، فقد انتظرت ما يقرب من أربع ساعات. أصابها الضجر من هذا العالم ومع ذلك، لم يخلُ الأمر بالنسبة إليها من بعض الواقعية. وانتابها هاجس أن المرء قد يستسلم للفراغ القاتل. وفي طريق عودتها، وبمحاذاة الجدول الهادئ المؤدي إلى منزل أسرة "كوانتيه"، هاجمتها آلاف الأفكار المذعورة، كان أكثرها إيلامًا وجرحًا لها وكأنها طعنة غادرة هي أنها صرَّحت بشعورها وجعلت من نفسها مصدر سخرية لانصياعها لرغبات جسدها الحسية، ولأنها أحبَّت بجنون رجلًا مجنونًا ولاعتقادها لحظةً أنه من الممكن - في هذه الحياة - أن يعبِّر المرء عن نفسه بكل صراحة. وفي وقت متأخر من الليل، وجدت السيدة "كوانتيه" "كامي كلايس" تبكي في سريرها الصغير في غرفة الخادمة الخاصة بها. كان الحزن يعتصرها بشدة، حتى إن السيدة "كوانتيه" تأثرت بهذا المشهد وأرادت أن تسرِّي عنها لتخفف عنها أحزانها. جلست إلى جانبها وأسندت رأسها إلى حِجرها، واحتضنتها وواستها كابنتها التي لم تنجبها.

تجنبت "كامي كلايس" الذهاب إلى جزارة "بريل" في الأسابيع التالية. شعر "توما بريل" بالارتياح في البداية. ازداد انغلاقه على نفسه باستثناء كلبيه الوفيين راعيا الماشية وازدادت لحظات تأمله في لوحات والده. على الجانب الآخر، انغمست "كامي كلايس" في قراءة روايات السيد "دي بلزاك" بشغف، إذ وجدت فيها الكثير من التأملات الحالمة التي خففت عنها ملل حياتها الذي لا يُطاق، حتى إنها توهَّمت أنها أدركت سرَّ وجودها في هذه الروايات.

***

بدا بعد ذلك أن الشاب والشابة لن يرى أحدهما الآخر مرة أخرى. ولكن مع مجيء شهر أغسطس الذي ربما يكون أكثر الأشهر ثقلًا على الإطلاق، عادت إلى "كامي كلايس" رغبتها. عادت بإلحاح، حاولت ألا تلقي بالًا وتدير عن فكرها الأمر برمَّته إلا أنها فشلت واستسلمت. وفي إحدى الليالي، أصاب جسدها الارتجاف والاضطراب، استسلمت لجنونها وخرجت بصمت من سريرها.

خرجت تتسلل من سريرها ومن منزل أسرة "كوانتيه" بقميص نومها وتسللت خارج الحديقة، وحرصت على ألا تصدر البوابة الحديدية القديمة صريرها، وأسرعت الخطى بمحاذاة القناة

النائمة في ظلمة الليل في حين أعلنت دقات برج الجرس عن انتصاف الليل.

عند وصولها إلى متجر جزارة "بريل"، وجدت الباب الخلفي مواربًا، وهذا ما سمح لها بالرؤية من بين الألواح الخشبية ما يشبه وهج الشمعة. اقتربت في هدوء وحبست أنفاسها، وألقت نظرة قلقة على المساحة الصغيرة المتاحة. رأت مشهدًا أثَّر بشدة في أعماق قلبها. كان "توما بريل" جالسًا بين شفراته وأدواته يتفحَّص في صمت لوحة غريبة تحمل ملامح المكان نفسه؛ جزارة "بريل" بكل تفاصيلها غير أن "توما بريل" ليس في اللوحة. بدا منهمكًا في تأمل غيابه عن اللوحة. وإلى جواره كلباه راعيا الماشية داكنا اللون الجالسان في وفاء وأدب يتتبعان نظراته اللامعة الحزينة. رأت "كامي كلايس" دموعًا تنهمر من عيني "توما بريل" وتسيل على طول خديه الشاحبين حتى تلامس شفتيه الورديتين. وضع أحد الكلبين قدمه على ساق سيده كنوع من المواساة، وتنهَّد الآخر بألم. لم ترَ "كامي كلايس" مثل هذا الكم من الشعور في عيون أي كلب من قبل. بدا لها أن أحد الكلبين يحمل في داخله أسرار الماضي، والآخر يحمل أسرار المستقبل. وفي أعينهما - للحظة - رأت نفسها دون أن تعرف أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ.

جثا "توما بريل" على ركبتيه وبكى ودفن وجهه في فرو كلبيه. كان هذا المشهد كافيًا ليسلب مقاومة "كامي كلايس" لنفسها وفتحت باب الجزارة واتجهت نحو "توما بريل" المستغرق تمامًا في أحزانه. رآها الكلبان ولكنهما لم يتحركا. وعندما وصلت إليهما رفعت "كامي كلايس" رأس "توما بريل" ودفنت رأسه أسفل بطنها حيث تكمن أسرارها العذرية تحت قميص نومها. ظل "توما بريل" يبكي ثم افترشا طاولة العمل في متجر الجزارة، ولم يشعرا بنفسيهما إلا وهما يلهثان وهما عاريان، تبادل "توما بريل" و"كامي كلايس" قبلاتهما وذاقا طعم شفاههما ووحدا أجسادهما، ثم غرقا في سبات عميق.

عندما استعاد "توما بريل" وعيه، كانت "كامي كلايس" لا تزال نائمة، عارية تمامًا على طاولة التقطيع. نظر بلا حياء إلى هذه البطن الشقراء أمامه. وعلى ضوء أشعة النهار الأولى، رأى "توما بريل" فرج "كامي كلايس" الذي سال منه سائله المنوي مختلطًا بدم عذريتها. هالته الصدمة أمام هذا المشهد وتسمَّر في مكانه ما يقرب من دقيقة. ودونما تفكير، ارتدى ملابسه وخرج في الهواء الطلق في الصباح الباكر وذهب إلى كاتدرائية "الدم المقدس" يملؤه الحزن والأسى والشغف. وهناك، وفي ظلام المُصَلَّى، وجد لوحة "لا بييتا" لـ"سيد الدم المقدس" فجثا على ركبتيه أمامها ناسيًا نفسه، يتلو صلوات مضطربة ومبهمة.

ظل يطارده مشهد فرج "كامي كلايس" الدامي بإلحاح على ذهنه وبتسارع كالدقات المتتابعة بشكل لا يمكن تحمله. لم يتمكن عقله من التسامح مع مشهدها وهي ممددة، انتابه شعور

بالقسوة الشديدة تجاه نفسه وهو الذي لم يرَ نفسه مرسومًا في لوحة والده. مرّت المشاهد في ذهنه متتابعة فهو يرى القمر جريحًا مثل جرح المسيح، ويرى فم الأخطبوط الذي جاءه به أحدهم من ميناء "أوستند" لجزارته، انتابه التفكير بتوتر كيف أن هذه الكائنات الجيلاتينية الغريبة التي تتقيأ اللبن والدم الذي طالما سمع عنه في قصص جده. مشهد الفزع العاري والسائل بالمني لا يمكن تحمله، فقد انتابه فزعٌ لم يشهده من ذي قبل حينما قام من نومه من ورائها، وشعر بالأسف تجاه كلبيه واعتذر لهما عما فعل. هو يعلم جيدًا أن "كامي كلايس" قد قدّمت جُلّ ما تقدمه المرأة للرجل، قدّمت له أعز أسرارها، سرها الخاص الصغير.

وما إن غادر الكاتدرائية حتى رأى الشمس تسطع عاليًا في السماء، ووجد إلى جانبه كلبيه اللذين كانا يبكيان بدموع ساخنة. سألهما صارخًا:

- ممَ تبكيان؟

فأجابا:

- نبكي من أجلك، ومن أجل والدك ومن أجل ابنك. نبكي على الجميع، نبكي على الموتى.

- ألا يمكن التخفيف عنكما؟

- ليس بعد الآن.

اتجهت أنظار "توما بريل" نحو الشمس. تراءت له الشمس كوجه أبيه الذي كان يمضغ خصيتيه المقطوعتين بيديه. أراد "توما بريل" أن يحتضنه بين ذراعيه. كان يبكي. "آسف! آسف!" إلا أن والده أبدى تذمره ولم يبدِ تعاطفه مثله مثل ملك الألم المستعد لالتهامه، مثل الوحش الشرير. تراءى له والده محمومًا بشدة. كان جافًا لدرجة أن دموع "توما بريل" انجذبت إليه مثل المعدن السائل بواسطة مغناطيس من النار، تطير من عينيه أفقيًا وتدخل إلى فم الشمس. ابتلّ "توما بريل" في تلك الليلة، وكأن والده شديد الجفاف سيتغذى عليه حتى يتبخر وسيتحول كلاهما إلى زئبق بشري رمادي. نبحت كلاب رعاة الماشية وكشّرت عن أنيابها واقتربت. تعالى صراخ "توما بريل" ولكن لم يسمعه أحد، لأنه كان مرتفعًا جدًا في السماء.

***

استيقظت "كامي كلايس" في متجر الجزارة الفارغ. سمعت "جانس بريل" الشيخ يسعل في الطابق العلوي. خجلت من كونها عارية بهذه الطريقة، وهربت تجاه منزل أسرة "كوانتيه" وأغلقت الباب الذي راقبت من خلاله "توما بريل" في اليوم السابق. وحينما وصلت إلى منزل

أسرة "كوانتيه" في وقت مبكر، كان لديها من الوقت ما يكفي للاغتسال وارتداء ملابسها وبدء العمل في الموعد المحدد. لم تقابل "كامي كلايس" أحدًا في طريقها.

انتابها قلق شديد طوال اليوم وظل عقلها يُحلّق بعيدًا، تذكرت ليلة حبهما، وتذكرت أحلامها المرجوّة وارتجف جسدها من الإثارة عند التفكير في لقائهما مرة أخرى. وكان اليوم رائعًا في الخارج كأن الصيف يحتفي بها وبجمالها وبشبابها وبتجربتها. كان السحاب يمر في هدوء مع صوت هامس لحركة أوراق الشجر الموجود على ضفتي الجدول المائي شبيهًا بالهمس، وهذا ما يبعث على الراحة والتوافُق في ليلة صيفية تغلفها رائحة الورد المليئة بالأسرار وأحلام اليقظة.

وقبل موعد العشاء بقليل، عادت السيدة "كوانتيه" ببعض المشتريات. عندما رأتها "كامي كلايس"، شعرت بأن خطبًا جللًا قد حدث. توجهت السيدة "كوانتيه" نحوها دون أن تضع المشتريات التي كانت تحملها على الأرض. بدت عيناها تفيضان بشيء ما. لم يكن لدى "كامي كلايس" الوقت لتخمين المزيد. أخبرتها السيدة "كوانتيه" المصدومة، في نَفَسٍ واحد أن "توما بريل" قد قطع حلقه بإحدى سكاكينه، وقد عُثِرَ عليه ظهرًا وقد فقد الكثير من الدماء، في الغرفة الخلفية لمتجر جزارة "بريل". أصيبت "كامي كلايس" بالهلع الشديد وفقدت وعيها على الفور وارتطمت بالأرض، وجُرِحَتْ جبهتها جرحًا كبيرًا.

وعلى الفور استُدعي الطبيب الشاب "فاندر دورب". حملت السيدة "كوانتيه" "كامي كلايس" إلى سريرها الخاص وكانت قلقة للغاية حينما بدت الفتاة وهي تكافح من أجل استعادة وعيها. بل إن الأسوأ من ذلك أنها قد أفرغت ما في بطنها مرتين، وهذا ما ينذر بصدمة شبيهة بالارتجاج في الرأس. خاط الطبيب "فاندر دورب" الجرح بمهارة وإتقان وطمأن السيدة "كوانتيه". ثم استيقظت "كامي كلايس" بعد ليلة من النوم العميق ووافق الطبيب على البقاء لتناول العشاء. ومع أن الجميع حاولوا تجنب ذكر ذلك الأمر مرة أخرى، فإن طريقة الانتحار الرهيبة ما زالت ماثلة في أذهان الجميع في ذلك المساء. وتناهى إلى مسامع الطبيب "فاندر دورب" من السيدة "كوانتيه" أن الفتاة الصغيرة كانت على علاقة حب مع الشاب المنتحر.

- سيدتي، بالنسبة إلى فتاة في حالة حب شديد في هذا العمر، يمكن أن تؤدي المأساة الواقعة إلى عواقب وخيمة، أرجوكِ لا تترددي في الاتصال بي إذا جدّ أي شيء.

اطمأنت السيدة "كوانتيه" إلى حد ما لاستطاعتها الاعتماد على كفاءة الطبيب الشاب المِهنية واهتمامه. وفي اليوم التالي، استيقظت "كامي كلايس" مع شروق الشمس.

بقيت "كامي كلايس" صامتة في البداية، تحاول أن تبتسم في وجود السيدة "كوانتيه" التي

لم تتوقف قطّ عن حثها على أخذ قسط من الراحة وخفّفت من عبء عملها قدر استطاعتها. وبحلول سبتمبر، أخذت أضواء المدينة شكلًا جماليًا مريحًا للأعين.

كانت "كامي كلايس" ومدام "كوانتيه" يوم الأحد تذهبان للتنزه خارجَ أسوار المدينة، كانت نزهاتهما على طرق ريفية واسعة وممتدة حتى نهاية الأفق، وآثر كلاهما الصمت وهما يتأملان أشعة الشمس الذهبية. تلا ذلك فيما بعد بعض التدهور الذي أصاب صحة "كامي كلايس" فأصبحت تصيبها نوبات من التعب والغثيان والدُوار. وأصيبت بحالة مزاجية مُقلِقة للغاية، ما بين الغضب والقلق. وفي مساء إحدى الليالي، خلال نوبة بكاء، أفصحت "كامي كلايس" بكل شيء للسيدة "كوانتيه" وهي تبكي بحرقة. واستطردت قائلة:

- سيدتي، لقد قتلتُ الشاب الجزار "بريل"! في الليلة التي سبقت وفاته، ذهبتُ إليه والتقى جسدانا وذقنا طعم شفاهنا، وأغمى على كلينا من شدة المتعة، وفي اليوم التالي قتل نفسه بذبح حلقه كما يفتح حلق أي خنزير! أعلم أنه لولاي، ولولا رغبتي الجامحة ولو لم يضاجعني، لم يكن ليموت! كل هذا خطأي!

اتصلت السيدة "كوانتيه" بالطبيب "فاندر دورب" على الفور الذي أكد حمل "كامي كلايس" البالغ نحو ستة أسابيع.

***

تخرَّج "فيلياس فاندر دورب" وهو النائب السابق بمستشفى "سان بيير" ببروكسل حديث تخرج ثم عُرِضَ عليه العمل في مستشفى "سان جون" في "بروج" الذي وُسِّع مؤخرًا، ولذلك نُقِلَ إلى مبنى قوطي جديد من الطوب الأحمر الداكن شديد التحمل لأشعة الشمس وكانت الحياة تبتسم له، فقد كانت سمعة الطبيب الشاب ممتازة، وهذا ما جعله مصدر ثقة شديدة في أوساط العائلات الغنية بالمدينة. عاش "فيلياس فاندر دورب" حياة جادة وشريفة وهادئة، واستعدَّ لجني ثمار عَقد من الدراسة والعمل الجاد. ولم يعرف الحب من قبل.

أصرَّت السيدة "كوانتيه" على أن يتولى الطبيب "فاندر دورب" متابعة حمل "كامي كلايس" وليس أي طبيب آخر. وقد كان يأتي بانتظام لفحص المريضة الشابة ويبقى معهم لتناول العشاء، مستمتعًا بوجبة لحم الضأن الذي تعده السيدة "كوانتيه"، والمُزيَّن بالمكسرات الشهية والصنوبر، أو ثعبان البحر المطهو بالنبيذ الأحمر و"الكونياك".

أصرَّت أسرة "كوانتيه" على أن يقضي معهم الطبيب "فاندر دورب" عشية عيد الميلاد المجيد، وهنا لاحظ لأول مرة بشرة "كامي كلايس" المليئة بالنمش والمثيرة بالنسبة إليه. كان كثيرًا ما

يجلس وحده مع الفتاة، وخاصة مع خصوصية الفحص الطبي للنساء، ولكنه لم يفكر فيها قطُّ حتى ذلك الحين إلا بالطريقة الصارمة المهنية التي كان يلتزم بها مع مرضاه والتي اعتبرها نقطة شرف تجاه مرضاه. بدت له "كامي كلايس" هذا المساء مختلفة تمامًا، فكان جسدها شديد الإثارة والدفء والنعومة. كان منجذبًا إلى شكل يديها واستدارة نهديها وانتابه الشعور بأنه يريد تقبيل جسدها الغض وتقبيل بطنها المنتفخ التي تشي بالحياة والحنان والحب. وخلال قداس منتصف الليل، إذ كان جالس خلفها، لم يستطع أن يرفع نظره عن مؤخرة رقبتها -التي كشفت عنها كعكة شعرها الذهبي. ووسط روعة المعمار الكاثوليكي لكاتدرائية "القديس المُخَلِّص" في مدينة "بروج"، في تلك المساحة الهائلة من الحجر والزجاج، وتحت أضواء الشمعدانات الحافلة التي تروي النور المنبعث من حلق الإنسان ووسط إدراك الحب الأبدي اللامحدود أدرك "فاندر دورب" أن قلبه يمتلئ حبًا ورغبةً تجاه "كامي كلايس".

لم يكن على "كامي كلايس" الصغيرة واجب الالتزام بالحداد تجاه الحبيب الذي غرق في مياه النسيان المُعتِمة، فلا تتذكره إلا في أحلامها فقط، وفي الكثير من المواقف في حياتها اليومية إلا أنها رأت الحب والرغبة في نظرة الطبيب الشاب التواق إلى حبها. عندما ينظر إليها من الآن فصاعدًا، بلحيته الشقراء الناعمة، وفمه الشاب الرقيق، ووجنتيه المجوفة التي أثارت الحب في جسدها. لقد مارسا الحب في صباح بارد من شهر يناير في حين أعدت السيدة "كوانتيه" في المطبخ فطائر صغيرة من دم الدجاج والبصل المطبوخ الصغير. بدت السماء وكأنها ارتفعت فوق مدينة "بروج"، أعلى من أي وقت مضى كما لو كانت ستصل إلى الشمس وتجلبها إلى هذا العالم. وكأن ليلة مضاجعتهما أشبه بإيقاظ لذلك الجنين النائم الذي سيُطلَق عليه اسم "بيير"، والذي سيموت في الكونغو بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا، من الغضب والبكاء، مهجورًا في ذلك العالم الحزين اللامحدود للظلمة القادمة.

وصلت "كامي كلايس" و"فيلياس فاندر دورب" إلى الشعور بالنشوة في الوقت نفسه، وكأنهما ارتبطا برباط مقدس أبدي. دقَّت أجراس برج الجرس معلنة الساعة الحادية عشرة.



في 8 يونيو 1891، على رصيف ميناء "ليوبولدفيل" النهري، في ظل الفجر البارد، راقب "فيلياس فاندر دورب" ثلاثة عمال من قبائل الـ"بانتو" يُنزِلون جسد ابنه الهامد من سفينة بخارية. ووُضِع الجسد في عربة يجرها حماران قويان ونُقِلَ على الفور إلى المستشفى الأوروبي للطبيب "دريبونت". تتبع "فاندر دورب" القافلة بخطى بطيئة، مختلسًا النظر تجاه الغموض الذي يحيط بالشخص الذي نُقِلَ ملفوفًا بشرائط شاش على طريقة المومياوات المصرية القديمة. وللمرة الثالثة في أقل من عام واحد، صعد "فاندر دورب" رصيف ميناء "ليوبولدفيل"، من الرصيف إلى المستشفى، ينتابه المزيد من الأسى والحزن والقلق.

والمثير للدهشة أن "فاندر دورب" كانت لديه ذكريات قوية عن عودته إلى "ليوبولدفيل"، قبل أكثر من ستة أشهر بقليل. فهو بالكاد تعافى من الغيبوبة التي أغرقته فيها حمى "إكواتورفيل" الحادة - بعد جثة الشاب "كلاين" وقبل جثة "بيير كلايس" المُشوَّهة - وقد أُنزِل الجسد من الباخرة التي نقلته على وجه السرعة، ووُضِع على مرتبة من القش على عربة قديمة مربوط فيها ثوران عرِجان. شعر "فاندر دورب" بخيبة أمل لكونه قد تعافى من الحمى وعاد إلى الحياة مرة أخرى بعدما اعتقد أن أوان الموت قد حان، ويبدو أن الأمر قد مر مرور الكرام بلا معاناة، فقد غرق في غيابات النوم المريح، تحت الغطاء المتلألئ للأشجار ذات الورود الحمراء المميزة في "إكواتورفيل". كان هذا وداع الحياة المؤقَّت عن طريق الاستغراق في النوم أحد أجمل الأشياء التي اختبرها، مثل نشوة اللقاء، مثل شفاه "مانون بلانش"، برائحة أنفاسها الدافئة. ومع أنه كان

يصحو بانتظام في مرضه تحت أنظار الطبيب "دريبونت"، وما زال حبيس جسده الذي يكرهه، وتعددت المرات التي يُغلِق فيها عينيه على أمل ألا يصحو مرة أخرى، ومع ذلك فقد عاش "فاندر دورب" في حين لقي العديد من الرجال المحمومين مثله حتفهم، مع أنهم يصغرونه بعشرين عامًا، فإنهم قد ماتوا وهم يستغيثون بأمهاتهم، منهم من كان من بروكسل ومنهم من كان من "أنفير" ومنهم من كان من بحر الشمال المشمس أحيانًا، الممطر أحيانًا أخرى. ويبدو أن القدر يريد بقاء "فاندر دورب"، ومع عودته إلى الحياة، تبادرت إلى ذهنه صورة "كامي كلايس" مرة أخرى يصاحبها ألم عميق لم يستطع الهروب منه ولا حتى استطاع إسكاته. وبالرغم من حياته الفوضوية المليئة بالمغامرات، فقد كان يستعيد مراحل هذه الفوضى واحدة تلو الأخرى، بدءًا من ولادة "بيير" الصغير الذي حمل اسم "كلايس"، لعدم وجود أب له. ثم مغادرته إلى بروكسل في عام 1862، حيث عُرِضَ عليه العمل جراحًا في مستشفى "سان بيير"، وكانت "كامي كلايس" قد سافرت إليه بعد شهر، بشرط أن يتزوجها ويتبنى طفلها. وقد شرع "فاندر دورب" وقتها في إجراءات التبني، إذ إنه كان مرتبطًا بالطفل وقد اكتملت هذه الإجراءات بعد عام. أصبح "بيير كلايس" يحمل اسم "بيير فاندر دورب"، ولكنّ الزواج لم يتم.

قبل خمس سنوات من ذلك، بعد وقت قصير من وصوله إلى إنجلترا مع الشاب "كلاين"، قابل "فاندر دورب" في احتفالية حضرها مساهمون من شركة من "أنفير" التجارية في الكونغو زوجين كان يعرفهما عندما كان شابًا في "بروج" وكانا يترددان أيضًا في ذلك الوقت على أسرة "كوانتيه". كانوا يُدعون "بواسييه" وعندما رأيا "فاندر دورب" انهالا عليه بالأسئلة بصوت أخنف مميز متسائلين: "ماذا حدث لك؟"، و"لماذا؟"، و"مِن أجل مَن اختفيث بهذه الطريقة، تاركًا "كامي كلايس" المسكينة وابنها وحدهما في بروكسل؟". لم يكونا ليلوماه أو ليطلقا عليه أحكامًا جزافية بعد أن أصبح كل ذلك من الماضي. وأخبراه بأن "بيير" الصغير صار شابًا لطيفًا يعمل مهندس مساحة، وأنه وأمه لم يكونا وحدهما في الحياة، بل اعتنت بهما السيدة "كوانتيه" الغالية التي قد قضت نحبها، ولم تتركهما قطُّ. وعلى إثر تلك المقابلة، علم "فاندر دورب" أنه بعد مغادرته، اقترحت السيدة "كوانتيه" على "كامي كلايس" أن تعتني بالمسكن الذي اشترته هي وزوجها في بروكسل وأنه من الممكن لـ"كامي كلايس" أن تعيش فيه هي وابنها. وطبعًا قبلت "كامي كلايس" على الفور بشكر كبير اقتراح هذه السيدة التي اعتبرتها أمًا حقيقية لها، أكثر من أي وقت مضى.

شعر "فاندر دورب" بالارتياح عندما علم أن "كامي كلايس" وابنها لم ينقصهما شيء. سعت السيدة "كوانتيه" قدر استطاعتها، إلى أن تقدم لهما حياة عائلية تليق بالحب الذي تحمله لهما، وكانت تزورهما بانتظام وتدعوهما إلى "بروج" لقضاء عيد الفصح وعيد الميلاد المجيد،

وتدعوهما لقضاء الصيف على الساحل.

حرصت السيدة "كوانتيه" على منح "بيير" تعليمًا جيدًا يسمح له بالوصول إلى الدراسات الجامعية بالرغم من يُتمِه ويُتمِ والدته. انتابت "فاندر دورب" غصة عميقة عندما علم أن "بيير فاندر دورب" قد استبدل اسمه واستعاد اسم والدته في سن الثامنة عشرة، وأصبح اسمه "بيير كلايس" مرة أخرى. وعلى الرغم من صغر سنه، كان يُعتبَر أحد أفضل مهندسي المساحة في بلجيكا.

وكما نعلم، فقد علِم "فاندر دورب" خلال هذه الإقامة نفسها في لندن، بوفاة "مانون بلانش". هذا الخبر السيئ تلاه خبر آخر سيئ وهو إنكار "بيير" رسميًا اسمه واستبدال اسم أمه به، كلا الخبرين نسفا قوة تحمله وقضيا على أسلوب النسيان الذي قد انتهجه منذ وصل إلى إفريقيا. لقد فقد للتوّ قطبي حب حياته. وفي إحدى الليالي شرب بإفراط في إحدى الحانات وبالغ في إهانة اثنين من الحمَّالين العاملين بالرصيف، على أمل أن يضرباه. لدرجة أنه قد عرض عليهما المال لكي يضرباه. وطلب منهما أنه يريد أن يتهتَّك جلده من أثر الضرب، وأن تنسحق عظامه من وطأة ضرباتهما. ومن حسن حظه أو ربما من سوء حظه، لم يكن الحمالان من ذوي الطباع العنيفة. لكن أخبر أحدهما "فاندر دورب" أنه يعرف شابًا يافعًا إسكتلنديًا لديه بعض الجنون المشابه له يعمل رجلَ دين كان يهذي في الليل من ميناء إلى ميناء من كثرة شرب "الويسكي"، حتى إنه يفقد الوعي في بعض الأحيان. وأنه من فرط غرابة أطواره كان يدفع للعاهرات ليس من أجل النوم معهنّ، وإنما لمجرد شم إحداهن أو جعل إحداهن تتبول عليه. وكان يمتلك ثقة شديدة بأنه سوف يصبح ذات يوم مَلِكًا، حتى إنه كان يُقسِم على ذلك، ملكًا لبلد اسمه "هارموني" أو التناغُم. كان ذلك الشاب يُدعَى "جون ماك ألبين"، ومن المتوقع أن يكون في "دوف" الآن، على بعد بعض الشوارع. وقد قرروا أن يجري التعارف بينه وبين "فاندر دورب" لأن أنسب شخص لمواساة مجنون هو شخص مجنون مثله.

وسط أعماق غيبوبة الحمى التي تعرض لها "فاندر دورب" الراقد في الفراش الخشن ذي الرائحة العطرة في مستشفى الطبيب "دريبونت" الأوروبي، استدعت مخيلة "فاندر دورب" ذكريات تلك السنوات الضائعة من عمره جمال "كامي كلايس" ورِقَّتها، وشَعر ابنها الذهبي. وتراءت له تلك الذكريات كزجاج هش تَكَسَّرَ مع رياح السماء، وذرفت عيناه الدموع حسرةً وألمًا. ثم فتح "فاندر دورب" عينيه وتململ عند رؤية شبكة الناموسية المعلقة فوق سريره وانتابه شعور بأنها تحاصره مثلما حاصره انهيار العالم من حوله.

هدأت الحمى وخرج "فاندر دورب" من المستشفى بفضل جهود الطبيب "دريبونت". ازدادت

لديه الرغبة في العثور على ابنه، حتى لو كان ثمن ذلك حياته. كان ينوي - بعدما يستعيد عافيته في "ليوبولدفيل" - إيجاد حُجّة تسمح له بالمغادرة إلى الشمال. وبحلول شهر يونيو، انتابته الدهشة حينما علم من أحد الصيادين العائد لتوه من "إكواتورفيل" أن حاملي مهندس المساحة الشهير "بيير كلايس" - الذي كانت بعثته الاستكشافية تهدف إلى تحديد الحدود الشمالية للبلاد نهائيًا - قد جلبوا جسده من الأدغال، فاقدًا الوعي ومشوهًا بشكل رهيب، جلبوه إلى "بانزيفيل" حيث قدّم له العرب المسؤولون عن المركز هناك الإسعافات الأولية اللازمة. نُقِلَ بعد ذلك نحو الجنوب حيث تولّت إعادته إلى "إكواتورفيل"، وحيث سيُنقَل إلى "ليوبولدفيل". ونُسِجَتِ الحكايات عن جسد مهندس المساحة "كلايس" المصاب بكدمات، كيف كان مُغطّى بالكامل برسوم غريبة ووحشية، وزادت الإشاعات حتى ظن الآخرون أنها من هذيان المستوطنين الذين تعرضوا لضربات الشمس.




نجا "بيير كلايس" من الاحتضار نتيجة للتقطيع والتمثيل الذي تعرَّض له جسده. كان جلده مطويًا على نفسه في عدة أماكن، منحنيًا ومنكمشًا شبيهًا بوشوم اللوالب التي رسمها "شي شياو"، وكان جلده مشقوقًا بعمق بالعديد من الخطوط التي تتقاطع أحيانًا عبر الجسد بأكمله.

حينما تُرِكَ مهندس المساحة هكذا في الغابة، كانت طبقات جسده اللامعة بلون اللحم تأخذ درجات شبيهة بدرجات اللون الأحمر المتباينة للزهرة المتفتحة. وبينما كانت الطيور تغرد كانت الحشرات تتزاوج على جسده بل إن الثعابين كانت تزحف في حركة دائرية حوله، واقفة مشدوهة في بعض الأحيان، كما لو كانت تراقب هذه المعجزة الناجية من كثب. وانتاب القرود القلق منه. وتخلخلت الأشعة الشفافة للشمس وسط كثافة أوراق الشجر الاستوائية لتسقط عليه، وهو الذي بدا تنفسه أكثر بطأً من تنفس طفل حديث الولادة. كان "بيير كلايس" يحتضر وعقله معبأ بالأفيون والأحلام. كانت تلك الأجزاء العارية من بشرته المُشوَّهة تَشِفُّ عن ألياف وأوتار لبعض العضلات المبللة بالسائل اللمفاوي الذي طاله الجفاف، كان جسده المشوَّه مُسجى، غير مدرك بأنه تحت سمع جميع مخلوقات الأدغال وبصرها. اقترب منه نمر الغابة فائق الجمال ذو العيون المحاطة بكحل أسود قاتم، اقترب من جسده بخجل وتردد. وأخذ يتشمَّمه ويترقَّب قبل الشروع في وجبته، وبينما كان على وشك البدء في التهام قطعة من الفخذ، سُمِعَتْ صرخة بعيدة واقترب آخرون وهربت جميع الحيوانات. بينما كان "لوزولو" و"لومالا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا" يسيرون في الغابة، وجدوا "بيير كلايس". لم يكن أحد ليلقي عليهم اللوم لو تركوا هذا الرجل الأبيض الذي لا علاقة لهم به، والذي يعلمون جيدًا أنه جاء من بلاد بعيدة لكي يقطِّع بأراضي وطنهم ويمثِّل بها، ولكن الله وحده يعلم لماذا قدَّموا له المساعدة. لقد انتشلوه وضمدوا جروحه ووضعوه على زورق لنقله إلى مدينة "بانزيفيل".

استقبلهم "علي بن الحسن المغربي" في صمت. ووضع الستة رجال المنتمون إلى قبيلة الـ"بانتو" أمامه جسد مهندس المساحة وأخبروه بأن روحه اختارت العذاب والموت حبًا بين يدي

الرجل الصيني. أخبروه أيضًا أنه لا حلّ لمثل من اختار ذلك سوى الموت، ولكنهم غير قادرين على أن يتركوه ليموت. وسردوا له المزيد عن قصة حب مهندس المساحة والرجل الصيني لبعضهما وكيف أنهما وصلا إلى قمة المتعة معًا في المساء، وأن ذلك ليس شيئًا شائنًا ولا يمكن أبدًا إدانتهما على أفعالهما.

قال "علي بن الحسن المغربي" وهو ينفث دخان التبغ:

- لما كانا لم يقتلا بعضهما، إذن فهما لم يحبا بعضهما بالقدر الكافي ويبدو أن حبهما قد تغيّر ولم يعد كما كان.

خفض الستة رجال المنتمون إلى قبيلة الـ"بانتو" رؤوسهم ورجعوا تجاه الشمال. ثم طلب "علي بن الحسن المغربي" من رجاله أن يضعوا مهندس المساحة في خيمته الخاصة وشكرهم ثم استطرد قائلًا:

- يجب أن نعطي الفرصة لهذا الرجل لكي يقتل نفسه من جديد.

***

ظل "بيير كلايس" أسبوعًا في "بانزيفيل"، غير واعٍ بما يحدث في العالم الخارجي، غارقًا في أحلام بشعة لا نهاية لها. وبعدما تخطّى رجال "علي بن الحسن المغربي" مرحلة الذهول المقترن بالرعب الذي فرضته عليهم الوشوم الفريدة التي غطت الجسد المشوه المُمثّل به، نظّفوا الجروح بعمق ثم غطّوا الجسد بالكامل بمرهم لديه من الأسرار ما يساعد في الالتئام، جلبوه من جبال "هقار" لعلمهم بقدرته على الشفاء. ثم لفوا مهندس المساحة بشرائط من الملاءات القطنية الملفوفة بإحكام حول جسده، بحيث ظلت فتحات جروحه متقاربة لدرجة الالتحام. لهذا، فقد خاط رجال "علي بن الحسن المغربي" بخياطة قشرات الجلد المنحنية والمقاومة للحرارة المرتفعة الواحدة تلو الأخرى بالإبر والخيوط، هذه القشرات الجلدية التي كانت منتشرة بالكامل على سطح جسد "بيير كلايس". لم يحدث من قبل أن حاول الموت الاقتراب من جسد بمثل هذا الخيال، حتى إن رجال "علي بن الحسن المغربي" لم يستطيعوا كتمان إعجابهم بآثار فن الجلاد الصيني ونسوا أنفسهم من الدهشة والذهول في أثناء تأملهم ذلك الفن، ووصلوا إلى حالة توازن أشبه بخط رفيع ما بين الإعجاب والاشمئزاز. وبعدما لفوه بإحكام تركوا فتحات في الشرائط الملفوفة عند الوجه من أجل الفم والأنف، وعند فتحة الشرج من أجل الإخراج وعند أسفل العانة للسماح بمرور قضيبه الذي كان هو نفسه مقطوعًا بعمق بعدما بدأت جيوش من النمل في أكل حوافه، باحثين بفكهم السفلي الجائع والسام عن عن وجبة جديدة بالالتهام.

وعلى إثر ذلك، أُعِدَّ "بيير كلايس" ونُقِلَ بواسطة زورق إلى "زونجو" وهناك فك رجال "علي بن الحسن المغربي" ضماداته ونظّفوا جسده مرة أخرى ودهنوه مرة أخرى بذلك المرهم القوي الذي يدين له "بيير كلايس" بحياته بالتأكيد، وأعادوا تضميده ولفه بالطريقة نفسها.

لعلنا نتساءل لماذا كلّف رجال "علي بن الحسن المغربي" أنفسهم كل هذا العناء والشقاء من أجل رجل أبيض من الممكن أن يكون احتقرهم خلال زيارته الأولى لـ"بانزيفيل"؟ لكنهم لم يقولوا ذلك. وتزامن مع ذلك أن رَسَتْ سفينة بخارية في "زونجو" في اليوم التالي لوصولهم، لتسلُّم كمية من العاج. وكانت السفينة البخارية السابقة قد غادرت قبل شهر، ولن تصل التالية قبل ستة أسابيع. وعلى إثر ذلك تسلَّم جسد "كلايس" القبطان الذي لم يقبل به إلا بعد أن احتدم الحوار مع أحد رجال "علي بن الحسن المغربي"، وسبب رفض القبطان في البداية أنه كان يخشى السفر مع مومياء حية على متن السفينة. هكذا صارت الأقدار مع مهندس المساحة أنه نزل نهر "أوبانجي" بعد ما يقرب من ستة أشهر من إبحاره صعودها به سابقًا، ليصل إلى "إكواتورفيل". هناك استقبله "شارل لومير" بنفسه الذي أقسم بأغلظ الأيمان أنه سوف يعثر على "شي شياو" وأنه سيجبره على أكل خصيتيه ثم يهشم رأس ذلك الصيني.

سكَّن "لومير" مفوض مقاطعة "إكواتورفيل" مهندس المساحة في أكثر الأكواخ راحة في المقاطعة إلى جوار كوخ الطبيب "جوسنز"، ذلك الشاب الماهر مرهف الحس الذي جاء من "أنفير" وعُيِّنَ مؤخرًا في "إكواتورفيل". تلقى "بيير كلايس" زيارة غريبة وسرية لفتاتي ليل ضحكتا بعفوية من مشهد قطعة اللحم الصغيرة الملفوفة بشاش والبارزة من الجسد المُكَفَّن بالشرائط الغامض، تلك القطعة وهي قضيبه المصاب بكدمات، الشبيه بالطائر الجريح المستقر على جثة حية. أثار هذا المشهد حواسهما وقد بدا بريئًا مثل عضو صبي صغير. ثم قصّتا على "كلايس" النائم - بلُغتهنّ، لغة قبيلة الـ"بانتو" ذات الإيقاع المميز - قصص الحب المثيرة الجنسية التي لها من السحر ما يجعلهما في عالم آخر حيث تُتبادَل القبلات تحت النجوم. وبعد ثلاثة أسابيع، استعاد بعضًا من عافيته بعدما تأكد أنه ما زال حيًا، إذ وُضِعَ "بيير كلايس" على سفينة تبحر إلى "ليوبولدفيل" حيث نقل الرسل فعلًا خبر وصوله الوشيك. وعندما تناهى إلى مسامع الطبيب "دريبونت" الوصف التفصيلي لجروح مهندس المساحة التي اعتبرها "اعتداءً بشعًا على الرجولة"، قرر أنه من واجبه المهني علاج هذا الشاب في أسرع وقت ممكن وعودته إلى الحياة حتى يتمكن هو نفسه - من أجل شرفه - ومن أجل شرف بلجيكا بأكملها - وحتى من أجل شرف كل رجل أبيض على الإطلاق - يجب العثور على الكائن سيئ السمعة الذي تسبب في هذه التشوهات البغيضة وعقابه بالشكل اللائق.

***

طوال هذا الوقت الذي قضاه "بيير كلايس" في أعماق تلك الغيبوبة السوداء كانت تتراءى له أطياف أحلامه. كان فاقدًا الوعي غير عابئ لذلك الألم الذي احتدم فيْ جسده، عاش ما بين الصمت والموت ومر عليه الوقت كأنه مليار عام. كانت تقنية "شي شياو" في تقطيعه مليئة بحب لا حدود له وقد لجأ إلى أكثر التقنيات السرية للوخز بالإبر من بين تقنيات أخرى. فقد جمَّع نقاط البشرة التي لم يكن ينبغي قطُّ أن تنضم إليها قنوات الدم الدقيقة هذه التي نُقِشَت على جسد مهندس المساحة، أوصله ذلك إلى كونٍ جديد يليق بمهابة اللقاء ما بين "بيير كلايس" والجلاد الصيني، فهو يعبِّر عن لحظة فريدة في تاريخ العالم عند تقاطع مخروطين، أحدهما يحتوي على أحداث ماضية، والآخر يحتوي على أحداث قادمة. وعليه فقد وجب القول إن أنقى أنواع الحب هو الذي يمكنه أن يحقق مثل هذا التمثيل للعالم على جسد الحبيب. عرف شي شياو، بطريقة تشريحه لجلد مهندس المساحة، أنه يسحب الجسد بعيدا عن الزمن نفسه، عن بطء مروره، عن تعب أحزانه، عن رتابة طوله، عن قلق الوقت وإداناته. لقد علق عامل الوقت فوق هاوية الغياب الكامل، ورغم ذلك الظلام الحقيقي، فإنه كان أكثر إشراقًا في داخله من ألف نجم، ومع ذلك لا يفلت أي ضوء، كل الأضواء سجينة سواده المطلق.

هكذا كان معلقًا في فراغ الموت الخالص، كان حزن "كلايس" كبيرًا، إلا أن حزنه كانت لديه القدرة على الانتصار على نظام الكون، معتقدًا أنه يهيمن على الحياة والوقت، ذلك الحزن الذي كان من شأنه أن يخفف من حذره، وأن يخفف قبضته عن روح الشاب، للسيطرة عليه بعد الموت، فقط ليُخدَع ويُخان للوصول إلى تلك اللحظة التي يشق فيها "شي شياو" قلب "بيير كلايس" الذي خُرِّزَ من غطاء ضلوعه، وبذلك يُقطَع الخيط الأخير الذي يُبقِي مهندس المساحة حيًا.

ذلك الحزن المروِّع الذي ترك "بيير كلايس" في غيابات الظلام، إلى مستقبل ينتصر فيه الظلام وينبعث الحزن مرة أخرى في الأدغال، ويُقتل "شي شياو" بوحشية تليق به ثم يعود ذلك الحزن إلى القمر ثم يستقر أخيرًا في عيون آلاف الحيوانات في الأدغال.

"شي شياو" - كما نعلم - تفاجأ بعدم مقدرته على قطع صدر "بيير كلايس"، لم تكن لديه القوة لرفع ضلوعه وتحرير قلبه. وهكذا ساد الحزن واكتسح المساحة اللانهائية للغياب وللزمن الكامن في جسد مهندس المساحة المشوَّه، المحاط في كل نقطة بشرائط من الشاش والقطن، مومياء أُحضِرَت من قلب إفريقيا إلى مستشفى "ليوبولدفيل" الأوروبي. وعندما تمكنت المراهم من شفاء الجسد، رجع "بيير كلايس" إلى الحياة مرة أخرى. ويبدو أن المورفين الذي أعطاه إياه الطبيب "دريبونت" عرَّضه لأحلام أكثر هدوءًا، وتحوَّل فائض الألم الجسدي والمعنوي الذي

انبثق من كيانه ببطء إلى هذا النوع من الأحلام المدهشة الهادئة الشبيهة بلوحات الآلهة المريحة للعين. استعاد "بيير كلايس" مقدرته على الكلام وبدأ يستعيد شكله تدريجيًا.

بدأ في استرجاع ذهنه الهندسي أولًا ثم الفلكي ثانيًا. كانت أطياف ذكرياته تتجاوز سقف مستشفاه لترى مدينة "ليوبولدفيل" وهي نائمة في الليل، ثم تهيم ذكرياته وتستمر في الصعود حتى ترى حوض الكونغو بأكمله، مظلمًا ومتعرقًا، ثم تعبر أكثر حتى ترى قارة إفريقيا وقد أدمتها الجروح وسالت منها الدماء، ثم تهيم أفكاره حتى تصل إلى القمر ويتراءى له على سطح القمر كلبان من رعاة الماشية في حالة حزن وحداد، ثم يتراءى له المريخ والذي يبدو من بعيد وقد احمرَّ خجلًا من قبلات الليل له. وعندما حدق بعينيه أكثر رأى العديد من الجداول المائية المرسومة التي تنقل الحياة والمياه من الغطاء الجليدي إلى الأراضي الجافة، وكأنها آخر ما تبقى من حضارة المريخ التي قُضِي عليها الآن والتي استقر الموت على هذه الأرض الحمراء الجميلة التي تأبى أن يطولها العفن، وقد تزيَّنت بالذهب وترصَّعت بالأحجار الكريمة. ثم هامت أحلام "بيير كلايس" أكثر فأكثر حتى رأى كوكب المشتري الهائل، وكذلك كواكب زحل وأورانوس ثم نبتون الذي اكتُشِفَ مؤخرًا، والذي يشبه ملكة الحشرات المخملية. ثم ظهر له كوكب تاسع وبري.. يلمع مثل عين القطة.. يُقسّم الميل الأسود للسماء.. كوكب سري، مريض وغاضب.. يسيل لعابه على شفتيه وقد تحدَّب هيكله مثل وحش شرير.

عرف "بيير كلايس" أن هذا الكوكب الحزين قد آوى أقداسه كافة وأن الجميع ماتوا الآن، وما زالوا مستلقين في ملابسهم الملونة - مثل تماثيل الشمع - والدم يلطخ شفاههم وأفواههم، وكان يعلم أيضًا أن هذا الكوكب الشبيه بالكرة الخبيثة والفاقدة لمدارها سوف تضرب الأرض في النهاية وتسحقها. مرَّ النجم بسرعة جنونية. رأى "بيير كلايس" "جانس" و"هوجو" و"توما بريل" قبل أن يضيع في السماء. ولأول مرة منذ خضوع جسده للتقطيع، يفتح عينيه ويرى نافذة غرفته مفتوحة وقد ساد هدوء الليل بالخارج، هدوء لا يخلو من صرخات حب الحيوانات التي ارتفعت بعيدًا لتطول النجوم.

وفي الأيام التالية، استعاد "بيير كلايس" وعيه وإدراكه لنفسه ولتاريخه وللعالم من حوله. وللمزيد من تعافي الجروح، كان يجب تعريضها للهواء الطلق المنعش. ولذلك فقد فكَّ الطبيب "دريبونت" غطاء شرائط الشاش والقطن، وهذا ما مكَّن "بيير كلايس" أخيرًا من رؤية شبكة الخطوط السريالية والأنماط الغريبة التي نقشها "شي شياو" على جسده بشكل لا يُمكن محوه. أصابه التأثر الشديد حالما رأى هذه الخطوط والنقوش، فقد تعرَّف فيها قصةَ معاناته وعلامة فشله الذي لا يُغتفر والذي تمثله ولادته بحسب رؤيته. تعرَّف فيها فشل توقعاته على جميع

الأصعدة؛ توقعاته الطفولية الخاصة بالحب، وتوقعاته الروحية والفكرية والجنسية. وقد زاد من حزنه وألمه وجعله يذرف الدموع المريرة حينما أدرك أن كل الحب الذي أثاره ذهب أدراج الرياح؛ حب والدته وحب السيدة "كوانتيه" وحب "شي شياو" الذي استطاع التخلي التام عن حنانه، ووجد القوة الفريدة لإنتاج هذا الرسم الصحيح، الصادق، الكاشف عن الحقائق، والصادم من شدة توافقه مع مصيره الحزين.

إذا كان قد عرف كيف يحب بشكل أفضل في الماضي، وعلى وجه الخصوص إذا استطاع اغتنام هذه الفرصة الأخيرة التي أتاحتها له مغامرته الروائية الإفريقية، لكان بالتأكيد في تلك الثانية نفسها ميتًا أو سعيدًا. كان الحب دائمًا ما يمر خلاله مثل ماء فوار ونقي، ثمين ومنشط، يوقظ عضلاته ثم يحمل معه الشوائب حتى أطراف أصابعه، لكنَّ الماء يختفي دائمًا في النهاية ويتبخر منه مثل الفائض، كغاز شديد التطاير. كل موقف لطيف وكل لفتة حقيقية قد هربت منه في النهاية، ولم يكن قادرًا على فهمها، بعد أن فقد الكثير منها في ساحات شوارع بروكسيل ثم على طول نهري "الكونغو" و"أوبانجي".

لقد عرف من الطبيب "دريبونت" في اليوم السابق كيف أن "لوزولو" و"لومالا" و"امبابي" و"كونجو" و"امبالا" و"تاميلا" ثم "علي بن الحسن المغربي" ورجاله قد اعتنوا به؛ كان في الماضي ينتابه شعور قسوة القلب، واستعاد ذهنه مشهد الأيدي المقطوعة بوحشية. وسالت الدموع اليائسة من عينيه واعتصره الألم حينما أدرك بُغض ووحشية هذا العالم.

في وقت متأخر من الليل، استلقى "بيير كلايس" نائمًا على سريره. وفي الخارج صدرت أصوات حفيف بعض أوراق النخيل. وعلى الجانب الآخر من جدار غرفته، تحت حافة نافذته بالضبط، كان هناك بستان زاخر بذلك النبات الذي يُطلق عليه "وردة الخزف" والذي أحبه الطبيب "دريبونت" وطلب إحضاره من المستعمرات الآسيوية للإمبراطورية الفرنسية. على طول إحدى سيقان هذا البستان السميك الشبيهة بالقصب والمُتَوَّجة بزهرة ممتلئة وردية اللون مثل الفراولة، كانت هناك أفعى جابونية بعيون صفراء ضخمة وصلت إلى حافة النافذة، وانزلقت بصمت على أرضية غرفة "بيير كلايس". ثم انزلقت الأفعى تحت ناموسية السرير ورفع نفسه بأعجوبة على الملاءة القطنية البيضاء التي تغطي الجسد الخامل والضعيف. وبدقة شديدة أخرجت لسانها سريعًا في الهواء، شقت الأفعى السميكة طريقها بطول جسد "بيير كلايس" دون إحداث أي صوت آخر غير صوت حركتها على الملاءات. صعدت بمحاذاة ساقه ثم صدره حتى وصلت إلى وجهه الذي كانت تبلله الدموع. توقفت الأفعى بحذر واقتربت برأسها المثلث من الأنفاس المنتظمة لذلك النائم الدافئ. ثم بلحسة من لسانها، تلتها عدة لحسات، ذاقت الملح الذي خلَّفته

الدموع على وجه "بيير كلايس". وارتجف جسد الأفعى وتوقفت للحظات، كما لو كانت مترددة، ثم لامست شفتيها شفتي الشاب وظلت كذلك عدةَ ثوان كما لو كانت تقبله. ثم عادت في صمت إلى بستان زهور الخزف. عندما استيقظ "بيير كلايس" في صباح اليوم التالي، لم يكن هناك أي أثر لمرور الثعبان. وظل يلح على ذهن مهندس المساحة شيء واحد فقط لا بديل عنه ألا وهو: العثور على "شي شياو" لكي يطلب منه استئناف التشويه والتمثيل وأن يحبه حتى النهاية.





جاء "فاندر دورب" لزيارة "بيير كلايس". وعندما حل الليل، واستغرق مهندس المساحة في النوم، اقترب من سريره، حتى أصبح على بعد خطوات قليلة فقط، وظل بلا حَراك في الظلام يحدق إلى وجهه من خلال شبكة الناموسية، وعلى ضوء بعض انعكاسات القمر، ظل محدقًا إلى ذلك الوجه الذي رآه بشكل مختلف قبل أكثر من عشرين عامًا، والذي لم يره منذ ذلك الحين.

تلك الليلة اشتدت العاصفة وزادت ومضات البرق بعنف، تمكن من تحديد ملامح هذا الرجل النائم وبتأثر شديد تعرَّف ملامح "بيير" الصغير الذي أحبه. وبينما كانت الأمطار الساخنة والغزيرة تمطر على المدينة وتحرك الرياح الغابة بأكملها، وهذا ما أثار حركة المياه الهادرة بنهر الكونغو. وتوارى الرجال واختبأت الحيوانات في كل مكان في ملاجئهم الهشة من قلقهم بشأن هذه العواصف. ووسط ظلمة الغرفة الصغيرة، فكر "فاندر دورب" في الشخص الذي كان ابنه. لأول مرة في حياته، فكر في قياس قوى الزمن، وكيف حوَّلت صبيًا صغيرًا ضاحكًا إلى مهندس مساحة مُشوَّه. كيف يمكن لهذا الكائن الذي يرقد أمامه في الظل - والذي يبدو أنه شعر بوجوده - كيف يمكن أنه قد أحبه يومًا ما وأنه قبَّله وعانقه؟ لقد فكر في هذا الأمر الاستثنائي: إنه "فاندر دورب" الذي كان في الماضي شخصًا مهمًا في حياة "بيير كلايس". فقد كان يتابعه ويواسيه ويراقبه من كثب. كان شديد القرب منه.. أمَّا الآن فقد أدرك "فاندر دورب" المسافة الهائلة التي تفصله عن "بيير كلايس" الراقد أمامه.

على الفور تعرَّفت عيناه بقع النمش التي تنتشر على وجنتي هذا الشاب المشوَّه. تلك هي

نقاط نمش "كامي كلايس" وشمس مدينة "بروج". ثم تساءل "فاندر دورب" في قرارة نفسه: "كيف غادرتُ هكذا ولماذا؟ كيف أحببتُ "مانون بلانش" ولماذا؟". كيف صار منحى حياته بعيدًا عن كل ما كان ينبغي أن يكون؟ غرق "فاندر دورب" في ذكرياته البعيدة، وسيطر على تفكيره أن الإنسان يحيا مرة واحدة، وعلى الإنسان أن يستغل الفرص المتاحة له، وقد فشل هو في اقتناص فرصته وباء بالفشل التام. لم يستطع "فاندر دورب" كبح جماح أحزانه وانخرط في نحيب حاد، وهذا ما أيقظ "بيير كلايس" الذي تحرك على إثر ذلك ثم فتح عينيه وسأل:

- من هنا؟

في قفزة واحدة، هرب "فاندر دورب" من الغرفة. في ظلام الممر المؤدي إلى خارج المبنى، واصطدم بالممرضة المناوبة التي تعرَّفته.

- سيد "فان دير بور"!

- بل "فاندرد..".

ثم سكت "فاندر دورب". مشى بعيدًا في ظلام الليل. سمع "بيير كلايس" كل شيء من سريره. استدعى الممرضة ليسألها من الذي جاء إلى غرفته في هذه الساعة المتأخرة. فردت قائلة:

- كان ذلك السيد "فان دير بور". رجل من "جمعية الكونغو العليا".. لقد خضع للعلاج هنا مؤخرًا، كاد يموت من الحمى إلا أنه نجى وتعافى من مرضه، ولكنه أصبح شخصًا مهمومًا بأحزانه. إنه ليس سيئًا.. يبدو أنه مهتم بك.. جاء عدة مرات ليسألني عنك.

- أتقولين إن اسمه "فان دي بور"؟ وأنه حزين؟ حسنًا، أبلغي هذا الرجل أن يأتي ويزورني في أوقات أكثر ملاءمة إذا كان مهتمًا بي.. سأكون أكثر قدرة على الحديث معه!

***

بذل "فاندر دورب" على مدار حياته جهدًا كبيرًا لتصحيح اسمه للمواطنين الناطقين بالفرنسية الذين بدوا غير قادرين على حفظ النطق الصحيح لاسمه ومثَّل ذلك مصدر إزعاج له. إلا أنه أخيرًا استنتج من ذلك الأمر في أثناء مكوثه في مستشفى الطبيب "دريبونت" الأوروبي، أنه في نهاية الأمر، جاء ذلك في مصلحته. ففي "ليوبولدفيل" كان يُطلَق عليه "فان دير جور" أو "فان دير بور" أو "فان دير بورب" أو "فان دير جورب" ولكن لم يناده أحد قطُّ باسم "فاندر دورب".

عن طريق دعوة الممرضة له سوف يتمكن "فاندر دورب" من لقاء "بيير كلايس" دون المخاطرة بالكشف عن هُويَّته الحقيقية، وسيساعده في ذلك لحيته الكثيفة التي تخفي وجهه.

وبذلك سيتمكن "فاندر دورب" أخيرًا من التحدث مع ابنه.

زار زيارته الأولى في وقت مبكر من صباح يوم الخميس. ولم يذكر أنه طبيب. قدَّم نفسه على أنه يقضي وقت النقاهة وأنه يعمل في "جمعية الكونغو العليا". ساعدَت نظراته الحانية في إدخال البهجة على قلب "بيير كلايس".

أبدى "فاندر دورب" التأثر الشديد تجاه قصة "بيير كلايس" وخالجه الشعور بالتعاطف العميق تجاهه، وسوَّغ زيارته المجنونة ليلًا بأنه لم يتعافَ تمامًا من آثار الحمى التي أصابته، وأن الدافع إلى ذلك ألا يخاطر بإعاقة تعافيه. تفهَّم "بيير كلايس" موقفه وعذَره على الفور. وبدا أنه لم يعد يكترث بقوالب الأعراف الاجتماعية.

- أحببتُ طلة وجهك. أنا الآن لم يعد لديَّ أصدقاء، ثم إنني لا أريد المخاطرة بفقدان صداقة ما زالت في بداياتها.. ولذلك فإني أسامحك.

تجاذب الرجلان أطراف الحديث حول بعض المواضيع العادية الأخرى، ثم حكى "بيير كلايس" لـ"فاندر دورب" عن الرؤى التي كانت تتراءى له. أخبره عن الشعور البائس الذي تملكه ولم يعد يتركه بأن نهاية العالم قد اقتربت. وأنه تتراءى له ألسنة لهب لا نهائية تحترق في السماء وأن من قممها تدفقت دموع صافية لجميع المخلوقات الموشكة أن تموت. ثم اهتاج شعوره وبكى كالأطفال، بكاءً كالنحيب، ثم بدأ يهدأ رويدًا محاولًا التخلص من تلك الحالة المزاجية الحزينة. هنا انحنى "فاندر دورب" نحوه واستطرد قائلًا:

- أتفهَّم شعورك يا صديقي - إذا سمحتَ لي أن أناديك بهذا - أدركتُ خلال حياتي البائسة أن العالم الذي نعيش فيه، وهو كل ما نملكه، وهو مصدرنا الوحيد لتحقيق الحب والأحلام والقوة، أدركتُ أنه لا يملك في الحقيقة إلا الدمار.. ليس دمار العالم بأكمله ولكنه سيكون تدميرنا نحن.

يصبح تفككنا هو العالم، هكذا هو الحال أيضًا مع معاناتنا، ومعاناة جميع من يموتون اليوم في هذه الجحيم، ومعاناة جميع من يعيشون فيه.. دوام الحال من المُحال.. ولم يعد أحد سعيدًا.. توقف "بيير كلايس" عن البكاء وتقلَّب على فراشه في حين ظلت عيناه مفتوحتين تحملان الكثير من المعاناة التي مر بها.

عاد "فاندر دورب" لزيارة "بيير كلايس" في الأسبوع التالي، ثم زاره عدة مرات خلال الأسبوع، ثم أصبح يأتي كل يوم. شعر تجاهه بجاذبية غامضة، وأدرك الكثير من المعاني وهو بجوار سرير هذا الابن المفقود. استعاد العالم معناه بالقرب منه وبدا - في بعض اللحظات - وكأنه يُصلح القدر، وأن الحياة تفتح صفحة جديدة معه كأنه يطير خفَّاقًا في السماء بعد أن

أزاحت عنه السماء جميع المصاعب التي واجهها. وتشارك "فاندر دورب" وابنه الاستمتاع بتلك الزهور المزدهرة ورأوا دورة حياتها من اصطفاف منظم جميل إلى ذبول عابس ثم هشيمًا تذروه الرياح. تألقت أشعة الشمس بالخارج وانتشر بريقها في الهواء حتى ذاب فيه كل شيء. انفصلت الكلمات واحدة تلو الأخرى عن العالم، كلمات تكشف عن حالة السمو التي ارتقوا إليها. وانصهرت الحياة والموت في ذهن "فاندر دورب" في وحدة جديدة وصامتة. في تلك الغرفة الصغيرة في مستشفى "ليوبولدفيل" الأوروبي، وجد "فاندر دورب" "بيير الصغير" الذي لم يعُد صغيرًا وصار رجلًا، وجده أكثر سموًا عن الواقع البشري وقبحه البغيض. ما زال يراه "بيير" الصغير مع أنه يحمل جسد رجل بالغ علاه الكثير من الوشوم والتشوهات، كان "بيير كلايس" يتحدث إليه عائدًا من الموت، متحررًا وساميًا، يتكلم بلغة رصينة، يشع كالشمس في وسط سريره القطني، كأمير راقٍ أسِرَ. شعر "فاندر دورب" بدوافع الأبوة، أراد أن يقبله وأن يضمه إلى صدره. شعر بأن هذه الدوافع لها قيمة التحرر والتسامي والتجاوز، دون أن يتمكن من تفسير ذلك، وقد شكّلت معاني الحب المهدور.

روى له "بيير كلايس" قصته، روى له تخلي والده بالتبني عنه وما نتج عنه من ألم له ولوالدته، ألم طغى عليه بالكامل، وروى له عن دراسته التي خاضها بتفوق، وروى له كابوس الكونغو وأهواله. ثم أخبره عن "شي شياو" واتفاقهما الأبدي ورغبته في العثور عليه ليموت بين يديه. أما "فاندر دورب" فقد روى له قصة حياته مع تمويه الأسماء والأماكن إلى حد ما وطبعًا حَذَف "بروج" و"كامي كلايس" من سرده. روى له تدريبه كونه طبيبًا وحبه "مانون بلانش" وصداقاته، وفظائع قمع متمردي حركة "لا كومون" والاستعمار الإفريقي، وروى له أيضًا قصة وفاة الشاب "كلاين" ويأسه الشديد. وعندما انتهى، أمسك "بيير كلايس" بيده. ثم قال "فاندر دورب":

- إن الحياة مليئة بالأكاذيب، ووجودنا نحن، على وجه الخصوص هو خطأ فادح، ولكن عزائي الوحيد هو الأخ الذي وجدتُه فيك.. لكنني أشعر أن هذه السعادة لن تكتمل إذا لم تسدِ لي معروفًا أخيرًا.

قال "بيير كلايس" بفارغ الصبر:

- قل يا صديقي.. لا يمكنني رفض طلب لرجل تشارك معي مصيري.

همس "فاندر دورب" بكلمات صادقة:

- أتوسل إليك، إذا كنت تحبني، دعني أرافقك إلى الأدغال لأموت معك.

أجابه "بيير كلايس" دون تردد:

- تعالَ معي يا صديقي، سنموت معًا.

بعدما قال هذا، أغمض عينيه وصافح يد "فاندر دورب" التي ظل ممسكًا بها.



ظلت ذكرى "مبانزو" حية بين الكثيرين الذين عبروا طريقه في أثناء حياته. بعد عدة سنوات من مروره على قرية أو مع مجموعة من الصيادين أو العمال، كانوا لا يزالون يتحدثون عن هذا المغامر الشاب ذي الوشوم الذي ادّعى أنه ينتمي إلى جميع الثقافات وإلى جميع الألوان، زاعمًا بثقة غير عادية أنه الأكثر حرية بين السود والأكثر حرية بين البيض. وسرعان ما انتشر خبر وفاته في جميع أنحاء البلاد حتى وصل إلى الساحل الغربي ووصل إلى أخته الصغرى "سيلو".

تذكرت "سيلو" البالغة من العمر خمسة عشر عامًا رحيل شقيقها، الذي طُرِدَ من القرية الأصلية لأنه رفض الزواج والامتثال للأعراف الاجتماعية الصارمة التي حددت لعائلته حياة كل شخص منذ القدم. كان "مبانزو" قد استعد للانطلاق على الطريق قبل الفجر بقليل، وأيقظ أخته بهدوء. همس في أذنها بخبر رحيله ووعدها بأنه في نهاية رحلته التي سيجمع فيها كل معرفة وحكمة العالم، والتي سيجمع فيها العديد من الأرواح بعدد أنواع الزهور المتنوعة، قد يتحول بعد ذلك إلى طائر ويأتي بجناحيه طائرًا للعثور عليها وليأخذها معه. ثم وضع في يدها الصغيرة التي لا تزال نائمة ريشة حمراء مضيئة وساحرة، انتزعها من ذيل ببغاء، مؤكدًا لها أن هذه الريشة، على عكس ريش الطيور الأخرى، لن تفقد بريقها أو لونها أبدًا. ثم قبّلها مرة أخيرة واختفى في ظلام الليل.

بعد سبع سنوات، انطلقت "سيلو" أيضًا إلى الأدغال، عازمةً على العثور على قتلة أخيها.

لم تترك وراءها الكثير، فقبل ثلاث سنوات، أحرق الجنود قريتها بأوامر من "ليوبولد الثاني". واحتُجِزَت عدة نساء كرهائن واختُطِف قسرًا جميع الرجال الذين هم في سن العمل. أما أولئك الذين حاولوا المقاومة، أُطلِق النار عليهم وأُلقِيَت جثثهم في المكان. تعرضت "سيلو"، مثل العديد من الفتيات الأخريات، للاغتصاب عدة مرات. كانت الآن تغادر قريتها وحياتها وهي لا تمتلك أي شعور سوى الفراغ البارد، وقد اغرورقت عيناها بالدموع الجافة، عازمةً على ألا تموت قبل أن تُخرِج الغضب الهائل الذي كان يقتلها فعلًا. وقد أضاءت شعرها الأسود بريشة ببغاء رائعة ولامعة، واحتضنتها أشعة الفجر الحمراء الأولى.

***

ذهبت "سيلو" سيرًا على الأقدام إلى منطقة "بوما"، إذ أخبرها أحد المنتمين لقبيلة "بيمبي" القادم من الشمال الشرقي مع قافلة من التجار المسلمين أنها ستعرف بالتأكيد تفاصيل عن وفاة شقيقها من صياد أطلق على نفسه اسم "سوكسيه إسبيرانس" التي تعني الأمل الناجح. عاد "سوكسيه إسبيرانس" بانتظام إلى "ماتادي" حيث كان يحظى باحترام البيض، الذين دفعوا مبالغ كبيرة لتوظيفه كدليل خلال رحلاتهم إلى "ليوبولدفيل". شكرت "سيلو" الرجل الذي ينتمي إلى قبيلة "بيمبي" واستأنفت رحلتها نحو "ماتادي". لم يكن العثور على "سوكسيه إسبيرانس" أمرًا صعبًا. كان اسمه وسيرته على لسان "ماتادي" بأكملها. كان يستعد لمرافقة ثلاثة عملاء بلجيكيين إلى "ليوبولدفيل" قد وصلوا حديثًا. "سوكسيه إسبيرانس" كان فعلًا يعرف "مبانزو"، فقد كانا يخرجان لرحلات الصيد معًا، كان "سوكسيه إسبيرانس" من أوائل من وشموا "مبانزو". رسم ولوَّن على أسفل ظهره سلسلة من الخطوط التي تعبر عن أجنحة الخفاش العملاق الذي أسروه في إحدى الليالي. أخبر "سوكسيه إسبيرانس" "مبانزو" أن هذا الوشم سوف يحميه من الظلام وأخطار الليل. وقد انتابه الحزن الشديد عندما علم بوفاة "مبانزو". كان يعلم أن ذلك قد حدث على امتداد نهر "أوبانجي"، لكنه لم يستطع تحديد المكان بالضبط. اقترح على "سيلو" مرافقته إلى "ليوبولدفيل"، ومن ثَمَّ ستكون تحت حمايته ولن يكون لديها ما تخشاه من البيض. وفي "ليوبولدفيل" وضع "سوكسيه إسبيرانس" "سيلو" على اتصال مع مسافر شاب من شمال إفريقيا يُدعَى "محمد هجرس". كان "محمد هجرس" عالم رياضيات وشاعرًا بالإضافة إلى أنه يجيد سبع لغات. كان يسافر من أجل المتعة وسعة الاطلاع، ويعمل أحيانًا - بدافع الضرورة – لمصلحة السلطات البلجيكية والفرنسية.

كان "محمد هجرس" يعرف أيضًا "مبانزو"، إذ ربطتهما صداقة قوية. فقد سافرا معًا إلى منطقة بحيرة "تيلي" في الكونغو الفرنسية، حيث قيل إنه عاش هناك مخلوق ضخم ذو رقبة

ضخمة ويطلق عليه "موكيلي مبيمبي". وعلى مدى سفرهما، تبادل الرجلان الأغاني والقصائد. وقد نقش "محمد هجرس" وشمًا على أحد فخذي "مبانزو" وهو بيت شعر لإحدى القصائد المادحة للخمر للشاعر "أبو نواس" التي يقول فيها:

فَبُحْ باسْمِ من تهوى، ودعني من الكُنى

فلا خيرَ في اللذّاتِ من دونها سِتْر

وهناك عند البحيرة لم يريا أي أثر لمخلوق "الموكيلي مبيمبي". وقد انفصل "مبانزو" جنوبًا تاركًا "محمد هجرس" حزينًا ومتأملًا. وقد صُدِمَ الشاعر "هجرس" وحزن حزنًا شديدًا عندما علم بوفاة صديقه "مبانزو".

عندما جاءت "سيلو" لسؤال "محمد هجرس"، كان على وشك ركوب سفينة بخارية متجهة إلى "إكواتورفيل". وقد عرض على "سيلو" مرافقته، وأنه سيدفع لها ثمن مرورها، وبذلك ستقترب من نهر "أوبانجي" ويمكن لكليهما على طول الطريق، التحدث عن "مبانزو"، ذلك الشخص الذي سكن قلبيهما. ولدى وصوله إلى "إكواتورفيل"، ذهب "محمد هجرس" لزيارة "شارل لومير"، مفوّض مقاطعة "إكواتور" ليطرح عليه أسئلة بخصوص مقتل "مبانزو".

رد عليه المفوض وهو يشعل سيجارة مجرية:

- وما شأني بذلك؟ يموت العشرات من الزنوج يوميًا.. ثم إن "الأوبانجي" ليست مقاطعتي.. ولكنني أتذكره نعم، كان يبدو عليه أنه شاذ جنسيًا وكان جسده كله مُزَيّن بالوشوم. لم يكن قبيحًا، لو كنتُ شاذًا، ربما لم أكن لأرفضه.. فأجساد هؤلاء الزنوج الحثالة قوية وجذابة.. وكما تعلم فوسائل الترفيه هنا محدودة، فنحاول أن نمرح في حدود المتاح.. ماذا عنكم، أيها المتعصب الحقير، أتعرفون هذا النوع من المرح بين الرجال؟ ها هو وجهك يحمر أيها الخنزير! بالنسبة إليّ، ما يهمني هو إشباع شهواتي حتى القذف، ولا يهم أين! على أي حال، إذا كنتَ تريد رأيي، أعتقد أن الصيني هو من قتل ذلك القرد الذي يهمك.. إنه رجل مشتبه فيه.. أنت تعرف كيف هم أبناء هذا الجنس الأصفر.. ظاهريًا، لا شيء فيهم يثير الشك، ولكني أؤكد لك أن الشر واللؤم يملآنهم! يمكنك سؤال من هم حولك.. ستعرف أن هذا الصيني حاول تقطيع أحد مفوّضينا قبل أن يهرب إلى الأدغال.. وإذا عثرتَ عليه، سأكون مَدينًا لك بالكثير. والآن، اذهبوا من هنا، فلديّ مهام ورَقية كثيرة. أتمنى لك التوفيق، ولكن إذا أردتَ رأيي، عليك أن تنسى هذا الزنجي، لا يجب التعلق بأحد هنا، فلا يمكن التَعَلُّق بأي شخص في الجحيم.

مسح "محمد هجرس" دمعة غيظ وهو يغادر مكتب المفوّض. لم تكن هذه الزيارة عديمة

الفائدة على الرغم من كل شيء، فقد عرف الآن أن "مبانزو" كان يعرف رجلًا صينيًا بدا أنه يزعج السلطات البلجيكية بشكل خاص. نقل "محمد" لـ"سيلو" لقاءه مع "لومير"، واتفقا حول ضرورة تعرُّف هذا الصيني الغامض.

***

تركت قضية "كلايس" أثرًا قويًا في الأذهان، فالأمر يبدو كأن رجلًا ملوَّنًا حاول تقطيع مستوطن أبيض وهو حي، وهو أمر غير مقبول بكل بساطة. هكذا قدَّمت الإدارة البلجيكية في "إكواتورفيل" "شي شياو" على أنه مختل خطر وروح شريرة وعدو للمشروع الحضاري، يهدد السود والبيض على وجه التساوي. ومع ذلك تُدُووِلَ اسم "شي شياو" بين السكان الأصليين كاسم بطل، كائن أسطوري، كائن سحري وانتقامي قطَّع مبعوث الملك الذي جاء لتقسيم إفريقيا. أصبح اسم "شي شياو" مرادفًا للمقاومة والأمل. فعلًا اندلعت العديد من الثورات في البلاد. وكان العمال قد أعدموا ضابطًا من مركز "بوجوكا" على ضفاف نهر "أوبانجي". ولكن أخمِدَت هذه التمردات بشكل سريع، ومع ذلك فقد أحيت نوعًا من الفخر بين الشعب المُستَعمَر.

علمت "سيلو" و"محمد هجرس" من العمال الذين يفرِّغون البواخر القادمة من كل مكان ويعرفون أخبار الغابة أولًا بأول قبل أي شخص آخر بوقت طويل، أنه يقال إنه يوجد في الشمال رجل أصفر قد استقرَّ في قبائل الأقزام، على بعد مائتي كيلومتر من منبع نهر "الكونغو".

بالنسبة إلى هؤلاء العمال، لم يكن هناك شك في أن هذا الرجل الأصفر هو "شي شياو" الشهير ولا أحد غيره. استقل "سيلو" و"محمد هجرس" أول سفينة بخارية متجهة إلى "بنجالا"، شمال "إكواتورفيل"، وكلاهما حريص على معرفة المزيد عن الرجل الذي قيل إنه ابن الشمس وشقيق الليل.





وجد الأقزام "شي شياو" مرهقًا وعاريًا في الغابة، جالسًا في جوف جذع شجرة عملاقة. لم يكن معه سوى لفافة من الخيش تحتوي على صندوق خشبي مُزَيَّن بعلامة غريبة ومُعقَّدة. حَمَلَه الرجل الأقوى في مجموعة الصيادين على كتفه، كأنه يحمل فريسة، وعادوا جميعًا إلى قرية الأكواخ "ديمبا" التي يعيشون فيها على بعد بضعة كيلومترات. لم يحدث من قبل أن رأوا رجلًا أصفر إلى هذا الحد. تخيَّلوا للحظة أن "شي شياو" كان روحًا ليلية مفقودة في النهار، ثم أدركوا أنه كان فعلًا رجلًا وأنه جاء من بعيد، من وراء الغابات والبحار التي سمعوا عنها.

في الأيام الأولى التي قضاها مع أقزام "بينزي" في "ديمبا"، لم يتوقف "شي شياو" عن البكاء. كان يرفض تناول الطعام وبدا أنه يحمل حزنًا ثقيلًا لا يُطاق. افترض سكان القرية أن هذا الرجل الأصفر عاش آلام فقدان حب هائل كي يظل حزينًا بهذا القدر على الرغم من تعاقُب الأيام. لقد حدث من قبل أن رأوا فعلًا بعض الرجال والنساء يذبلون نتيجة حداد أو حب فاشل، وأصيبوا باليأس الذي قادهم إلى الموت. حتى إن بعض القرود شوهدت تموت من الحزن بعد مقتل والدتها أو شقيقها أو أقرب صديق لها.

كان "شي شياو" يذبل تدريجيًا تحت أعين أقزام الـ"بنزي" الحزينة في "ديمبا"، عندما جاء ثعبان "سيبا" - وهو ثعبان إفريقي ضخم وخطر - يحوم في القرية. أقام الثعبان مسكنه في

جحر مهجور يقع مدخله العميق والواسع بين الجذور المتعرجة لشجرة هائلة على بعد أمتار قليلة فقط من بعض المساكن. واتُفِقَ على مطاردة الثعبان لإزاحته بعيدًا عنهم، إذ إن وجوده يهدد الجميع ويُثقِل كاهل آباء الأطفال الصغار الذين لديهم قصص مؤلمة لأولاد أو بنات صغار وقعوا بين أنياب الثعبان الوحشية الحادة التي سحقتهم على الفور. بالإضافة إلى ذلك، كان لحم الثعبان صالحًا للأكل أيضًا ويمكن استخدام جلده لصنع قطع من الملابس. ولذلك فقد صمم سكان قرية "ديمبا" جميعًا على قتل الثعبان.

طُلِبَ من "شي شياو" الانضمام إلى الصيد، فقبِل دون حماس أو تردد. كانت الحيلة المستخدمة لإخراج الثعبان من ملجأه فيها الكثير من الجرأة، يغطي أحد المتطوعين ساقيه بمزيج من أفرع النخيل الخشنة ودم القرود قبل أن يدخل بساقيه أولًا في مدخل الجُحر المظلم. على أن يُربَط خصره بألياف قوية ومَرِنة قبل دخوله الجحر. كانت الحيلة تعتمد على أن تجذب رائحة دم القرود الثعبان، فيختلط عليه الأمر ويعتقد أن أرجل الصياد هي فريسة جريحة تأتي مباشرة نحو فمه، فيبدأ في ابتلاعه. وعندما يدخل بعمق في حلق الثعبان حتى منتصف جسده، يهز الرجل الحبل بقوة فيسحبه الصيادون المنتظرون عند مدخل عرين الحية. ثم يتبع ذلك مواجهة القوة بين الرجال والثعبان. أحيانًا كان الحبل يَنحَلُّ وتُسمَع بعدها صرخات رعب الرجل قبل أن تهضمه أحشاء الحية. وفي أحيان أخرى، لا يقوى الثعبان على التخلص من الفريسة التي ابتلعها فعلًا حتى عمق كبير، فيضطر إلى الخروج من عرينه إلى السطح فيقطع الصيادون فمه المنتفخ من كل جانب بعيدًا عن الساقين المبتلَعتين حتى يُحرَّر الصياد قبل أن تُنهَك قواه تمامًا. وهنا يتلوَّى الثعبان المُقطَّع من الجانبين من الألم، ويظل في تشنجات مدةً ولا يموت تمامًا إلا بعد عدة ساعات من العذاب. وهكذا مات ثعبان قرية "ديمبا".

ظل "شي شياو" مفتونًا بجمال الثعبان وتأثُّر بأنماط نقوش جلده على وجه الخصوص. وقد استقرأ من تلك النقوش كم الهندسة الطبيعية المثالية التي ضمنت الاستمرار السري لوجوده. وهو الذي لم يبارح ذهنه فشله في مهمة تقطيع صديقه "بيير كلايس"، واستقر في اعتقاده أنه لن يصادف ذلك المصير الذي توقعه له أستاذه والذي احتوى عليه الرمزان 黑暗 كمستقبل حتمي، تلك الرموز التي يزدان بها الصندوق الخشبي الذي يحتوي على معدات أساتذة التقطيع الخاصة به. واستقر في قرارة نفسه أن هذا الفشل في تحقيق المصير المتوقَّع بمنزلة إقصاء له من العالم وإقصاء له من شعور الحب.

وجد "شي شياو" هنا فرصته في أن ينغمس في رسوم ونقوش الطبيعة التي لا مثيل لها والتي توقَّع فيها سلامًا نفسيًا وأثرت فيه كثيرًا.

وبعد عدة أيام من الرسم والعمل، تمكن "شي شياو" من الانتهاء من وشم رائع أشبه بلوحة جدارية رائعة امتدَّت من الوجنة إلى فك أحد رفاقه. وحينما مال الرجل المُسمَّى "جوما" فوق سطح بِركَة ورأى نفسه في انعكاس الماء، رأى الوشم جميلًا جدًا، وخُيِّلَ إليه أنه رأى روحًا، ثم أدرك أنه ينظر إلى وجهه. أخذ يضحك فرحًا وتجمعت قبيلة "ديمبا" بأكملها حوله، مُعجبين ومتأثرين بفن "شي شياو"، ثم غنى "جوما" بعفوية أغنية متعددة الألحان مُعقَّدة بشكل نادر. لم يسمع "شي شياو" مثل هذا الإيقاع الموسيقي من قبل. ومع أن أساتذته قد لقنوه علومًا خفية، فهو قد تفاجأ بذلك الشكل الجديد من الفن والشجن الجميل في أعماق الأدغال.

بدا أن كل مغنٍّ ينوِّع من ألحانه دون كسر للتيمة السائدة والتوازن العام للقطعة الموسيقية. كان للموسيقى طنين بين الأشجار مشابهًا لصوت خلية نحل عملاقة متناغمة، مليئة بالعسل الحلو. أدرك "شي شياو" أن أقزام "بينزي" في "ديمبا" قدَّموا له نسخة موسيقية شبيهة بأنماط جلد ثعبان "سيبا". كان كل صوت يمثل إضافة فنية للعرض الموسيقي. وكانت الأصوات تتقاطع مع بعضها كأنها عالم متقاطع يُكمِل بعضه بعضًا.

قدَّم أقزام "بنزي" في "ديمبا" معًا عرضًا لـ"شي شياو" لشكره على فنه وبدا له أنه على أعتاب مستقبل آخر. وقد تجمَّع الجميع في دائرة واحتفوا به ومنحوه معهم حياة أخرى. في الأيام التالية، تطوَّع "شي شياو" لوشم أي شخص من القبيلة يرغب في أن يُوشَم بأنماط الثعبان. ظل لمدة أسبوع يفعل ذلك. وفي صباح أحد الأيام، أخبره صياد عائد من رحلة استكشافية أن شابة من الـ"بانتو" ورجل من شمال إفريقيا كانا يبحثان عنه. جاءا من "بنجالا" ووصلا لتوهم إلى محطة "أوبوتو"، على بعد بضع عشرات من الكيلومترات جنوب القرية. وفي اليوم التالي، بعد وداع مليء بشعور التأثر، انطلق "شي شياو" إلى "أوبوتو" برفقة اثنين من الصيادين.

***

عَلِمَ "شي شياو" أنه مُطارَد من قِبل السلطات الاستعمارية، فتخفَّى قليلًا ولم يرغب في الظهور علنًا في محطة "أوبوتو". وعلى ضوء المحطة، عرض أحد الصيادين اللذين رافقاه، ويدعى "كومبو"، الذهاب في جولة استكشافية ومحاورة العمال المحليين ومعرفة المزيد عن فتاة قبيلة "البانتو" ورفيقها القادم من الشمال الإفريقي. ومن حسن الحظ، فقد صادف "سيلو" نفسها، التي كانت تنتظر "محمد هجرس" تحت شجرة موز الذي ذهب ليسأل المستعمرين البيض عن "شي شياو". مع بعض الكلمات والإشارات، تمكن "كومبو"، الذي لا يعرف شيئًا تقريبًا عن لغة "سيلو"، من جعلها تفهم أنه يمكن أن يقودها إلى الرجل الذي تبحث عنه.

حاولت "سيلو" أن تسأله:

- هل هو خطر؟

ولكن الصياد وجد صعوبة في الفهم. وفي هذه اللحظة رجع "محمد هجرس" الذي استطاع في أثناء أسفاره أن يجمع ويفهم بعض كلمات لغة أقزام حوض الكونغو. تبادَل الحديث لبعض الوقت مع مبعوث "شي شياو" ثم التفت إلى "سيلو".

- يقول إن الرجل الذي نبحث عنه هو أرق الكائنات وأكثرها حبًا وأنه لن يؤذينا أبدًا.

كان "شي شياو" والصياد الذي بقي معه ينتظران تحت ظل نباتات طويلة عودةَ صديقهما وتشاركا تدخين غليون تبغ طويل. كانت الطيور تغرد حولهما بكثافة وكانت أنغامها تخترق المسامع والكائنات المحيطة كشعاع الشمس. تأرجحت ثلاثة من القرود ذات الذيل البرتقالي الطويل من شجرة إلى أخرى. وكما اعتاد "شي شياو" استشراف المستقبل، أدرك في قرارة نفسه أن رفيقهما لن يعود بمفرده.

جاء "سيلو" و"محمد" و"كومبو" إليهم مع حلول الليل.

سألت "سيلو" "شي شياو":

- أحقًا عرفتَ أخي "مبانزو"؟

رد عليها "شي شياو" في هذا المزيج الغامض المُكَوَّن من اللغة والإشارات:

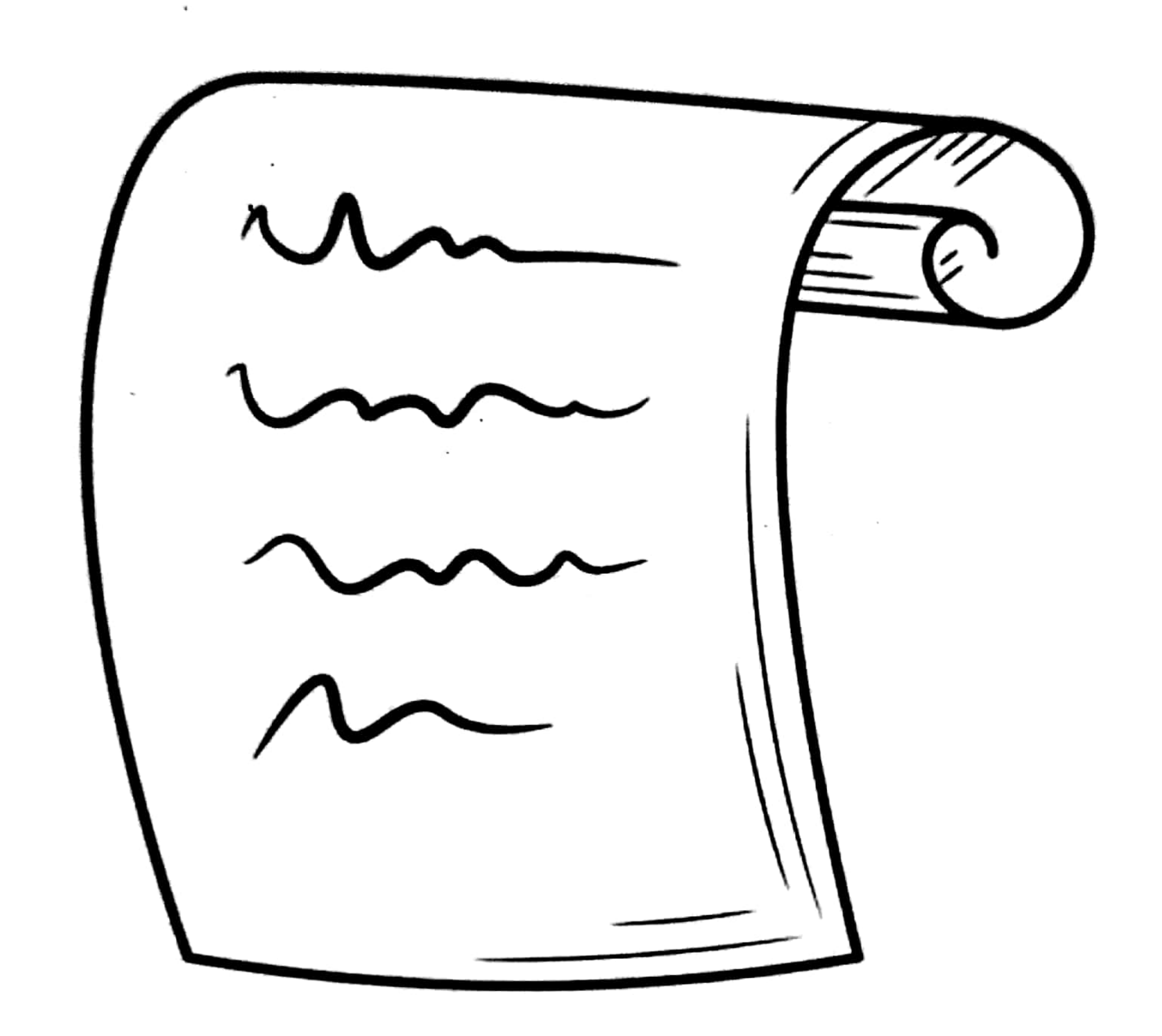
- نعم، كنتُ موجودًا في المساء الذي قُتِلَ فيه.

- أتعرف اسم من قتله؟

- اسمه "أونوريه تونان".. وكان معه رجل آخر يُدعَى "جوزيف لوكلير".

- أرشدني إليهما وسأقتلهما.

كان الليل قد حلَّ عليهم، ولأول مرة منذ عدة أشهر يبتسم "شي شياو" في حين لمعت عيناه في الظلام.



أصيب "بيير كلايس" بالذهول عندما وقعت عيناه على الخبر المكتوب بوضوح في جملة واحدة وقرأها مرتين وهو يرتجف وأمسك بالجريدة مرة ثانية وقد لطخ حبرها اللزج أصابعه، حتى إن مفرش المائدة الأبيض لم يسلم من هذا التلطيخ، إذ كان في مقهى "ليوبولد" يتناول وجبة الإفطار مع "فيلياس فاندر دورب". كانا جالسين لبضع ساعات في مكان غربي لتجنب مواجهة أشعة الشمس المشرقة، وعلى الطاولة نفسها بالتحديد التي التقى فيها "بيير كلايس"، قبل أكثر من عام "فون ويسمان" القاسي وقردته "لي لي"، جلس الرجلان بتكاسل واضح وقد ازدانت طاولتهما بالبيض والفواكه الملونة التي سبق أن قدمها لهما نادلان سوداوان ذوا ملامح حزينة يرتديان لباسًا مُلونًا مميزًا بلونيه الذهبي والأزرق. وانتشرت الشائعة كالنار في الهشيم في المدينة ووصلت إليهما كريح تعكر صفو الهواء وتسبب اضطرابه.. بدأ "بيير كلايس" قراءة "النشرة الرسمية لدولة الكونغو الحرة"، وظهرت هذه الكلمات أمامه:

"[...] تُقام جنازة الملازم الثاني "أونوريه تونان" وضابط البحرية "جوزيف لوكلير"، اللذين قُتِلا بوحشية في مركز "زونجو" حيث أدار كلاهما المركز ببسالة لمدة أربعة وعشرين شهرًا حتى الآن [...]".

تعرّف "كلايس" على الفور أسماء القتيلين، وفهم أن أحدهما قد انتقم لـ"مبانزو". دون إعطاء "فاندر دورب" أي تفسير، نهض وذهب إلى مكتب العقيد "بيترز"، الرجل الذي كان يشغل أعلى منصب في ذلك الوقت، وهو مدير جهاز المخابرات البلجيكية بالكونغو والذي كان في انتظار "كلايس". وباغته قائلًا:

- "كلايس"! قرأتَ المقال في النشرة الإخبارية، أليس كذلك؟ وحتى قبل أن تسألني، سأجيبك بأننا لدينا كل الأسباب للاعتقاد بأنها ضربة من ذلك الصيني الذي تعرفه جيدًا.

جلس "كلايس" وهو يحاول جاهدًا إخفاء الاضطراب الشديد الذي أصابه، وقد انتابه شعور الإثارة والقلق، وشعر بغصة في حلقه وامتلأت عيناه بالدموع. أوضح له العقيد "بيترز" الذي تمكّن بوضوح وبنجاح من إثارة قلق مُحَدِّثه أنه قبل شهر اختفى "أونوريه تونان" و"جوزيف لوكلير" في ظروف غامضة واكتُشِفَت جثتهما بعد أسبوعين على بعد مائة متر من مركز "زونجو" وقد سُلِخَ كل منهما بالكامل وصُفِّيَت دماؤهما. وقد فُقِدَ لسانهما وعيناهما واستُبدِلَ بهما حشو من مزيج العشب والتربة. وقد بُتِرَت الأعضاء التناسلية وبُتِرَت اليدان والقدمان. وفُصِلَ عدد كبير من العضلات وقُطِعَت بطريقة تجعل الهيكل العظمي - في العديد من الأماكن - مرئيًا بوضوح. ونظرًا إلى نظافة الجروح ودقتها فقد استُبعِدَ أي تدخل للحيوانات المفترسة قبل وفاة الجنديين الشابين وفي أثنائها وبعدها. حتى الحشرات نفسها تركت الجثث لا تشوبها شائبة وقد علت وجوههم ملامح الرعب والتوتر الشديد. واستطرد العقيد قائلًا:

- هذا ليس كل شيء، يا عزيزي، فجلودهما كانت مُلقاة إلى جانبهما.. وتخيل أنها قد دُبِغَت! لقد احتفظنا بها كأحراز.

رنّ العقيد "بيترز" الجرس. دخل ضابط المكتب فور سماع رنين الجرس، كما لو كان ينتظر طوال هذا الوقت خلف الباب. كان أحمر الوجه ويتصبب وجهه عرقًا.

- أحضر الجلود يا "كريفيرول"!

- حالًا أيها العقيد!

مرت نحو عشر دقائق وعاد الضابط "كريفيرول"، وهو لا يزال يتصبب عرقًا وازداد وجهه احمرارًا وهو يدفع أمامه عربة عليها صندوق خشبي. أشار العقيد "بيترز" إلى مكتبه بإيماءة فهمها "كريفيرول" على الفور بوضوح وفتح غطاء الصندوق الكبير ثم أخرج ما اعتقده "بيير كلايس" في بادئ الأمر بأنه معطف، وفَرَده على المكتب ثم أخرج الجلد الثاني بالطريقة نفسها. كان كل منهما مشقوقًا في أماكن متعددة ومع ذلك بدا الجلد متماسكًا كقطعة واحدة من الرأس

إلى الكاحلين متضمنة الذراعين والجذع. واتبعت الشقوق خطوطًا موشومة تمر عبر طبقات الجلد المسلوخ، شبيهة بنقوش الأرابيسك. أصيب "بيير كلايس" بالذهول ولم ينبس بنبت شفة. ثم تبادل "كريفيرول" و"بيترز" النظرات، وقد بدا أنهما يعدان العدة لتلك المواجهة منذ أيام.

- أتسمح لي أن أطلب منك، عزيزي "كلايس"، وأؤكد لك أن هذا من أجل استكمال تحقيقاتنا، وفي إطار الخصوصية التامة لهذا المكتب، أن تتكرم.. إذا كان هذا لا يزعجك.. عذرًا.. بخلع قميصك؟

انصاع "كلايس" وفك أزرار قميصه واحدًا تلو الآخر ووقف عاري الصدر. صاح النقيب في دهشة:

- إنه مماثل! كنت متأكدًا من ذلك وعلى استعداد للمراهنة يا "كريفيرول"! هذا هو الدليل القاطع الذي كنا ننتظره.

كشفت العيون الفاحصة لـ"بيترز" ومُساعِده عن التماثل الواضح في الأنماط ما بين وشوم صدر "بيير كلايس" العاري وبين الوشوم المجنونة لجلود "تونان" و"ليكلر" التي جعلتهما كالأشباح التي تَصَفَّى دمها وأصبحت فارغة، شبيهة بقناديل البحر النافقة على الشواطئ الداكنة في سماء بحر الشمال الكئيب. وبالنظر إلى الجلود المزجاة على المكتب الخشبي الأحمر لعقيد الاستخبارات، وبالنظر إلى الدهشة والشفقة اللتين تعلوان وجهي الضابطين اللذين فحصا صدره العاري، أدرك "بيير كلايس" - وهو الشاب البلجيكي الذي يعمل في خدمة ملكه - أنه هو أيضًا يحمل أحد هذه الأشباح الميتة على جسده النابض بالحياة. سحب "بيترز" قطعة من أحد أكوام رفات الرجل أمامه قائلًا:

- انظر.. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن هذا الصيني تمادى وترك قصيدة باللغة الألمانية!

وأشار إلى قطعة من الجلد يظهر عليها ما يشبه الأبيات الشعرية التي ترجمها قائلًا:

"هذا، الذي لا يعرفه الرجال،

أو هذا الذي يجهلونه،

عبر متاهة القلب،

يسير في ظلمة الليل..."

بحثنا على أمل أن يرشدنا هذا الكلام إلى معلومات.. ولكن الأمر يا عزيزي "كلايس" لا يتعدى

أكثر من كلمات قصيدة للشاعر الألماني "جوتة"! وهو أمر يثير التساؤل بالنسبة إلى صيني متعطش إلى الدماء!

كاد "كلايس" ينفجر بالرغم من هدوئه الظاهري، حتى إنه كان يريد القفز بسرعة من كرسيه، وتجاوز المكتب الخشبي الأحمر وشبحي الجلود المدبوغة، وتحطيم الجدار المجاور له ثم الركض بعيدًا عبر الأدغال وهو في حالة من الذعر والاشتياق في آن واحد. الاشتياق إلى "شي شياو" وإلى يديه المداعِبة، يديه القميئة أيضًا، يديه ذات النشوة والغضب في آنٍ واحد، ويعهد إليه بكل دموعه التي ملأت قلبه المظلم الذي تاهت لياليه. لكنه في الحقيقة لم يستطع فعل أي شيء من ذلك إلا أن يتلعثم وينطق بسؤال سطحي لا يحمل أي مضمون حقيقي قائلًا:

- لكن لماذا لم أُستَدْعَ بمجرد تسلم الجلود؟

التزم العقيد الصمت دقيقة ثم استطرد قائلًا:

- كنا سنقوم بذلك قريبًا.. لكننا كنا نتساءل بفضول أكنت ستأتي بنفسك، إذا كنت لا تزال مهتمًا بهذه القصص وشؤون الكونغو.. لقد تأثر الملك بقصتك، أتعلم ذلك؟ وطلب عدم الضغط عليك.. لكنك جئت! أنا سعيد بذلك يا "كلايس".. فيمكنني الآن أن أسألك هذا السؤال الذي حمّلني الملك إياه: «عزيزي "كلايس"، هلا ذهبت إلى الأدغال برفقة مجموعة من الجنود للعثور على ذلك الصيني وقتله؟» "كلايس"، إن الملك "ليوبولد الثاني" شخصيًا يعرض عليك الانتقام الشخصي والانتقام لشرف بلجيكا والانتقام لشرف الرجل الأبيض.. سيأخذ الجنود أوامر صارمة بأن يعهدوا به إليك حيًا، ووقتها يكون لديك متسع من الوقت للانتقام منه بنقش الأعمال الكاملة لـ"جوته" بالحَربَة على خصيتيه إذا كنت ترغب في ذلك.



في الواقع، كان "محمد هجرس" هو مَن كتب أبيات "جوته" على أحد فخذي "أونوريه تونان" الذي كان لا يزال حيًا في ذلك الوقت. وقد قطع "شي شياو" النخاع الشوكي كما فعل أيضًا مع "جوزيف ليكلر"، حتى تُشَلَّ حركتاهما ويظلا بلا حَراك. وأتيحت الفرصة لـ"سيلو" و"محمد هجرس" لتعرُّف ذلك الفن السري للوشم وفن التقطيع البشري على أجساد الشابين البلجيكيين على أيدي "شي شياو". من المهم جدًا هنا تحديد أن الرفقاء الثلاثة لم يرتكبوا هذا الفعل بدافع

التعذيب السادي والهمجي الذي اعتاد الغرب أن ينسبه إلى أي شخص لا ينتمي إليه. لقد مارس "شي شياو" و"سيلو" و"محمد هجرس" فنون نحتهم في قلب الجحيم الاستعمارية حتى انغمسوا في بشاعة غير مدركين إياها أذابت نفوسهم، وجعلتهم ينحدرون إلى مستوًى من اليأس والغضب والدموع لم تكن أنفسهم تتخيله، إلى حدود مثيرة وعنيفة وكأن العالم قد انهار من حولهم، وقد صار كل شيء في العدم ولم يتبقَّ سوى أسرار هذا التصوف المظلم للأجساد والمصاير.

في ذلك فقط سيجدون قدرتهم على إضرام النيران.. سيجدون بريقًا من الرفض والغضب.. سيجدون وضوحًا.. سيجدون المستقبل بثمن باهظ ألا وهو الدم.

كانوا قد وصلوا إلى محيط "زونجو" قبل بضعة أيام. دخل "محمد هجرس" المركز، مدعيًا أنه تاجر رقيق قادم من الشرق، وسرعان ما التقى "لوكلير" و"تونان". في المساء، تمكّن من صب مستخلَص الخشخاش المُنَوِّم الذي عهد إليه به "شي شياو" مذابًا في النبيذ. سرعان ما فقد جميع البيض في المركز القدرة على الحركة. ثم وصل "شي شياو" و"سيلو" وساعدا "هجرس" في نقل الأجساد الخامدة لقتلة "مبانزو" بعيدًا في الأدغال حتى يستحيل العثور عليهم. لاذ العمال الأفارقة بالمركز بالصمت، وهم الذين جُنِّدوا قسرًا واستُغِلّوا وأُذِلُّوا باستمرار، إلى حد تشويه بعضهم. شاهدوا المتواطئين الثلاثة يختفون في الليل مع ضحاياهم النائمين.

في أثناء مشاهدة "سيلو" وهي تسلخ جسد الضابط الشاب "لوكلير" الذي كان لا يزال حيًا، فهم "شي شياو" من طريقة انزلاق نصل الشابة على أرابيسك الحبر والدم الذي رسمهم "شي شياو" على سطح جلد الجندي، أن أمامه طالبة مميزة ستكون يومًا في مستوى الأساتذة. ولقد سبق أن رأى هذه الموهبة في "مبانزو" من قبل. واكتشف في أخته الذكاء الكافي في فهم آليات تقطيع اللحم البشري بتميز واضح. رأى "شي شياو" في "سيلو" إحساسًا فطريًا وفهمًا عميقًا لتلك الفنون المثيرة.

استطاعت "سيلو" اكتساب مهارات يدوية بناءً على حواسها الدقيقة ومواهبها الدفينة، ومهارات الإحساس بالموت والمتعة، والاستمتاع بموت المعتدي والاستمتاع بالحِداد بعد ثأرها. تدفقت كل تلك الأفكار في رأسها وفي كل جسدها، حاملةً معاناة هائلة، فيضانًا من الدموع والهياج، وانفجارًا حادًا من الغضب الممزوج بفرحة الثأر وهي تُشوِّه أجساد الجنديين المشلولين اللذين كانت عيونهما مفتوحة ومتسعة وتقطر رعبًا. شعرت "سيلو" بنشوة الانتقام بشكل لا مثيل له. ذلك الانتقام العارم بداخلها الذي جعلها دائمًا في صراع عنيف. وقد خُيِّلَ إليها منذ صغرها أنها على معرفة سالفة بقتل شقيقها.. ونهب قريتها.. ومذبحة عائلتها.. واغتصاب

إفريقيا.. وخذلان الأقدار. راودتها كل تلك الأفكار حينما كانت تسلخ الجلد من اللحم، وتُفرِغ المعدة وتلقي محتوياتها على الأرض، وتُشرِّط الخصيتين الدهنيتين من الداخل. من الآن فصاعدًا ستُطلِق على "شي شياو": "الأستاذ المعلم"، وسيطلق هو عليها: "الملكة"، لأنها تملك تلك القوة لتَعَلُّم المستقبل.

***

تطلَّب الأمر أجسادًا أخرى لممارسة موهبة "سيلو" وإكمال تدريبها. بالسفر جنوبًا، وصل الأصدقاء الثلاثة إلى مركز "جونجو" المعزول الذي شغله ثلاثة ضباط استعماريين لديهم من القذارة والسادية ما جعلهم يلجؤون إلى جميع أنواع العنف، بالضغط على العمال واحدًا تلو الآخر بشتى طرق التعذيب لإجبارهم على جمع المزيد والمزيد من المطاط، مطمئنين إلى طاعة أوامرهم جراء احتجازهم نساءهم وأطفالهم رهائنَ في "بنجالا"، على بعد نحو مائتي كيلومتر. شعر "شي شياو" أن هؤلاء الثلاثة سيحققون مقصدهم.

تسلل "محمد هجرس" واستخدم مستخلص الخشخاش المنوِّم نفسه، الحيلة السابقة نفسها كما في "زونجو" باستثناء أنه لم يكن من الضروري الفرار من المركز لتقطيع الضحايا. ومرة أخرى، لم يُبدِ العمال الأصليون أي محاولة للمقاومة أو الرفض كما لم يظهروا أي فرح أيضًا. بدوا مُدمَّرين. لم يفهم أي منهم حقًّا ما حدث لحياتهم. أصبح كل شيء من حولهم موتًا وحزنًا وعنفًا حتى أضحوا صامتين لا يتكلمون إلا قليلًا جدًا.

كان تقطيع البلجيكيين الثلاثة وقتلهم طويلًا وصعبًا بشكل خاص. أصرَّ "شي شياو" على أن يكون الأمر كذلك. عند الفجر، لم يبقَ حيًا من تلك الأجساد إلا جمجمة مسلوخة ما زالت تنبض بالدماء. كان هذا الرأس المنزوع العينين والجلد والعضلات لا يزال يفتح فكه قليلًا وينبعث من أنفه صوت ما شبيه بغناء الكلب، وكأنها نغمات بسيطة لأغنية شعبية قديمة. وتحركت الجمجمة قليلًا من اليسار إلى اليمين، وحرَّكت العضلات القليلة الباقية. بدت الجمجمة هادئة وكأنها استجابت لتلك الموسيقى النابعة من نقوش الجسد. تأملت "سيلو" هذا الوجه الحاد للرجل الذي شوَّهته بيديها، وفكَّرَت كثيرًا في تلك الروح العمياء والعاجزة حبيسة ذلك الرأس العظمي الذي يرقد عند قدميها التي فارقت جسده على نغمات أغنية. وعلى الرغم من بشاعة الموقف، فإن رد فعلها كان هادئًا، فكما يموت الناس البسطاء ويحين وقت حفر قبورهم، شعرت بالشفقة وقت موت رأس هذا الرجل القادم من أوروبا البعيدة.. كيف أصبح بهذه القسوة وكيف أصبح بهذا الشر.. وتمنت لو أنها لم تحضر تلك الأحداث وتمنت لو عاشت في حقبة زمنية قبلها أو بعدها.

***

كانت درجة الرعب التي ألحقتها أوروبا بالكونغو تتزايد من أسبوع إلى آخر. ومع ازدياد حركات التمرد أصبح القمع أكثر عنفًا وضراوة وأشعلت نيران الكراهية غضب الرجال الذين كانوا في السابق مسالمين، هؤلاء الرجال تحولوا إلى أشخاص أكثر عنفًا وأكثر شراهة للعنف تجاه السكان الأصليين حتى الأشخاص الصالحين منهم، سواء كانت أصولهم من بروكسيل أو لندن أو برلين الذين غيّرتهم الأطماع وشهوة السُلطة والوعود بكميات أكبر من العاج والمطاط إلى أشخاص عدوانيين للغاية، كشخص مكبوت لمدة طويلة، فقرر اغتصاب ما يمكن اغتصابه بشكل فِج.

لم يسبق أن رأى أحد مثل هذا النهج المفضي إلى الموت والدمار. فقد قتل أتباع هذه الدولة القاتلة والعنصرية في كل أنحاء البلاد، مئات الآلاف من أرواح الأفارقة فيما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى فناء حضارتهم. وقد اختلط الطين بالدم على الأرض كالحشرات الهائمة المتعانقة مع بعضها حتى الموت. ذهب "سيلو" و"شي شياو" و"محمد هجرس" إلى ثلاثة مراكز ألا وهي "أوبوتو" و"لمبيجا" و"باسوكو"، وقد اتبعوا الطريقة نفسها التي انتهجوها سلفًا، واستمرُّوا في فن التقطيع البشري مع صعودهم لنهر الكونغو. برعت "سيلو" في ذلك الفن بوضوح. وبعيدًا عن الصعوبات الفنية الأولى، فقد كرّست جُلَّ غضبها للبحث في كل ضحية من ضحاياها عن سر البشاعة البشرية.

تساءل "شي شياو" في قرارة نفسه: "متى نوقف مسيرة ذلك الفن الدموي؟ وأين؟". كان واثقًا من أنه في يوم ما سوف يقربه هذا العنف الذي ينتهجه من مكان "بيير كلايس" بالضرورة. لكنه لا يعرف يقينًا كيف سيعود إلى حبه. حتى اليوم الذي التقى فيه "جون" و"ماري ماك ألبين". فعرف "شي شياو" كيف ستسير دفة الأمور، وأصبح يرى مستقبله واضحًا تمامًا، كجريان الماء الصافي، من تلك اللحظة الدقيقة إلى اللحظة التي لا تقل دقة عنها وهي لحظة وفاته.

وصلت أخبار اغتيالات مركز "أوبوتو" إلى "ليوبولدفيل" في بداية يناير 1892، عندما كانت بعثة "كلايس" الثانية - التي لم تعد علمية، بل أصبح هدفها انتقاميًا - تكمل استعداداتها النهائية. عُيِّنَت فرقة من اثني عشر جنديًا لـ"بيير كلايس" للعثور على "شي شياو" والقضاء عليه. كان يقودها الضابط "جوليو سان كور"، وهو شاب يتمتع بالنشاط والإرادة القوية، وترجع أصوله إلى منطقة "نورماندي" وكان يتهامس قائلًا إنه مُكلَّف في الكونغو كجاسوس فرنسي. وبناء على طلب "كلايس"، أُلحِق "فاندر دورب" بالبعثة طبيبًا، في حين كان هناك ثلاثة من الصيادين من شلالات "ستانلي" يعملون مُرشدين ومترجمين فوريين. وسيتقاسم الخمسة عشر رجلًا الأحمال

الكبيرة للمعدات والطعام والذخيرة.

انتشر خبر مقتل "إمبيجا" و"باسوكو" قبل أيام قليلة من المغادرة. أصبح موقع الجلاد الصيني أكثر وضوحًا. كانت الخطة بسيطة للغاية. استُئجِرَتْ سفينة بخارية للبعثة اسمها "فيل دو بروكسيل" أو مدينة بروكسل، وكان قبطانها ألمانيًا، وسوف تبحر حتى "باسوكو". وهناك سيبدأ استجواب المسؤولين في المكان وأيضًا السكان الأصليين. وستُجمَع كل المعلومات من أجل الإمساك بذلك الذي تجرأ وتحدى دولة الكونغو الحرة كما أطلقت عليها الصحافة اسم "الميناتور الأصفر".

استعاد "بيير كلايس" الكثير من عافيته وقال الطبيب "دريبونت" إن جروحه تلتئم وتتعافى بما يكفي لعودته مرة أخرى إلى الأدغال. بالإضافة إلى نقوش الأرابيسك الغريبة التي تلتف حول جسده، كان جلد "بيير كلايس" يتجدد بلون وردي بديلًا عن الجلد السميك المهترئ - شبيه بلحم مُطَعَّم بمسحوق اللوز - في كل الأماكن التي طالتها شفرة حب "شي شياو". ويبدو أن هذا اللحم المتجدد قد أمدَّ صاحبه بطاقة حديثة متجددة، وكان يزدهر على سطح جسده ويتشابك بسرعة كما لو كان نباتًا سريع النمو يستمد الطاقة من جذوره. وبدا هذا الجلد الجديد كجلد طفل وليد. وقد ترسَّخ في ذهن "بيير كلايس" أن القدر لن يقدم له جلدًا آخر وعليه أن يقدم نفسه مرة أخرى للكونغو كإنسان وليد جديد خرج للتو من رحم والدته، بدا ككومة لحم جديدة مثل جميع الحيوانات التي تُولَد، لا يزال غَرضَة للموت قبل أن يذوب في الوجود تمامًا. لقد نزل إلى الساحة من جديد وهو يحمل الكثير من الطُّهر والنقاء بعد أن انسلخ عن جلده القديم في حياته الماضية، مصممًا على العودة إلى هذه الأرض، هذه الأرض الإفريقية التي طالما أراد تقسيمها.

***

أبحرت باخرة "فيل دو بروكسيل" من "ليوبولدفيل" يوم 21 يناير 1892 حاملة على متنها أبًا يحمل سرًا، وابنًا يجهل الحقيقة، ولكن كان كلاهما سعيدًا بفكرة أنهما لن يعودا أبدًا.

في العاشر من فبراير توقف مفوض مقاطعة "الإكوادور"، "شارل لومير" لوهلة قصيرة في "إكواتورفيل" عندما رأى "كلايس" و"فاندر دورب" قادمين صوبه، جاءه انطباع غريب برؤية شبحين يعاودان الظهور، فعلى الرغم من سماعه خبر بقائهما حيين، لطالما كانا في ذاكرته أمواتًا. أحدهما قُطِعَ، والآخر جاف وقاسٍ مثل حكيم الشرق القديم. عَرَضَ على كل منهما إحدى فتيات الليل الخاصة به، ولكنهما رفضا العرض.

تطورت "إكواتورفيل" إلى حد ما منذ زيارة "كلايس" الأولى، قبل أكثر من عام. فقد بُنِيَ مبنى

حجري يضم إدارة المقاطعة وأحاطت به عدة مبانٍ أخرى ذات عوارض خشبية على الطراز الغربي. وقد ظهرت الشوارع هنا وهناك، من خلال الأرض الترابية التي يمكن عبور العربات عليها بسهولة. ثم ابتعد "كلايس" قليلًا عن مفترق الطرق الإداري والتجاري هذا، ورأى مجموعة من العمال الأصليين يجلسون في ظل وفير من أشجار النخيل. قد كانوا مجموعة من الرجال الذين يبدون كالأشباح. ولولا الدم الذي يجري في عروقهم لما بدوا أحياءً وقد شردت نظراتهم وأُنهِكوا حتى الموت، وقد كُبِحَ جماح عواطفهم وشُوِّهَت أحلامهم وتطلعاتهم. مكث "بيير كلايس" في الكونغو الآن منذ ما يقرب من العامين، وهو يعرف جيدًا كيف تسير الأمور. لقد أُوقِفوا هناك كالماشية المنهكة عديمة الفائدة. أخذ "بيير كلايس" يفكر: "ماذا أفعل؟" هل يأخذ مسدسه ويطلق النار على رأس "لومير"، كما فعل مع عميلي "موكانجا"؟ لا، هذا بلا فائدة. هل يدير مسدسه ويطلق النار على نفسه؟ بالتأكيد هذه واحدة من أكثر الأشياء المنطقية التي يجب فعلها. لكن أولًا، يجب العثور على "شي شياو" والسماح له بإنهاء عمله والبصق في وجه أمثال "شارل لومير" وأمثال "ليوبولد الثاني" في هذا العالم. ابتعد "بيير كلايس" عن بستان النخيل دون أن يتحلَّى بالشجاعة للنظر إلى أعين هؤلاء الرجال للمرة الأخيرة.

غادرت الباخرة "فيل دو بروكسيل" "إكواتورفيل" يوم 12 فبراير. بعد دقائق قليلة من مغادرتها حدث شيء غير عادي، خرج نحو اثنا عشر من طيور الزُّقة الإفريقية من الأمواج وهبطوا على سطح القارب، وأخذوا يثنون ويفردون أعناقهم الطويلة، وهم يفحصون الطاقم بأعينهم الثابتة في غضب، وبدا كأنهم يريدون شيئًا غامضًا لا يمكن إعادته إليهم أبدًا. مكثوا هكذا بضع دقائق ثم طاروا بعيدًا.

***

عادت نوبات القلق وأدوار الحُمَّى مرة أخرى، وحينما صعد "بيير كلايس" هذا الجزء من نهر "الكونغو" الذي لم يعرفه بعد، والذي كان منحنيًا مثل الشريان الأورطي الصاعد، بدا وكأنه يخترق الكونغو، قلب إفريقيا المحتدم. شعر "بيير كلايس" في بعض الأحيان أنه ينزلق إلى تيار الحياة المظلم. كان كل شيء من حوله يموت ويحتضر بالرغم من صخب الحياة التي تعج من حوله على الضفاف وخارجها. وخُيِّل لـ"بيير كلايس" أنه يغرق في هذا التيار من الدم القاتم بسبب تلك الطفيليات التي هاجمته وأتلفت أعصابه وسببت له الحُمَّى الباردة. ثم أخذت طريقها إلى القلب لتقتل وجوده بعد أن أفسدت جسده ولوَّثته بوحشية. لقد خانته الأقدار، أصبح ذلك واضحًا بجلاء ويجب التذكير به دائمًا، فالحياة تقتل الحياة، والقاتل هو أول من تموت بداخله الحياة. مثل تلاشي آلاف الحشرات عند موتها في أثناء الليل، مثل الثعابين مقطوعة الرأس،

مثل عيون الحيوانات الكبيرة، مثل كل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال المكروهين مثل جميع الأوغاد، مثل العالم كله. لقد دُمِّرَ كل شيء إلى الأبد. هناك اثنا عشر جنديًا جاءوا للقتل. اثنا عشر تابعًا للملك لا يملكون من أمرهم شيئًا.. اثنا عشر كلبًا لا يفهمون.. لا يفهمون أي شيء على الإطلاق سوى القتل والانتقام.

فقد "بيير كلايس" وعيه عدة مرات، كان يصاب بالتشنُّج، وقد شخَّصه "فاندر دورب" بأنه في مرحلة متقدمة من الملاريا، يحدث فيها هذا النوع من الغيبوبة حينما تصل العدوى إلى المخ. وخلال هذه النوبات التي يغيب فيها عن الوعي، كان يتراءى لـ"كلايس" في ومضات، ذلك الكوكب السيئ الذي رآه في أثناء الهلاوس التي أصابته حينما كان يرقد في مشفى الطبيب "دريبونت" الأوروبي في "ليوبولدفيل"، ذلك الكوكب السيئ الذي هدد كوكب الأرض والذي تراءى له أنه كان يحمل تاريخ السابقين من أسلافه منذ ملايين السنين الذين تسببوا في وجوده وتسببوا في فناء العالم. ويحمل أيضًا تاريخ من بنوا حضارات ونحتوا مدنًا في الجبال، ووضعوا فيها ثروتهم المادية والمعنوية. هذا كوكب يحوي الإرادة الشرسة لإمبراطورية متعالية متحذلقة تقوم على أنقاض الآخرين، شديدة الثراء لا ترى سوى نفسها ولا ترى شعوبًا من حولها، ولا يمكن لأحد أن يقاومها وإلا سيلقى وبالَ أمره من القتل والإبادة والمزيد من القتل حتى تصل إلى الهيمنة الكاملة.

وعادت مدن الحجر والذهب إلى ذهن "بيير كلايس"، مع سقوطه في الغيبوبة، وكذلك عاودته رؤية الكوكب البري، وانفجرت جميع هذه المدن: "بروج" و"فلورنس" و"البندقية" و"كولونيا" و"لوبيك" بعد أن احتقنت وانتفخت ثم انفجرت لتنثر عدوى من الجراثيم، تصيب جلد أوروبا بسرطان مزدهر متمدد، لا يمكن إيقافه. يتجاهل الموت بشكل دؤوب ويتحايل عليه باللجوء إلى أماكن شبيهة بالأقبية والحارات والأزقة، وعاودته رؤيا ذلك الزوج الذي يبدو كجثة ترتدي لباسًا من أقمشة نادرة. لقد أمسك بيد زوجته وباليد الأخرى رسم علامة التقوى. تلك العلامة التي خرجت من الأرض وتحمل معها الثروة والموت في آن واحد لتخترق الزمان والمكان لتصيب قلب إفريقيا في مقتل، وبدت عيون الزوجة كعيون زهرة قصيرة العمر، تحمل في بطنها جنينًا وترتدي ثوبًا وثيرًا من اللون الأخضر على سرير أحمر اللون ويقف عند قدميها كلب صغير مبتسم. تحمل جنينًا لطفل قادم بائس يطمح أن يملك العالم بناءً على دعمها الذي سيتخطاه فيما بعد.

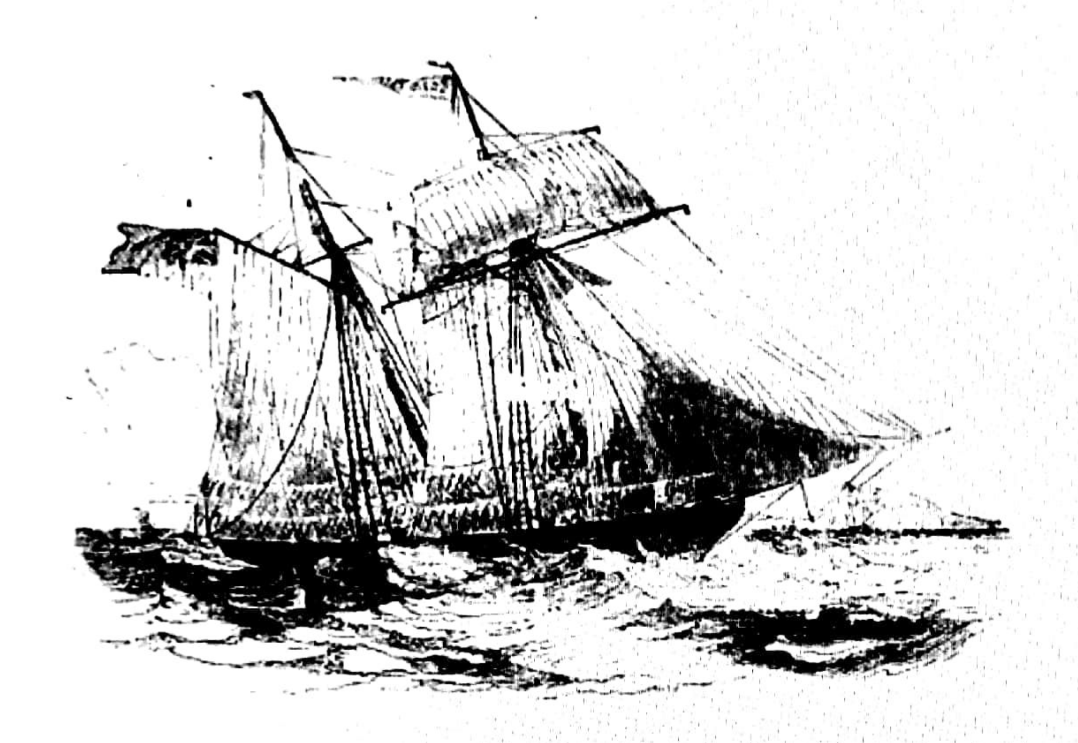
وفي إحدى الغرف التي تراءت له، يتدلَّى عقد من الأحجار الكريمة على عنق الزوجة، أحجار مُستخرَجة من باطن الأرض، وفي قلب هذه الأحجار توجد عوالم أخرى بها قلاع حقيقية، بها

رفاهية مفرطة، وغرف قصور إيطالية الطراز، مفتوحة على العالم، بها أعمدة فخمة تحمل سقفها، وتصير العلاقات الإنسانية حديقة معلقة، وحديقة من الزنابق والورود يعيش فيها طائر الطاووس، وتتنزل فيها ملائكة ذات أجنحة ملونة، لديها تيجان فخمة، وتُطل على مدن تجارية مزدهرة كخلايا النحل إلا أنها غارقة في الآثام، على امتداد نهر به تعرجات واسعة، نهر هادئ ومسالم، يجلب إلى المدن الثروات من أماكن أخرى بعيدة، من عوالم تبدو بريئة لكنها لا تخلو أيضًا من الآثام.

وفي غرفة أخرى، يبتسم الطفل الصغير للأم، سيد المملكة، وهو يقف عاريًا بجسده الضئيل، وقد انحنى رأسه قليلًا إلى الأمام، وتلمع عيناه وقد أحاطتها هالات الحياة بالرغم من صغر سنه، لديه من العلم الكثير ما يجعله يشعر باحتياج العالم إليه بالرغم من ضآلته. وينظر إلى العالم من خلال نافذة عالية وسط أراضٍ خصبة كالجِنان. أما الأم فهي صامتة وغارقة في أحزانها وسط خادماتها. وكان المكان واسعًا، به فراش مبطن بالحرير الأخضر، وله ألواح خشبية منحوتة بالزنابق واستقرّت بها مدفأة مهيبة. أما في الخارج، فقد بدت السماء الزرقاء للمدينة، وسط صخب التجار ورنين الأجراس، وقد فُتِحَ باب في الأسفل يظهر منه ممر عميق يمر به رجل في نهايته خلسةً، يرتدي رداءً أحمر بغطاء رأس أزرق في حين ترتدي الأم فستانًا أزرق بغطاء رأس أحمر وقد بدا له شخصًا مألوفًا، أو ربما محبوبًا. ثم حانت منه التفاتة تُطلُّ منها نظرة مُذنِبة تبدو وكأنها أصابت الطفل في مقتل وقد انفصل سريعًا عن الأم وطفلها، ومع أنه انفصل عنهما فإنه أبقى الطفل في مجال رؤيته، وقد تسبب ذلك في كراهية الطفل للواقع، وموت إفريقيا ونهاية كل سعادة.

وقد زار الألف غرفة واحدة تلو الأخرى داخل الكوكب الملعون، مثلما يزور المرء متحفًا للوحات الفخمة، عرف "بيير كلايس" على وجه اليقين أن هذا الكوكب سيضرب الأرض ويقضي على الحياة فيها، ويضربها في قلبها المظلم، قلب أدغال الكونغو. وكانت هذه الرؤى تصيب "بيير كلايس" بالذهول. ثم عاد إليه وعيه بصعوبة بعد نحو عشرين دقيقة، واستيقظ ليجد "فاندر دورب" يرعاه في قلق. ثم لاحظ كلاهما أن ملاءات السرير ملطخة بالدماء، وأن الندوب التي ملأت جسد "بيير كلايس" تتفكك ببطء، كما لو أن الجلد الجديد الذي نما فيه ينزف في بداية وجوده.





في إحدى أمسيات أوائل مارس، اقتربت الباخرة من "فيل دو بروكسيل". نزل منها "بيير كلايس" بصعوبة وهو يشعر بالألم الشديد وساعدة "فاندر دورب" وكذلك "جوليو سان كور" الذي أظهر اهتمامًا عفويًا تجاه "كلايس" - رئيسه في المهمة - منذ الرحيل من "ليوبولدفيل" بالرغم من كونه جاسوسًا فرنسيًا. كان "كلايس" يهذي بسبب الحمى، حتى إنه كان يتشبث بملاءات سريره بكل قوة قبضتيه التي برزت منها عظامه، في حين حقق "جوليو سان كور" بجدية بين السكان الأصليين وبين موظفي مراكز "أوبوتو" و"إيامبيجا" و"باسوكو" و"إيسانجي"، وقد استدلَّ على الشهادات التي جمَعها وتحقق من صحتها بقدر الإمكان ووعد بالمكافآت لمن سيرشده إلى ذلك الصيني المتعطش للدماء.

مر "شي شياو" ورفاقه على كل قرية. وفي كل منها استطاعوا نشر أفكارهم عن الوحدة وعن نهضة إفريقيا وخلود حياتها ولقد استشرقوا مستقبل القرون القادمة. كان "جوليو سان كور" هو أول من عرف أن "شي شياو" يتنقَّل برفقة امرأة سوداء، حتى إنه جال بخاطره أنها أجمل من الكونغو كلها وأنها جاءت لتنتقم للموتى، ويرافقهما أيضًا رجل مثقف وفي غاية اللطف ولديه طاقة إيجابية يستطيع بثها الآخرين.

وكل ما قيل كان قد تحقق حتى الآن دون أدنى استثناء. وقد تنبأ "شي شياو" بمجيء مهندس المساحة المريض ورفاقه، وقد توقع أسئلتهم، بل أعرب عن اقتراب وفاتهم قائلًا إنه لن يعود أي منهم من حوض الكونغو حيًا، وستتجدد الجروح الدامية مرة أخرى لمهندس المساحة كما تتفتح زهور الحب والدم. أما "جوليو سان كور" فقد استخلص من تحقيقاته مع السكان المحليين بالجملة التي تنتهي بها إجاباتهم: "استمر شرقًا، استمر حتى شلالات ستانلي".

كان "بيير كلايس" يتلقَّى تقارير "جوليو سان كور" بابتهال لأنها كانت تؤكد أنه سيرى "شي شياو" من جديد وأنه ربما ينتهي قبل نهاية العالم التي تبدو أنها تقترب أكثر فأكثر كلما صعد النهر وقد تراءت لعينيه مياه النهر التي تبدو وكأنها تنزف دمًا وصرخات القرود التي تخرج عن مسارها والتغريدات الشاذة للطيور. ذبلت النباتات، وضعفت عزيمة الرجال في هذا المسرح الذي هو أسوأ بكثير من الموت. كان "بيير كلايس" يشعر دائمًا بانجذاب غريب وغامض تجاه "شي شياو" كما لو أن تعويذة ما قد أُلقِيت أو كما لو كان هو الشيطان نفسه، فقد أثار في داخله هواجس عنيفة بعضها شبيه بأوهام السعادة، وكانت تلك الأوهام العبثية شبيهة بشعور فتى يقابل حبه الأول وأحيانًا كان يثير في نفسه أوهام الغضب والكراهية تجاه جميع الرجال والنساء الذين لم يُعاصروا حياته البائسة وآلامه الهائلة عندما كان طفلًا، ولم يشعروا بانهيار عالمه، بل هاجموه باستمرار. هاجموه بسلطتهم الكريهة وواقعهم الدنيء ولم يعيروا انتباهًا للمخاوف، بل وقد نامت ضمائرهم وصدَّقوا أكاذيبهم البرجوازية، وفقدوا الأحاسيس المثيرة للشفقة في غمرة ماديتهم واكتفوا بإيماءات مقتضبة لا تعبر عن شيء سوى فشلهم في احتواء الموقف. ثم جاء "شي شياو" بعد ذلك وقد عصف بالوجود من حوله بعد ذلك الركود. جاء كوعد ظفر به من القدر، كذلك النجم الذي يخترق ظلام الليل ويخترق أوراق الشجر ويشعل الرغبات الكامنة.

وفي صباح يوم ما، قال "بيير كلايس" بضعف لرفيقه الذي قضى الليل يُمَرِّضه ويعتني به:

- "فان دي بور" يا صديقي، لطالما أحببتُ أبي مثلما يحبُّ العاشق.. فهروبه جعل حياتي مثل عذاب المحبين.

لم ينبس "فاندر دورب" ببنت شفه وقبَّل جبينه.

***

كانت هناك مجموعة غريبة تقطن باتجاه الشرق. على بعد نحو مائة كيلومتر، على طول نهر "ليندي" الذي يصبُّ في الكونغو وليس بعيدًا عن مركز شلالات "ستانلي"، حيث أسس قس إسكتلندي وزوجته جماعة دينية مثالية. قال البعض إنهم من أتباع "فورييه" صاحب مذهب اجتماعي ينادي باندماج البشر وتجانسهم. وقال آخرون إنهم من أتباع "سان سيمون" صاحب مذهب ينادي بالعدالة الاجتماعية، ولا أحد يعرف على وجه الدقة من يتبعون. كانت المنطقة لا تزال بدائية وبرِّية إلى حد كبير وقد أنشأت الدولة تفريعات لا تُذكر، خاصة فقط بإنتاج المطاط وكبح جماح ثورات السكان الأصليين. ومع ذلك، وفي غضون الأسابيع الأخيرة، أضحت منطقة

شرق شلالات "ستانلي" مركزًا للتمرد ومكانًا للفوضى والمواجهات بين الأعراق التي نشأت منها أفكار الانتفاضة والمقاومة. لم يعد ممكنًا لدولة "ليوبولد الثاني" تجاهل هذه المنطقة من الكونغو. هكذا شرح رئيس مركز شلالات "ستانلي" "فرانك كرامر" الوضع لـ"كلايس" و"فاندر دورب" و"جوليو سان كور". ففي نَظَره، تمثل البعثة المكونة من اثني عشر جنديًا فرصة مواتية للقمع، ذلك ما كان سيستغرق عدة أشهر لإحضاره بعض الجنود لـ"ليوبولدفيل"، لدرء خطر التمرد الذي استفحل في المنطقة.

- أنا مستعد للمراهنة على أن هذا الرجل الصيني يعمل على تأليب الزنوج علينا.

قال "جوليو سان كور":

- إنك محق. ما رأيك يا "كلايس"؟

لم تكن لدى "بيير كلايس" أي رغبة في إضاعة وقته في قمع أي تمرد. كان غارقًا في الحُمّى وما تُسبّبه من أفكار مجنونة وهلاوس، كان على العكس من ذلك، في هذه اللحظة يتمنى أن تشتعل الفوضى في العالم لتطهيره من وجود الرجل الأبيض – من بين ذلك وجوده هو - في الكونغو. ومع ذلك، كان حدسه يؤكد له أن "شي شياو" كان فعلًا في الشرق. ليس في مناطق المتمردين، ولكن عند تلك الجماعة الاجتماعية الدينية الموجودة على طول نهر "ليندي" الذي تحدث عنه "كرامر". أما "شي شياو" فقد اضطرَّ إلى عبور المناطق المتمردة، ووَعَظ فيها بوجوب الثورة، لكنه لم يبقَ هناك. كان "بيير كلايس" متأكدًا من أن "شي شياو" يتطلع إلى رؤيته مرة أخرى، ويبدو أن ذلك كان مستحيلًا في منطقة المتمردين، حتى مع اثني عشر جنديًا.. كان الأمر خطرًا للغاية. من ناحية أخرى، فالمكان المثالي للقاء هو وسط مجتمع مثالي معزول وبعيد عن الدولة. كان شبه متأكد من أن "شي شياو" مختبئ هناك، وكان من الضروري إيجاد طريقة لخداع "جوليو سان كور" وجنوده، وذلك بإرسالهم لقمع الجماعات المتمردة، وعندما يصل إلى هناك وبمجرد أن ينخرط الجنود في العمل والقتال، مقتنعين بأنهم أوشكوا أن يمسكوا بـ"شي شياو"، وجب التظاهر باقتناعه بالانضمام إلى هذا المجتمع المثالي الغامض. هو فقط يحتاج إلى رجل أو اثنين لمرافقته، وسيكون من السهل التخلص منهما لاحقًا. ناهيك بوجود "فان دي بور" الذي لا غنى عنه طبعًا. قال "بيير كلايس" وهو يشعل سيجارة:

- ليس هناك شك في ذلك، يختبئ "شي شياو" بين المتمردين.. وسيعثر رجالنا عليه هناك.

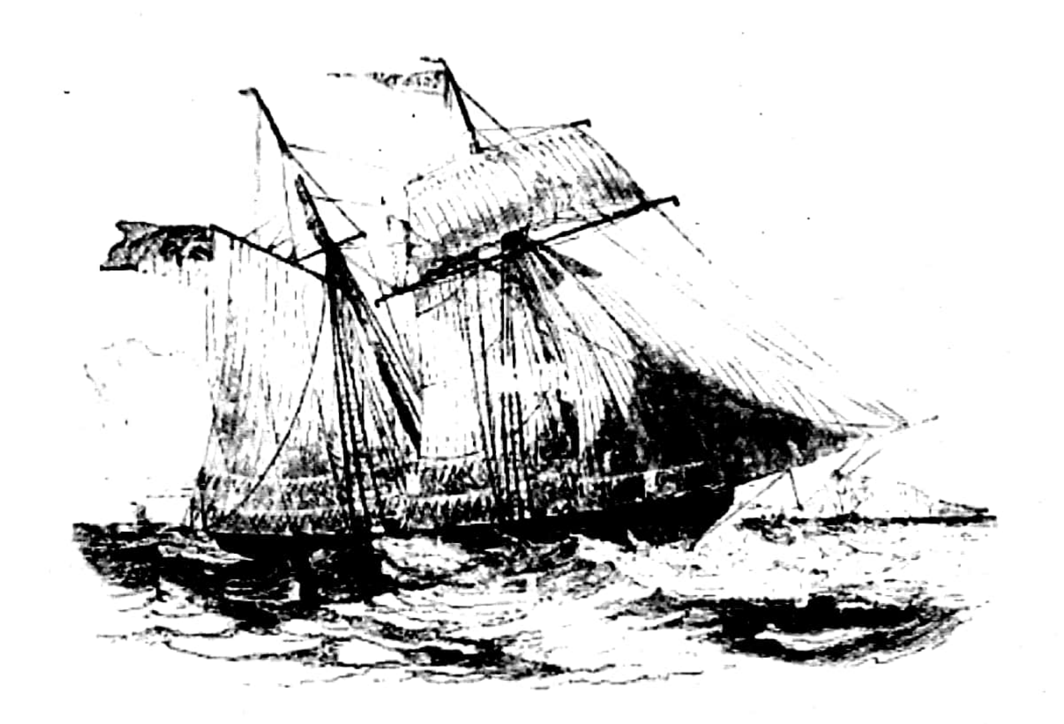
رد "جوليو سان كور":

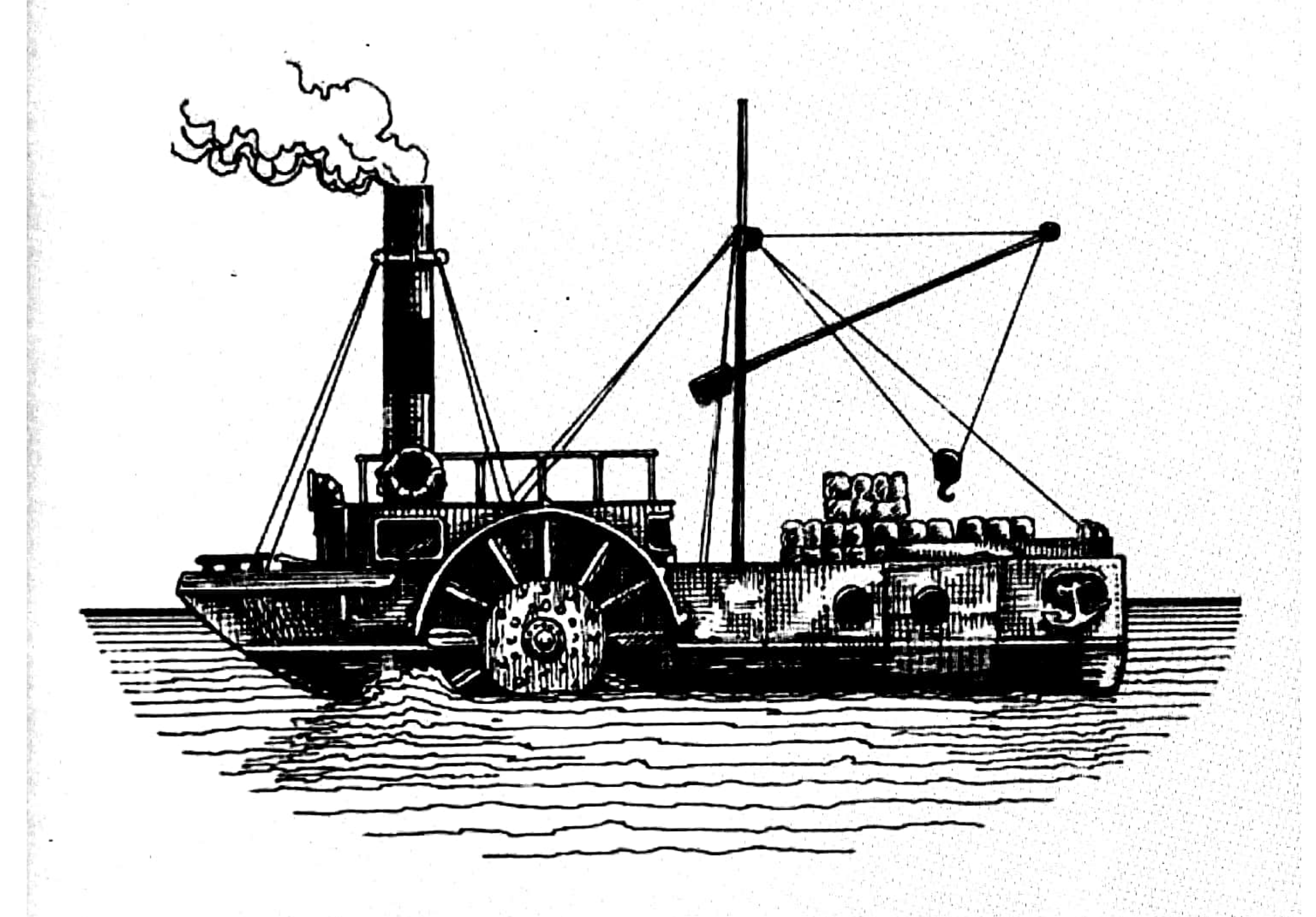
- ممتاز. دعنا نستريح هنا يومًا أو يومين ثم نستأنف صعود نهر "ليندي".

صاح "كرامر" بصخب وهو يقوم من كرسيه:

- رائع! أنتم شجعان أيها السادة، أنتم أبطال الحضارة الحديثة!

وأمر بإحضار زجاجة "ويسكي" وشرب في صحة الملك.





كان صعود المائة كيلومتر الأولى من نهر "ليندي" هادئًا بشكل مدهش ولا يمكن مقارنته بمياه نهر "الكونغو" القوية، بدا أن باخرة "فيل دو بروكسيل" تتقدم بسهولة في عكس اتجاه هذا التيار المنخفض. ويبدو أن الجنود قد نحُّوا أخلاقهم السيئة جانبًا وزالت عنهم تلك العنصرية البغيضة وشعر "بيير كلايس" على متن الباخرة، أنه يرى الشباب الذين وقفوا على سطحها بشكل آخر. كان العديد منهم من أصل ريفي جاءوا بعيدًا عن أوطانهم ولديهم حب كبير للطبيعة بحكم أصولهم. وقد استقرُّوا في مقدمة الباخرة، وراقبوا بصمت ضفاف الغابة وبدوا وكأنهم في إطار لمشهد مسرحي غامض. وقد ظهر في الخلفية قرد بين الأشجار يراقب بفضول هذا الطاقم الذي يعبر مياه عالمه. كان الضوء هادئًا ويعطي ضياءً أزرق على الضفاف وبدا الهواء وكأنه ينقي الصرخات والأصوات قبل صعودها إلى السماء. انتشى رجال "جوليو سان كور"، المرهقون والمحمومون، من هذه الرؤية الخام والمستحيلة للحياة، البعيدة عن متناول إيديهم، المفصولة عنهم بالموجات العريضة لنهر الموت النحاسي.

احتفظ العاملون من السكان الأصليين بأسرارهم فيما بينهم ولم يبدوها لأحد، ولذلك فقد عانوا في صمت وهم يفكرون في أحبائهم الذين كانوا يأملون في رؤيتهم مرة أخرى. رأى

البعض الضيق في عيون "كلايس"، وشعروا بأن عيونه تريد أن تقول شيئًا.. تريد أن تخبرهم أسباب أحزانهم. لم يدعمهم في شيء.. كانوا يعلمون أنه لا يوجد شخص أبيض في الكونغو يمكنه فهم آلامهم. حمل كل واحد من هؤلاء الرجال السود في قلبه ثورة على وجوده. وهذه الثورة لم تكن لتخمُد حتى خلال قرن من الزمان، بل ستتأجج نيرانها. أما عنهم في مثل هذه الأحوال، كانوا يموتون من الغضب والحزن في خضم شقائهم وتعاستهم.

***

وعلى الرغم من شرائط الشاش والمراهم الطبية، بدأت جروح "كلايس" تتفتح تدريجيًا. سال منها الدم مختلطًا بالقيح والسائل الليمفاوي. استلقى "بيير كلايس" على سريره وتحدَّث لساعات طويلة مع "فاندر دورب" و"جوليو سان كور". في أحد الأيام، روى لهما رؤيا حلم بها تُمثِّل نهاية العالم. لقد رأى عمالقة إلا أنهم في غاية النحافة يجوبون ريف بلجيكا المُدَمَّر والمحترق. كان لدى كل واحد من العمالقة زجاجة طويلة - تشبه الزهرية - مليئة بالدم والذي قيل إنه دم محيض. وكانت حركة العمالقة في غاية البطء وارتفعت حرائق ضخمة في السماء وأصبح الهواء معتمًا وخانقًا.

سأل "بيير كلايس" "جوليو سان كور":

- هل تعتقد أن هؤلاء العمالقة يمثلوننا؟

أجاب الضابط بعد لحظات من الصمت:

- أخشى ذلك.. كما أخشى أن يحل علينا غضب الله من الآن فصاعدًا.

لم يستطع "جوليو سان كور" التحكم في اضطراباته العصبية الطفيفة. لقد التفت إلى نافذة المقصورة الصغيرة وراقبه "بيير كلايس" بعينيه نصف المغلقتين، وحُفِرَتْ في ذهنه ملامح الشاب الحادة والمفاجئة مُباغتًا "كلايس" بقوله:

- أتعلم يا "كلايس"، أريد العودة الآن إلى منزلي قبل كل شيء.. مجرد العودة إلى منزلي...

قالها "جوليو سان كور" عبر التفاتة بسيطة، وشعر "بيير كلايس" أنه لأول مرة يلمح زرقة عينيه.

***

بعد ثلاثة أيام من صعود نهر "ليندي" وعند شروق الشمس، ظهر للعيان رجل قصير غريب

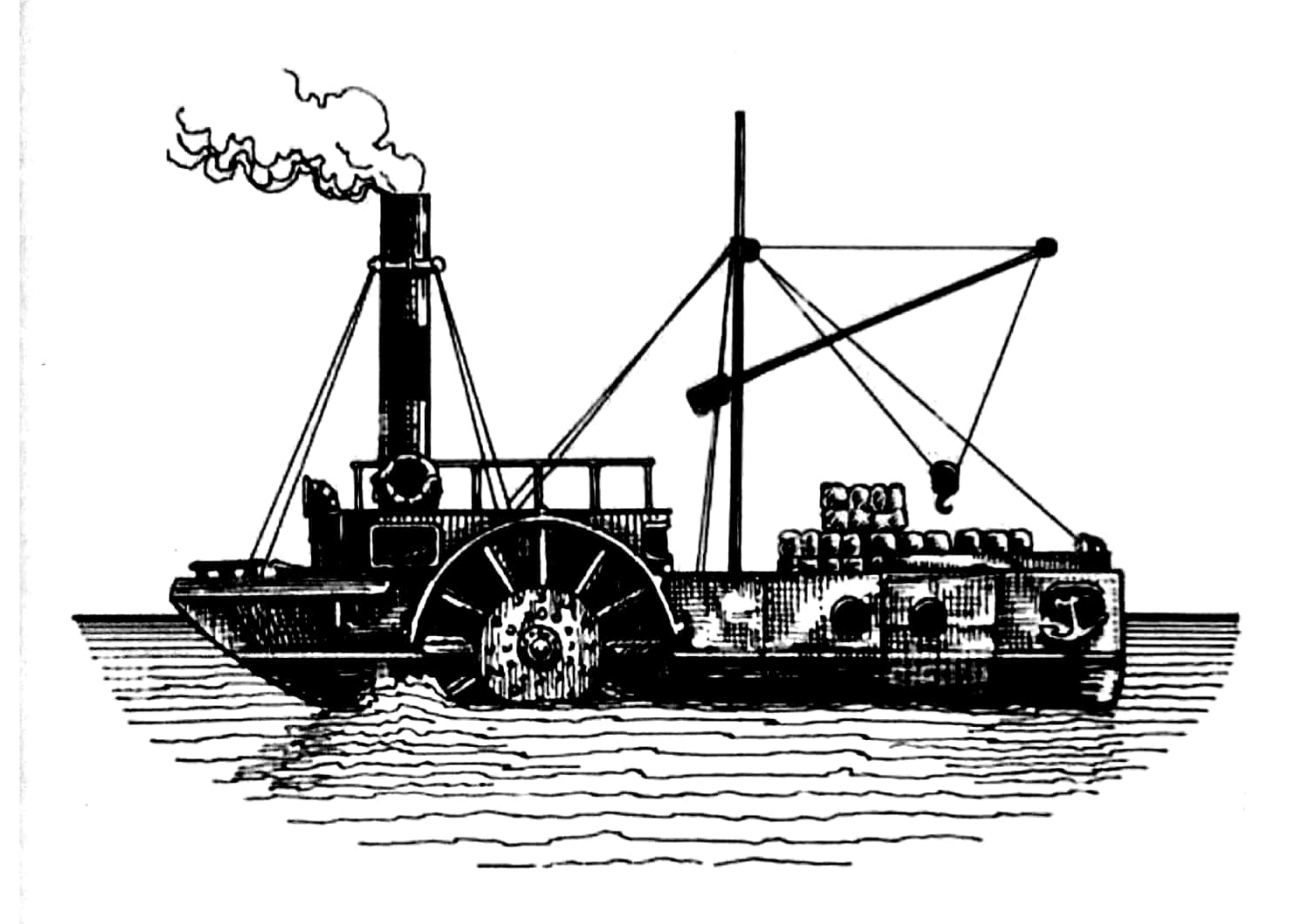
على الشاطئ ممتلئ الجسد قليلًا، كان شِبه عارٍ باستثناء رقعة تستر عورته ولديه شارب كثيف. كان يلوّح بيده في اتجاه مدينة بروكسيل، وهو يصرخ بكلام مضطرب باللغة الفرنسية مشوبة بلكنة جنوبية قوية. وبناء على أوامر "جوليو سان كور"، اقتربت الباخرة من الرجل الذي كان قادمًا يركض على طول الضفة المحفوفة بالأشجار. أخِذَ على متن الباخرة واستقر بها وهو يلتقط أنفاسه.

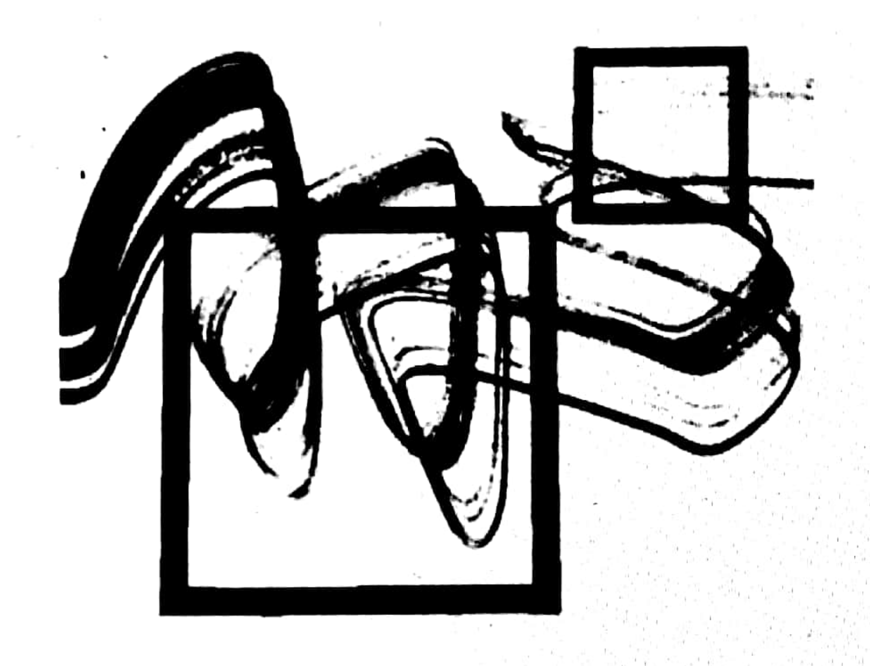
ثم التفت إلى "جوليو سان كور" قائلًا:

- اسمي "بيتيجيوم".. وأنا عضو سابق في الفيلق الأجنبي.. لقد جئت من طرف القس.. يريدني أن آخذكم إليه.. ولكن قبل كل شيء.. يجب عليكم.. الراحة لاستعادة قواكم وعافيتكم.. لقد أعددتُ حساء السمك لك ولرجالك.

لم يستطع "جوليو سان كور" إلا أن يبتسم ويقبل هذا الاقتراح.

وبعد ساعة، كان الطاقم بأكمله يستمتع بوجبة حساء السمك الشهي المطهو بسمك من المياه العذبة الاستوائية. أوضح "بيتيجيوم" لضيوفه أن أنهار الكونغو بها الكثير من الروبيان الكبير والعديد من أسماك السلور الشهي الموجودة بوفرة. وقد بدت جودة هذه الأسماك مُرضِية كبدائل لأكلات "مرسيليا" التي يفتقدها بشدة في أعماق الكونغو، كما يفتقد طهو والدته المُسنَّة. أعد "بيتيجيوم" طبقًا فرنسيًا يُدعى "لاروي" ويعتمد أساسًا على البطاطس، وقد أعدّه بمكونات محلية الصنع، وهذا ما دعاه إلى الفخر بذلك. وقد زرع البطاطس بنفسه التي يستخدمها في الطهي. وأخبرهم أن القس قد أحضر من أوروبا مئات اللترات من النبيذ الأبيض من نوع "باندول" التي شاركها بسخاء مع الجمع بأكمله. كما زُرِعَت الكروم، وسوف يُحصَد أول محصول عنب في وقت قريب جدًا. وعليه سيُطوَّر نبيذ به نسبة معادن عالية ونضارة واضحة مع لمسة عطرية جميلة من الموالح والزهور البيضاء. ويبدو أن هذه هي مواصفات نبيذ "كوت دو لا ليندي 1892" أو ضفة نهر "ليندي". وبعد تناول الوجبة غفل الجميع واحدًا تلو الآخر.





تفاجأ "بيير كلايس" بالهواء الممتع النقي الآتي من نافذة صغيرة على يساره. طبعًا ليس هواءً باردًا فهو ليس له وجود في الكونغو ولكنه هواء منعش، نقي، طاهر من كل تلوث بفضل رئتي النباتات والحيوانات، كأنه هواء يحمل نكهة الأشياء التي يمر عليها. عندما استيقظ على هذا الهواء النقي، تذكر "بيير كلايس" الصباح في "بروج"، وابتسم لـ"فاندر دورب" الذي استقبله بتحية كالأمراء. جالت في خاطره ذكريات والدته وشبابه الذي ضاع في الوقت الذي كبر فيه وأصبح فيه رجلًا، كان عليه أن يقتل أحداث الماضي لمنعها من الحدوث، فقد قُتِلَتْ طفولته في مهدها بعد فقدانه السَّنَد. لقد أصبح والداه سرابًا وفي خضم هذه الهواجس المتصارعة في ذهنه، فتح "بيير كلايس" عينيه مستيقظًا في غرفة مُشرِقة في كوخ ذي جدران من ألواح خشبية بنية اللون. وعلى إحدى الجدران، تراءت له ظلال خفيفة لثلاث أفرع من النخيل تهتز في مهب الريح. ظن لحظةً أنه عاد إلى المستشفى الأوروبي للطبيب "دريبونت"، وأنه عاد إلى تشويه جسده. ثم شعر "بيير كلايس" بأن جروحه تتشقق تحت شرائط الشاش. لكن نُظِّفَ جسده جيدًا وضُمِّدَ واعتُنِيَ بجروحه. وقد استقر في قرارة نفسه رفض أحزان الأمس والغد، والابتعاد عن المفاجآت وتقبُّل الواقع ومواجهة مصيره، ثم إنه من داخله كان واثقًا بأنه سيجد "شي شياو" قريبًا.

هنا سوف يخمن القارئ أننا اقتربنا من خاتمة هذه القصة. لكن في الحقيقة، ما زالت القصة تحمل الكثير من الأحداث. ويبقى أن نعلم حقيقة الأحداث وهي أن القس "ماك ألبين"، احتضن "شي شياو" و"سيلو" و"محمد هجرس" في جماعته طامعًا في تعلُّم فن تقطيع الجسد البشري، وأن طاجن السمك الذي أعده "بيتيجيوم" - رجل القس "ماك ألبين" - أعده بنبات منوِّم ينتمي إلى الأفيون وعلى إثر ذلك فقد أُسِرَتْ بعثة "كلايس" الثانية ما عدا الحمَّالين الذين تُرِكوا أحرارًا. وللمفارقة، فقد توقف قلب القبطان الألماني عن النبض في أثناء نومه بعدما أعاد ملء إنائه عدة

مرات من طاجن السمك السام، ثم إن "جوليو سان كور" ورجاله سيخضعون - كفئران تجارب حية - من أجل تعليم "ماك ألبين" فن التقطيع البشري. وأن "ماك ألبين" هذا اتضحت معرفته بشخص "فاندر دورب" بعد أن كان قد قابله في لندن وقد عفا عنه كما عفا عن "كلايس" بناءً على طلب "شي شياو". وما زال للحديث بقية لمعرفة المزيد عن مصير مهندس المساحة المُكلّف من الملك "ليوبولد الثاني" لتقسيم الكونغو. ونعود مرة أخرى لاستيقاظ "بيير كلايس" في آخر صباح في حياته في غرفة مُشرِقة في كوخ ذي جدران من ألواح خشبية بُنيّة اللون على بعد آلاف الكيلومترات من مكان نشأته وقد تراءت له ظلال خفيفة على شكل ثلاثة أفرع للنخل تُهدهِد العالم في سلام.

هارموني



وُلِدَ القس "جون ماك ألبين" في أوائل 1860 في إدنبره، حيث نشأ في أسرة برجوازية صغيرة إسكتلندية. وقد احتفظ بالذكريات القديمة لهذه المدينة مثل رائحتها المميزة التي لا توصف لعجائن تحمل مزيجًا من لحم السمك أو لحم العجل وخميرة البيرة وكذلك رؤية نُصب "سكوت" التذكاري، الذي شُيِّدَ لإحياء ذكرى الروائي "والتر سكوت" وقد ألقى بظلاله عليه هو وأمه في صباح يوم من أيام شهر مارس الربيعي وقد ارتبطت برودة ربيع مارس بأفكاره عن الحب وعن تلك الزهور المسماة "زهرة الثلج".

لم يختبر "جون ماك ألبين" أي أحداث مأساوية في شبابه. على العكس من ذلك، فقد استفاد من تلك الراحة الحالمة، من المكتبات وأضواء النوافذ الزجاجية الملونة المنزلية الخافتة التي هي رمز نهضة المدن في العصور الوسطى والتي صارت حكرًا على الطبقة البرجوازية. وفي طيات تلك الصالونات البرجوازية كانت براعم البناء بحروف الكتب التي تزخر بها هذه الحقبة.

اطلع "جون ماك ألبين" - وجدير بالذكر أنه طالب متفوق - على اللاتينية واليونانية في سن مبكرة جدًا، ومن سن الرابعة عشرة أصبحت له ميول واضحة تجاه علم اللغة الكلاسيكي. أصبح مفتونًا بتلك الإصدارات اللاتينية القديمة من النصوص التوراتية رجوعًا إلى النصوص اليونانية، والتي اتخذها موضوع دراسة لأطروحة في الأدب الكلاسيكي قادته إلى لندن لمدة عامين وناقشها مبكرًا بجامعة إدنبره وكان عمره آنذاك تسعة عشر عامًا. وتطور مع خبرة الدراسة لهذه الترجمات إلى جعل المحسنات الجمالية حَرفِيَّة دون الخضوع للتسلسل الهرمي الكَنَسي. وكان يمتلك رؤية خاصة مميزة للنصوص المقدسة مع الوضع في الاعتبار اتجاه تفكير العاملين بالمجتمع الكَنَسي سواء كانوا علمانيي الفكر أو ميَّالين إلى التفكير المادي. كان عامة شخصًا

مُلهمًا. كان التأثر العميق الذي شعر به عند دراسته هذه النصوص المقدسة بمنزلة تَوَجُّه إلى الدراسات اللاهوتية التي حصل بعد إتمامها على منصب الشمَّاس (خادمٍ بالكنيسة) التي حددت نهائيًا التزامه كونه كاهنًا في الكنيسة الأنجليكانية (كنيسة إنجلترا).

أصر "جون ماك ألبين" على خدمة المجتمع في إدنبره. كُلِّفَ بالوعظ في مجتمعات العمال التي اكتشف فقرها المدقع، ولم يكن يملك سوى معرفة سطحية عنهم جمعها من الكتب. عندما عاد إلى أرض الواقع بعد الدراسات الدينية، اكتشف الصدمة! هناك الآلاف من البشر جُنِّدُوا في غضون بضعة عقود، في إدنبره، وهي مسقط رأسه، من خلال منظمة للعمل اختزلتهم إلى ما يُسَمَّى بمصطلح الأيدي العاملة الذي كان وضعه الاجتماعي يعادل في حقيقته وضعًا مزريًا شبيهًا بالحيوانات. جاء العديد من هؤلاء النساء والرجال من الريف الذي دمرته الصناعة الجديدة اقتصاديًا، وهاجر آخرون - وغالبا كانوا أكثر فقرًا - من أيرلندا. لقد ضُحِّيَ بأفضل صفاتهم الإنسانية لمصلحة ما سُمِّيَ حديثًا بـ"رأس المال"، وكُبِتَ حماس هؤلاء الناس ورغباتهم وكُبِحَ جماحهم إلى الأبد، بل إنه يمكن اعتبارهم فاقدي شغف الحياة حبًا منذ نعومة أظفارهم، لا يملكون من الحياة سوى الأحلام الهزيلة.

لم تُسفِر جهود "جون ماك ألبين" عن راحة تُذكَر لمجتمع الطبقة العاملة في مدينة إدنبره القديمة، بل كانت النتائج معدومة. لم يَجِد أي إجابة في النصوص التي استنار بها، عن ذلك الخراب الذي عايشه. لقد صُودِرَتْ مقاييس الجمال والحكمة من هذه الطبقة العاملة. أو بالأحرى، حتى اعتقد أن مقاييس الجمال والحكمة الخاصة بجميع العصور قد شُكِّلَتْ من قِبل أولئك الذين هم علماء لغة مثله ويمتلكون النصوص واللغات، ونتيجة لوصوله إلى تلك الحقيقة المُرة أيقن أن هذا الترف لا تملكه إلا السُلطة. كان هذا الترف ترفًا سُلطويًا بامتياز. وهكذا ظل سارحًا في تساؤلاته الكثيرة.

كان "جون ماك ألبين" قد أحب الله فقط لأنه جاء من الأحلام والسماء، ولكنه بدأ يبتعد عنه، ثم وقع في حب امرأة.

القس "جون ماك ألبين" في سن الثالثة والعشرين، ليست لديه تجارب نسائية وظل يحلم ألف مرة بالحب حتى إنه وقع في غرام مفاجئ تجاه الابنة الصغرى لمعلم صديق لوالديه تُدعى "روزماري دنكان". كان مفتونًا بها لدرجة أن الأمر استغرق عدة أسابيع قبل أن يدعوها إلى الخروج معه. كانت مفعمة بالحيوية والعاطفة كما كان يتخيل. أخذا يتجولان وحكى لها عن النصوص القديمة في حين أخبرته هي قصصًا عن البحَّارة التي كانت مُربيتها تقصها عليها. استمعا لبعضهما وكان هناك إعجاب متبادَل بينهما. وعندما حل الربيع، ازدهرت الأشجار

المجاورة لنصب "سكوت" التذكاري. اعتقد "جون ماك ألبين" أنه استعاد الجمال الذي كان قد تركه في السماء، عند ملامسته شفاه "روزماري دنكان".

مرت ستة أشهر وأعلن العاشقان خطوبتهما. كان غرام "جون ماك ألبين" قد فتر بشكل ملحوظ. لم يعد كما كان، شيء ما انكسر بداخله. يبدو أن فكرة الزواج أصبحت مريبة. ووجد داخله ميلًا إلى نساء أخريات، وتبخر الشعور الساحر الذي تذوقه على شفاه "روزماري دنكان" تدريجيًا وعاد إلى الظهور في نساء أخريات، مثلما تنبعث حبوب اللقاح باستمرار من أزهار جديدة. كان يتجول أوقاتًا طويلة في الأحياء الفقيرة في البلدة القديمة، ويمر عدة مرات عبر الشوارع نفسها، ويعيد صعود شارع "كاوجيت" بانتظام، حيث كان المهاجرون الأيرلنديون متزاحمين ومرضى ومنكسرين، ومن بين هؤلاء شاهد طفلًا صامتًا ينظر إليه بدهشة وإعجاب. وحينما عاد إلى منزله، عانى إحباطًا غريبًا حاول جاهدًا تحديد مصدره الحقيقي، ولكنه لم يفلح.

وفي أحد الأيام، في غرفة مُزرية تكدس ثمانية أطفال لأحد العاملين بـ"شركة المطاط البريطانية الشمالية" وزوجته التي تعمل غسّالة والتي تُوفي ابنها الأصغر للتو بسبب الالتهاب الرئوي الجرثومي المدمر. حاول أن يواسيهما قليلًا، وكان قد اكتشف لوحة صغيرة بسيطة لزوجين يُقبّلان بعضهما في قلب الغابة في جو خريفيّ. بدا مشهد اللوحة عند وقت الفجر، وقد رُسِمَتِ السماء صفراء ورمادية باهتة بعد توقف المطر، وزاد من جمالها تداخُل فروع الشجر العشوائية. كانت اللوحة من عمل شخص بالغ، لكنها بدت كأنها قد رُسِمَت بيد طفل. كان الرجل باللوحة الذي امتطى حصانًا يرتدي قبعة مثلثة فوق ما يشبه الشعر المستعار المُغطّى بالبودرة وكأنها تعود للقرن الماضي، وبدت المرأة وكأنها امرأة أحد القصور. كانت اللوحة مُحيّرة: فقد بدا الحبيبان وكأنهما قد انتهيا من التقبيل أو كانا على وشك ذلك، كانت وجوههما متقاربة جدًا وكأن تأثرهما يشع من اللوحة. وبدوا وكأنهما ملك وملكة، تحت ظلال الغابة والفجر، وقد أنستهما رغبتهما العالمَ ألف مرة وأعادت إحيائه مرة أخرى. وفي وقت الفجر المبكر، وقف كلاهما وبدا وكأنهما يخفيان سرًا ما، ربما خيانة زوجية أو عداوة أسرية، وربما كان ذلك نابعًا من خفاء هذه الرغبة الجارفة التي ترفضها المجتمعات الإنسانية وقد تبخَّر هذا السر في هيئة إشعاعات غير مرئية تنير غلاف الأشجار المحيطة التي تشاركهما سرهما ليذوب في السماء في الخطوط الواضحة وغير المنتظمة لهذه اللوحة التي رُسِمَت بيد شخص تلقى القليل من التعليم، وتتناسب مع أحلامه الكبيرة وتأثره. لقد أزعج هذا الجمال "جون ماك ألبين". فقد كان جمالًا لا ينبع من أي سلطة، ولا من أي هيكل تاريخي، ولكنه ببساطة يعبر الزمن في هيئة آلاف الشخصيات التي تولد وتموت كما تولد الحيوانات وسط طمي المستنقعات. كوّنت الرغبة

والسماء وهذه اللوحة ثالوث الألوهية. خرج "جون ماك ألبين" إذن من خيالاته وكان يقف أمامه أب وأم فقدا طفليهما للتو.

فسخ "جون ماك ألبين" خطوبته وتغيَّر فكره وأسلوبه قليلًا، فأصبح متوترًا وعصبيًا وانتحل نظرية أن الرغبة أصلها ليس من العالم، ولكن العالم أصله الرغبة. وإذا رفض المجتمع هذه الرغبة إذن فهو يكشف عن أكاذيبه التي حفظت وما زالت تحفظ أكثر الناس تواضعًا، هؤلاء الذين سُرِقَتْ أحلامهم وقُذِفَتْ أجسادهم في قذارة بؤسهم. أفصحت اللوحة الصغيرة عن هذه الحقيقة العميقة. لم تكن اللوحة نتاجًا حضاريًا مزيفًا يُطلق عليه "الفنون الجميلة" التي تُوضع وتُحبَس في المتاحف، ولكنها نتاج إحساس بسيط لشخص صادق وغير معروف. لم ينبع حب القبلة من الحبيبين، بل كان في مستوى أعلى من ذلك. كان قد أعاد الحياة إلى فرشاة الرسام وإلى إشراقة السماء عبر أفرع الشجر في الخريف الذي يُظهِر اندفاع الرغبة الذي كان هو الدافع الوحيد للوصول إلى الحياة وإلى الحرية. فما الإنسان إلا رغبة لا يملك أن يقاومها. وعندما جاء الأسبوع التالي وعظ في أتباعه قائلًا:

- إذا تبعنا أهدافنا حتى نهايتها، سنكتشف الكثير من الأمور غير المتوقعة في الطبيعة وأيضًا في أنفسنا، سوف نُخرِج القوى المكبوتة للغزيرة التي احتبسها هذا العالم القاسي الذي شُيِّدَ، والتي عندما تظهر، تنشر الرعب. فقد كانت مضغوطة مدة طويلة وانفجرت في مصلحة الشر، وفقط أكثرهم جرأة هم من لاحظوا قوتها التي لا يمكن كبحها.

ثم استشهد بالفيلسوف اليوناني "كاليكليس" المعارض لـ"سقراط" الذي قال إنه "من أجل أن نحيا حياة طيبة، يجب الاهتمام بعواطفنا القوية بدلًا من أن نكبتها ويجب أن نضع أنفسنا في حالة إشباع لهذه العواطف". ثم قال إن "كاليكليس" قد أخطأ عندما فرَّق بين أخلاق السيد وأخلاق العبد، لأن إخراج كل الرغبات يجب أن يحدث في توافق وينتهي بتناغم جديد، وأن الحرية ستكون للجميع.. رجالًا ونساءً، أو لا تكون على الإطلاق!

دعا "جون ماك ألبين" في أحد الأيام إلى التمرد.. تمرد الرغبة وتمرد الحياة، ودعا كل رجل وكل امرأة إلى الإضراب العام منذ يوم الإثنين وحتى الحصول على مرتبات آدمية من ناحية والحصول على يوم إجازة إضافي من ناحية أخرى. واستطاع "جون ماك ألبين" لأول مرة منذ تنصيبه كاهنًا أن يغرس بصيصًا من الأمل في قلب أتباعه ومع ذلك، لم يستطع أن يحشدهم في عجالة وافتقر إلى الإستراتيجية المناسبة لذلك. لم يكتمل الإضراب العام واستُدعِيَ "جون ماك ألبين" في الفجر من بيته ثم حوكِم بتهمة التحريض العام. واتسمت عقوبته بالرحمة، فقد أُرجِعَ ذلك إلى حالة التخبط الشائعة بين شباب مهنته، وأُرسِل القس إلى دار لرعاية المسنين ليست

ببعيدة عن مدينة "سانت أندروز" الصغيرة التي تقع شمال إدنبره.

***

أصاب "جون ماك ألبين" في "سانت أندروز" جنون غير مسبوق بالكتابة. فقد كان خلال النهار يجوب الشواطئ الرملية أحيانًا والصخرية أحيانًا أخرى التي اجتاحت العشب الإسكتلندي وابتلعته في بطن بحر الشمال المظلم والبارد. أمّا في الليل، فقد كان يكتب بلا كلل ولا ملل بشكل مركّز، عشرات الصفحات المتعلقة بنظام العالم، الاقتصادي والجنسي على حد سواء، وظهور نشأة كونية جديدة من خلال تحقيق طرق الرغبة.

كان التشخيص الأول للأطباء الذين يتابعونه هو الصدمة الارتدادية للإرهاق - كان هذا غالبًا ما يصيب القساوسة الشباب - ولكنّ الأطباء بدأوا في القلق بشأن توازنه العقلي. احتوت الأوراق التي قرأها لهم في الصباح على عشرات الصور المجنونة المنتمية إلى تيار الباروك التي تربط الكائنات بالمصدر المُطلَق للبهجة والاستمتاع، والذي يشرف على حفلات العربدة الهائلة - وربما بين الكواكب - والتي دُعِيَت إليها أنواع الحيوانات التي تمكّنت من تحرير نفسها من قيود حضاراتها. وقد تناول في كتاباته المجتمعات البشرية بالطريقة نفسها التي تناول بها المجتمعات الحيوانية، وذكر مقاطع مُطوّلة عن كيفية تربية الفئران الحقلية أو تنظيم عمل النمل الأبيض. وذكر في كتاباته أن جميع الأنواع تُشكّل كتلة واحدة من الحياة، ذكاء واحد عليه الارتقاء نحو الحرية والمتعة، ذكاء يتطور مع اكتسابه المزيد من المتعة. وهكذا، فإن الإنسان قرد متطور أتقن متعته عن طريق تطور ذكائه وهذا ما أدى إلى اكتسابه اللغة. وبالمثل، كانت الثدييات البحرية من الثدييات الأرضية التي زادت من شهوتها من خلال تقديم نفسها للمحيط الواسع. وقد غمس بعض صفحات المخطوطة بخط يده من اليوم السابق بسائله المنوي، كأنه يطبق ما يؤمن به. لكن ما كان صادمًا بشكل كبير ربما كان الاعتقاد الذي لا يقهر والساذج وغير العقلاني في إمكانية وجود شكل ممكن من السعادة الأرضية. ووصلت هلاوس "جون ماك ألبين" أنه قد برّأ البشرية من أولى خطاياها وهي خطيئة آدم.

سرعان ما تحوّل "جون ماك ألبين" إلى ظاهرة اجتماعية في مجتمع "سانت أندروز" الصغير. لقد أحب الناس دعوته إلى تناول الشاي، والاستماع إليه حول الإمكانيات الجنسية للثعبان أو المنفعة الاجتماعية للألعاب الجماعية في مجتمعات الفلاحين في شمال "سوفولك" و"إسيكس". الشيء الأكثر إثارة للدهشة هو أن القس الشاب لم يدرك على ما يبدو أنه كان محل سخرية، وزادت هذه السذاجة من إثارة الشباب وهم جالسون يثيرون أجسادهم على كراسيهم. حتى إن شابة صغيرة تبلغ من العمر نحو خمسة عشر عامًا قد مارست سرًّا متعتها خلال إحدى خُطَبه.

كانت تُدعَى "لويز سويني". كانت تبدو محتشمة للغاية ظاهريًا، ومع ذلك كانت تكتم رغبة هائلة بداخلها مكبوتة لسنوات. إن المتعة التي وصلت إليها في أثناء الاستماع للقس الشاب قد تسببت في شعورها باضطراب بسبب حماسته. وفي المساء نفسه، تمكنت من خداع رقابة والديها والذهاب إلى غرفة "جون ماك ألبين" الصغيرة في صمت الأمواج والليل، حيث أضاءت شعلة شمعة مترنحة غرفة القس، وهذا ما سمح لها بقراءة بدايات فصل مُخَصَّص "للحب الحقيقي في هذا الكوكب الوحيد والمهجور المسمى الأرض". واشتعلت نيران الرغبة في "لويز سويني" عند قراءة كتابات "جون ماك ألبين" حتى إنها كانت كل ليلة تذهب إليه ويطفئون رغبات جسديهما معًا ثم يقرأ لها كتابات طويلة حول ظهور الرغبة والإصلاحات المستقبلية لجميع المجتمعات، وهذا ما أثار الأفكار الكثيرة داخل ذهن الشابة، ولفت انتباهها إلى وجهات نظر مختلفة لم تفكر فيها من قبل، كما لو أن زيف الحياة قد انكشف وسقط أخيرًا وظهرت الحياة على حقيقتها.

تملكت "لويز سويني" بدورها حالة مُلحَّة من الرغبة في الكتابة. وكرَّست كتاباتها في ستة أشهر فقط، عدة مئات من الصفحات لأطروحة عن التنظيم الاجتماعي في التناغُم الجنسي. كانت الاستثارة تجري في دمها، ومع ذلك لم تدع شيئًا منها يظهر. ظلت في نظر الجميع الآنسة "سويني" العذراء المحتشمة التي يخشى الجميع خدش حيائها ما عدا "جون ماك ألبين".

وذات ليلة، ضُبِطَتْ "لويز سويني" وهي ذاهبة لعشيقها وانكشف كل شيء. وكانت فكرة أنها تُسلِّم جسدها بكل بساطة لرجل مجنون فكرة غير مقبولة على الإطلاق. وأُلقِيَ اللوم كاملًا على "جون ماك ألبين" الذي لم يعد يُنظَر إليه على أنه شخص حالم ورائع، ولكن كشخص لديه انفصام، شخص خطر يخفي وراء الكلمات الذكية السموم الخفية للرذيلة والانحراف، مستفيدًا من تأثيره في صغار السن وتَمَكُّنه لغرس الشر في قلوبهم وإخضاعهم لشهواته الخبيثة.

صُودِرَتْ كتاباته وازدُرِيَتْ من قبل الطبقة البرجوازية المحلية وسارعوا إلى التخلص من هذه الكتابات. ونُسِبَتْ أطروحة "التنظيم الاجتماعي في الوئام الجنسي" إلى "جون ماك ألبين" على الرغم من اعتراض "لويز سويني" التي صرَّحت بمسؤوليتها عن كتابتها لأولئك الذين استجوبوها حول هذا الموضوع الذي وُصِفَ بـ"القذارة الاشتراكية".

***

نُقِلَ "جون ماك ألبين" إلى إدنبره ليُسجَن ويُحاكَم بتهمة اغتصاب قاصر. لم تُوضَع له السلاسل أو الأصفاد في أثناء توجهه إلى السجن احترامًا لوضعه ككاهن. وعند وصوله إلى إدنبره، استغلَّ لحظة عدم انتباه حُراسه وقفز من القافلة التي كانت تقله واختفى في أحياء البلدة القديمة

التي كان يعرفها جيدًا والتي كان الجميع فيها يتذكره.. كان سكان الحي الأيرلندي يتذكرون ذلك القس الذي كان قد دعا إلى التمرد، والذي لم يكتمل في النهاية، ولكنَّ كلماته الباعثة على الأمل والكرامة بقيت في أذهانهم. ولذلك فقط تواطأوا لإخفاء "جون ماك ألبين" بعيدًا عن أعين الشرطة حتى تمكن من الخروج من إسكتلندا والذهاب إلى لندن بمساعدة عصبة من العمال.

كانت أنشطة "جون ماك ألبين" في لندن يشوبها الغموض. وقد وصفه العديد ممن قابلوه بأنه رجل متحمس ونشيط ينتابه بعض الشرود. وتعددت الأقاويل عن أنشطة "جون ماك ألبين" في لندن، فهناك من قال إنها أنشطة تابعة لجرائم منظمة أو أنشطة محافل ماسونية أو عصابات تسعى إلى الفوضى.. لكن الجميع اتفقوا على نقطة واحدة، ألا وهي طموحه الجامح في تأسيس مجتمع منسجم ومتناغم بعيدًا عن أوروبا. وهناك حقيقة مؤكدة جديرة بالذكر: هي أن "جون ماك ألبين" تمكن من جمع مبلغ كبير من المال في لندن في غضون عام.

***

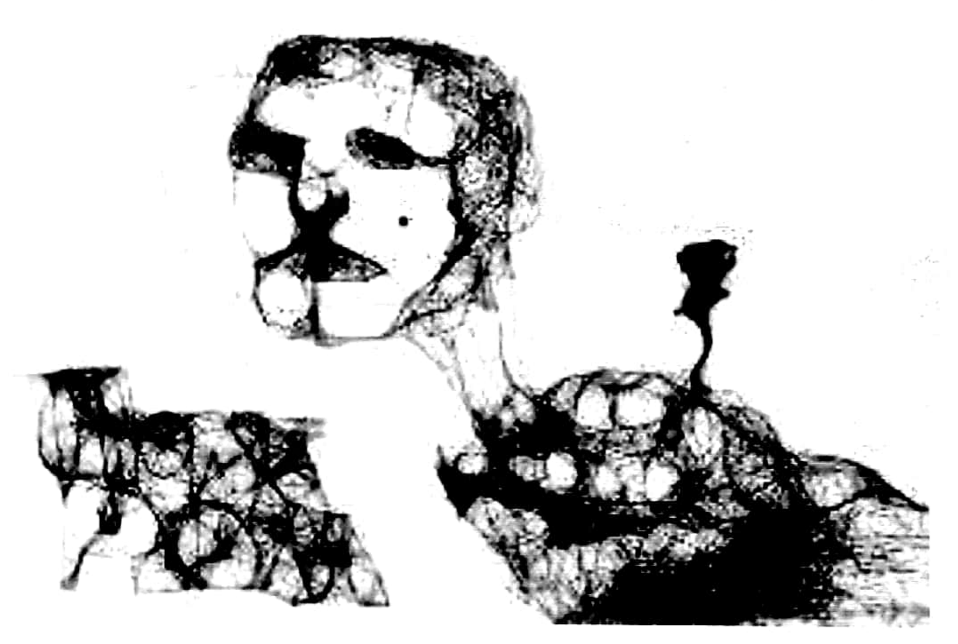
يُطل منزل أسرة "سويني" على البحر وكان منزلًا عاديًا غير لافت للأنظار، بيتًا هادئًا متواضعًا كما هو حال أصحابه، كان المنزل يحجب عن أنظار الجميع رؤية حديقة عجيبة، نبتت من وسط الصخور القديمة لسد قديم بـ"سانت أندروز". لم يكن لدى "لويز سويني" - والتي كانت قيد الإقامة الجبرية بصرامة منذ اكتشاف علاقتها الغرامية - لم يكن لها الحق في الخروج باستثناء حضور قداس يوم الأحد. كانت تنعم ببعض الحرية فقط في هذا المكان المرتفع الذي يمكن أن تنظر منه بعينيها الداكنتين العميقتين وتصب جام غضبها نحو البحر المظلم. كانت تبكي هناك من الحزن والغضب. وكان ذلك صيفًا حيث ترتفع الزهور الحمراء الضخمة من جنبات المنزل الصغير إلى السماء. وحينما حل الليل وهبّت الرياح المحملة باليود مداعبة الفتاة فوق المياه، سمعت أحدهم يهتف باسمها: "حبيبتي لويز". شعرت بغصة تعتصر قلبها، فقد كان ذلك صوت "جون ماك ألبين". وعند اقترابها من سور الحديقة، رأت وجه الشخص الذي تحبه بجوار السور. أدركت أنها لا تملك وقتًا كافيًا معه فأسرعت بإمساك يديه، ونظرت إلى عينيه، وقال لها:

- "لويز" يا حبيبتي.. ليس لدينا سوى وقت قصير، يجب أن تعلمي الحقيقة: أنا مطلوب من قِبل الشرطة.. لقد ذهبتُ إلى لندن وأصبحتُ غنيًا هناك. أريد أن أؤسس مجتمعًا حرًا بعيدًا عن هنا. أخبرني طبيب بلجيكي تعرّفته عن الكونغو.. وقررتُ الاستقرار هناك.. وقد اشتريتُ قطعة أرض هناك.. سأغادر "ساوثهامبتون"، وهناك قارب بالمرسى عند سفح هذا الجدار ينتظرني رجال أثق بهم بعيدًا على الشاطئ.. سيأخذوننا لنغادر اسكتلندا دون عوائق.. هل أنتِ قادمة معي؟

- طبعًا يا "جون".

- تشبثي بظهري.

وضع "جون ماك ألبين" يديه بقوة على السور الحجري، حتى تتمكن "لويز سويني" من التشبث به من الخلف كما لو كانت تتشبث بجذع قوي أو عنق حصان. حمل القس الشاب حبيبته على ظهره بهذه الطريقة، وبحذر نزل الجرف الحاد للسد القديم. عند وصولهم إلى أسفل، ذهبا إلى القارب. وكان المد مرتفعًا والبحر هادئًا. ثم اختفوا في ظلمة الليل. وهناك في "ساوثهامبتون"، أقاما تحت اسم مستعار في فندق على الميناء وانتظرا هناك السفينة التالية الذاهبة إلى الكونغو. وأبحرت السفينة "فيكتوريا" من "أنتويرب" إلى "ماتادي" وركبا على متنها بعد شهر. طوال الرحلة، تظاهرا بأنهما مخطوبان حديثًا وأظهرا التعقل والتديُّن والتحفظ. وعند وصولهما إلى "ماتادي"، بقي "جون ماك ألبين" في الميناء لكي يطمئن على وصول أمتعتهما بشكل سليم. وأخذت "لويز سويني" واحدة من العربات الصغيرة التي تجرها الثيران والتي دومًا تكون في انتظار الركاب عند الأرصفة لتوصيلهم إلى المدينة. وجلس إلى جانبها شاب، نزل أيضًا لتوّه من السفينة "فيكتوريا". كان اسمه "بيير كلايس" وكان مهندس مساحة كلّفه الملك "ليوبولد الثاني" بتقسيم الكونغو.





لقد طرق أحدهم الباب. قال "بيير كلايس":

- نعم!

دخل رجل وامرأة، مبتسمين وحذرين. تعرَّف "بيير كلايس" على الفور الشابةَ التي التقاها منذ مدة وجيزة عند وصوله إلى "ماتادي". لم تتغير، باستثناء أنها كانت ترتدي ملابس الرجال ونظرة عينيها تحمل شيئًا من الصلابة المشوبة ببعض مظاهر التعب. أما الرجل الهزيل، فكانت له لحية كثيفة تخفي تحتها شفاهًا رقيقة وهشة. اهتزت رأسه بحركة عصبية لا إرادية من اليمين إلى اليسار، وقد انخفضت رأسه قليلًا كما لو كان موافق سلفًا على كل ما يُقال. وبالرغم من مرضه الذي يبدو من الوهلة الأولى، فإن عينيه تلمعان بالذكاء المشوب بالحُمَّى.

- مرحبًا يا سيد "كلايس".. أنا الأب "جون ماك ألبين" وهذه زوجتي "لويز". أهلًا بك في "هارموني" أو تناغُم.

وقالت "لويز سويني" التي أصبح اسمها "لويز ماك ألبين":

- مرحبًا يا سيد "كلايس".

- أين أنا؟ من أنتم؟ وأين رجالي؟

- ابقَ مستلقيًا يا سيد "كلايس"، فالسيد "شي شياو" متشوق جدًا إلى رؤيتك من جديد.

جلس "جون" و"لويز ماك ألبين" على كرسي بالقرب من سرير "بيير كلايس" ثم بدأت "لويز" بالكلام وأخذت تتحدث ما يقرب من ساعة. بصوت ناعم ورقيق لا يبدو أنه تأثر بقسوة المناخ الاستوائي. روت بشكل مفصل قصة حبهما، وأفكارهما المشتركة، وهروبهما من اسكتلندا وإنجلترا، ورغبتهما في تأسيس مجتمع متناغم أسمياه "هارموني"، ورغبتهما في توحيد السود والبيض تحت سقف مجتمع واحد مستقر يملك العديد من الحريات الجنسية، وتحدثت عن مقابلتهما مع "شي شياو" و"سيلو" و"محمد هجرس"، وشغفهما بفن التقطيع البشري. وفي أثناء حديثها، نظرت إلى عيني "بيير كلايس" بثبات وعيناها تلمعان وعَرَضَت عليه ممارسة الجنس معها في وقت لاحق، "عندما تلتئم جروحك". وابتسم "جون ماك ألبين" مؤكدًا ذلك بإيماءة برأسه.

وأكملت "لويز" كلامها قائلة:

- أتعلم يا سيد "كلايس" بأن الرغبة لا تولَد من الأشياء.. بل الأشياء هي التي تولَد من الرغبة.. عندما يُقَطّع جسد رجل، يتبع السيد "شي شياو" الخطوط السرية للرغبات التي تمر عبر الواقع، والتي تنسج الماضي والمستقبل إلى ما لا نهاية.. لقد رأينا رعب البروليتاريا في أوروبا ورأينا بشاعة الاستعمار هنا في إفريقيا.. حضارتنا ليست ذاهبة إلى أي مكان.. إنها تركض نحو انتحارها، وتأخذ معها كل الحضارات الأخرى.. هناك بديل واحد فقط للموت العام وهو النشوة الاجتماعية والعالمية.. النشوة الجنسية هي مظهر من مظاهر الحاسة السادسة للكائنات: النشاط الكهرومغناطيسي، والطاقة النقية، الطاقة ذاتها التي تحمل العالم، والتي وضعها السادة "ماكسويل" و"لورنتز" في معادلة.. فالعالم يعتمد على الحسابات الدقيقة يا سيد "كلايس"، أنت تعرف ذلك، فأنت مهندس مساحة.. كل شيء نِسَبٌ هندسية.. ولذلك تؤثر فينا الموسيقى ولذلك تغني النجوم.. السبب الوحيد هو وجود النسبة والتناسب.. تضمن الهندسة المثالية للمجتمع العلاقات اللازمة لإطلاق النشاط الكهرومغناطيسي للكائنات.. والتدفق الحر لطاقة النشوة الجنسية يعيد تشكيل ويعيد اختراع واقع جديد.. وسيمكننا من أن نتخيل أجسامًا جديدة وأنواعًا جديدة ولغات جديدة تحمل أفكارًا لم يسبق لأحد أن فكر فيها.. كل الأشياء وكل الأشخاص يتحركون بشكل جماعي مُطرَد نحو مبادئ السعادة.. مبادئ التوافُق والتناغم.. إذا

نجحنا هنا، سنبدأ الحركة العامة.. إنه أمر لا مفر منه يا سيد "كلايس".. لا مفر منه.

ثم توقَّفت تمامًا عن الكلام. كأنها أصيبت بالذهول. استمر "جون ماك ألبين" في الابتسام وهز رأسه. ثم استطردت:

- لا بدَّ أنك مُتعَب. أنا أزعجك.. أرجو معذرتي.. إليك بعض الماء، فالجو حار.

ثم مدَّت له قربة ماء كانت تحملها على كتفها.

- احتفظ بها إلى جانبك وحافظ على رطوبة جسدك، سوف نعود لزيارتك مرة أخرى.

قام "جون ماك ألبين" و"لويز" ليخرجا وأغلقا الباب وراءهما برفق.

***

شرب "بيير كلايس" قربة الماء بالكامل ثم نام بعمق. في المنام سمع أنغام الناي الخشبي، كان صوته يغطي على صوت ماء النهر. وكان المكان مُحاطًا بالأدغال من كل النواحي. وكانت القطط البرية تتقدم من بين الشجيرات والأدغال المتشابكة من النباتات والأشجار النخيلية. كانوا يطوفون مثل سرب من الأسماك، بانسيابية وبحركات مموَّجة، وأعينهم شاردة في غموض. ونجح صوت الناي في تهدئتهم. كان "شي شياو" واقفًا هناك عاريًا ويحمل مشرطًا في يده اليسرى والثعابين الكبيرة ملتفة حول جسده، ورؤوسها في الهواء، ترقص على إيقاع الموسيقى، مثل الأذرع المتعددة لأسطورة شرقية. شقَّ "شي شياو" جلد القرد "ليوبولد" الذي بقي ممددًا وقد أغلق عينيه مستمتعًا بشدة والدم يقطر من جروحه ورديّ اللون، ثم قال "ليوبولد" باللغة الفلمنكية:

"أنت تقطعني ولطالما أحببتك".

أزال "شي شياو" جلد "ليوبولد" كاملًا، وباعَدَ "ليوبولد" بين أضلاعه بيديه، لاستخراج قلبه الذي ارتفع بضعة سنتيمترات في الهواء، مضيئًا ورطبًا، رماديًا ووورديًا مثل المسيح، ينبض بالحياة، وحدقت الثعابين والحيوانات البرية بأعينها بشكل أوسع من أي وقت مضى، أمام هذا السحر والعجب.

بكى "شي شياو" وأشار إلى السماء وارتفعت ثعابينه في اتجاه إصبعه وفي السماء الصفراء تهاوت أوروبا كلها على الأدغال، مثل كوكب مجنون، وفي غضون الثواني التي سبقت إبادة كل شيء، استطاع تمييز بلجيكا و"بروج" وجداولها، وسماءها المضيئة ومنازلها التي تشبه منازل العصور الوسطى البرجوازية، وواجهاتها القوطية واستطاع تمييز بيوتها من طراز أقمشتها

وكتبها وتنهُّدات ساكنيها. ومن خلال نافذة أحد هذه المنازل، أمكن رؤية الشاب "فيلياس فاندر دورب" وهو يُقبّل ابنه النائم على وجنتيه، وعيناه مغمضتان ورائحة شعره الأشقر تفوح، ثم اختفى كل شيء في الظلام.

قام "بيير كلايس" متعرقًا في فراشه وأفرغ ما في جوفه بغزارة. كان المساء قد حلّ وغرقت غرفته في الظلام الرمادي لليلة مليئة بالنجوم والهواء الطلق والفضاء. حاول "بيير كلايس" وضع قدميه على الأرض، ولكنه انهار بعنف، وتفتحت جروحه. لم يشعر بالألم، ولم يرَ الدم الباهت يملأ الضمادات. وأخيرًا تمكن من النهوض متكئًا على الحائط وترنح حتى وصل إلى بنطاله الموضوع فوق قطعة أثاث صغيرة بالقرب من سريره. اضطُرَّ إلى أن يجلس على الأرض لكي يرتديه. ارتدى قميصه ثم تقيأ مرة أخرى وأخذ يترنّح تحت وطأة غثيانه وعيناه مغلقتان وعقله مضطرب. مرت عدة دقائق ثم نهض أخيرًا وخرج من الغرفة.

***

تعمدت "لويز ماك ألبين" الكذب وإخفاء بعض أهم الحقائق عن "بيير كلايس". لم تخبره أن قربة ماء وُضِعَ فيها مسحوق شديد السمية وقد سبق أن دفعت مقابل شراء سره من السكان المحليين، وهو مسحوق يمكنه - حتى بجرعات صغيرة - أن يُغرِق رجلًا في هذيان عميق وهلوسة لأكثر من عشرين ساعة. ثم إنها لم تخبره أنه منذ وصولهما إلى الكونغو، عانت هي و"جون ماك ألبين" انتكاسات حظ كثيرة، وأنهما فقدا الثقة تدريجيًا بـ"هارموني"، وأنهما كافحا لبناء البنية التحتية القليلة لمجتمعهما، وكانت مضايقات هطول الأمطار وارتفاع الحرارة وانتشار الحشرات لهما بالمرصاد وأن قلة من السكان الأصليين قد وثقوا بهم، ورأوا في قصة مغامرتهما بندًا إضافيًا من جنون البيض وأن الأشخاص القلائل الذين تبعوهم كانوا ضعفاء ومجانين، وأن "جون ماك ألبين" الذي طغت عليه الحُمّى والجرب والصرع، قد فقد عقله تدريجيًا هو أيضًا، ولجأ إلى "فيتوس لاتينا" وهو اسم مُجمَّع للنسخ المقدسة اللاتينية للكتاب المقدس التي مصدرها النصوص اليونانية التي أخذ معه نسخًا منها، وأنها كانت على وشك الاستسلام منذ مدة طويلة إذا لم تفهم بسرعة أن المشروع بأكمله يقع الآن على عاتقها، وأنها إذا لم تعد تؤمن به، فإنها لا تستطيع أن تتخلى عن فكرة "هارموني"، وكأن الوضع أشبه بأنها اقتربت بشدة من الجحيم، ولم يتبقَّ لها أمل سوى الجنة.

ثم إنها لم تخبره أن "شي شياو" و"سيلو" و"محمد هجرس" قد وصلوا إلى جماعتهم وهم في شدة الإرهاق والمعاناة، وقد انتابهم الاشمئزاز والتخبط من التوغل في العنف كما كانوا في حالة نفسية سيئة، ومع أن "سيلو" كانت في شدة الغضب، وشعرت بأنها أكثر تورطًا في الأحداث فهي

لم يعد بوسعها شيء سوى البكاء، ثم إن الروح الجميلة النقية التي يملكها "محمد هجرس" قد ذهبت أدراج الرياح، أما "شي شياو" فقد كان ينتظر الموت بالقرب من "بيير كلايس". وأخيرًا لم تُخبره كم كانت هي و"جون ماك ألبين" مفتونين بمغامرات ضيوفهما الثلاثة، وأنهما رأيا في فن التقطيع البشري وقداسته، الخلاص الوحيد لـ"هارموني"، يبدو أنها الطريقة الوحيدة لإطلاق إمكانيات صواعق النشوة اللازمة للخلاص من القبح والبشاعة، وكأنه شعاع ضوء أضاء نفق أحلامهم المظلم، وذكّرهم بليالي حب "سانت أندروز"، ولذلك فكلاهما لم ولن يكفّا عن الضغط المستمر على "سيلو" ورفاقها حتى يوافقوا على إدخالهم في هذا الفن الأزلي السري، وتزامن التغافل عن قول كل هذه الأشياء لـ"بيير كلايس" قرارهم بتخدير "فريديريك جوليو سان كور" ورجاله الاثني عشر وتقييدهم لتقطيعهم في المساء نفسه من أجل التدريب على تعلم هذا الفن.

***

خرج "بيير كلايس" في الليل وتراءى لعينيه توهج هائل لذلك الوجه الشاب لأبيه "فاندر دورب"، ورآه وهو يقبّل ذلك الطفل الأشقر قبل نهاية العالم. وظل مشهد الوجه الأبيض المقبل على الشعر المجعد الأشقر مألوفًا لديه، كما لو كان في إمكانه أن تشعر حواسه بوجوده ومدى الحب الذي يُكِنه له. واستمرت صورة الأب الشاب والخصلات الشقراء في المثول أمام عينيه بعد أن اجتازت الرؤى واجتازت جحيم النيران التي اشتعلت بعيدًا، وأنارت الديار القليلة لذلك التناغم المزعوم الذي أُجهِضَ في مهده، حتى استقرت في قلب إفريقيا، بعدما أصبحا كالغائب الحاضر من كثرة تسمم دمائهما من جراء أمراضهما وهما يجتازان الأنهار حتى كان قدرهما أن يتقابلا في النهاية. وقد فُطِرَ قلبه الوجه الشاب لأبيه "فاندر دورب" الذي لا يفارق مخيلته، ذلك الأب الذي حطم حياته وأفسد عليه صباه، وقتل براءة الطفل الذي سيكبر يومًا ما، ويصبح ذا رؤى نافذة ومُشوَّهًا وسيقضي على تلك الظلال المتحركة بالقرب من النار المستعرة.

رأى "بيير كلايس" "شي شياو" وقد تعاظم شأنه كالقديسين، كان شبه عارٍ وقد جذب انتباهه وجهه الرقيق دون كل الآخرين. لم يستطع "بيير كلايس" الكلام محاولًا فتح فمه كأنه شخص يحتضر وقد بدت في عينيه علامات النهاية الوشيكة، مثلما يكون الطفل على وشك البكاء ويطلب من البالغ في صمت أن يحتضنه، فهم "شي شياو" هذا الطلب دون أن ينطق به "كلايس" التائه، وقبّله محاولًا تهدئته - وقد اتسخ وتعرّق شعره - هامسًا في أذنه:

- كل شيء على وشك الانتهاء.

خُدِّرَ "فاندر دورب" أيضًا. كان قد استيقظ مثل "بيير كلايس" في غرفة أشبه بثكنة صغيرة

مؤقتة. راوده شعور الخطر والقلق على ابنه. خرج بعد حلول الظلام ورأى المباني الأخرى في الظلام واعتقد أنه في مركز بلجيكي للتجارة. تجوّل كما لو كان في منام ثم فتح الباب ورأى "بيير كلايس" نائمًا فاقترب بهدوء وقبّل جبهته ثم تكلم بصوت خفيض قائلًا:

- سامحني يا بني.. سامحني.

فتح "بيير كلايس" عينيه ثم أغلقها. وخرج "فاندر دورب" في ظلام الليل مرة أخرى.

وجد "جون" و"لويز ماك ألبين" "فاندر دورب" في الصباح الباكر جالسًا يدخن خارج باب غرفته. كان ذلك في فجر اليوم الأخير ودَعَوَاه لتناول الفاكهة معهما وشرب القهوة. أدرك "فاندر دورب" أنه كان قد قابل "جون ماك ألبين" في الماضي وتعرَّفه، في حين اكتفى "جون ماك ألبين" بابتسامة مقتضبة وأومأ برأسه. رَوَت "لويز سويني" مغامراتهما، وهي الروايات نفسها التي ستقصها بعد ساعات قليلة على "بيير كلايس". دعت "فاندر دورب" لأن يأخذ قسطًا من الراحة وعرضت عليه قارورة شُرب كاملة.

استيقظ "فاندر دورب" في عالم من الأحلام. رأى نارًا كبيرة مشتعلة بعيدًا، صُلِبَ المسيح فيها ثلاث عشرة مرة، اثني عشر جنديًا للملك "ليوبولد الثاني" وقائدهم. كان الصيني هناك وطلب من "فاندر دورب" الجلوس والمشاهدة.

***

رُبِطَ الجنود الاثني عشر و"جوليو سان كور" عراة مكتوفي الأيدي، إلى أغصان طويلة. كان نخاعهم قد فُصِلَ حتى لا يتمكنوا من تحريك شيء إلا وجوههم فقط. فتحوا أفواههم وأعينهم بصمت، مثل عيون الأسماك المختنقة. وقد ألقت نيران الأخشاب والأغصان بأضواء ساطعة وظلال متراقصة، وقد فصلتهم الأضواء عن الظلال التي بدا أنهم ينتمون إليها، وعن الليل الذي جعل أجسادهم صفراء شاحبة والذي يبدو أنهم سيعودون إلى سواده.

اجتمع حولهم أفراد جماعة "هارموني"، وبدت "لويز" و"جون ماك ألبين" كأنهما زوجان ينتميان إلى عالم آخر موازٍ، وقد تشابكت أيديهما وبجوارهما "بيتيجيوم" متسول الغابة. بالإضافة إلى بعض الحمقى من الرجال والنساء من السكان الأصليين الذين كسرهم الألم. ولاستكمال مراسم تجمع الأشباح هذا، أعد "محمد هجرس" و"سيلو" و"شي شياو" شفراتهم وكانوا قد خلعوا ملابسهم.

خرج "بيير كلايس" من الظل واستقبله "شي شياو".

"كل شيء على وشك الانتهاء".

مرر "شي شياو" يده برفق في شعر "بيير كلايس" الذي شعر برجفة الموت من هذه المداعبة الأخيرة. إنها حافة الموت. أمسك "شي شياو" بشفرته واقترب من أحد الجنود المقيدين. خرج صوت صفير من الذعر من حلق الشاب.

بحركة سريعة شق "شي شياو" الجلد الذي يغطى عظام الترقوة. سال لعاب الجندي من الخوف. واصل "شي شياو" التقطيع على طول الضلوع ثم فتح عظام القفص الصدري. تحشرج صوت الجندي وأخذ يتلوى مثل ثعبان راقد، يزحف في مكانه، يتلوى من الموت كما يتموّج الراقص. ثم استكمل "شي شياو" فتح بطنه.

كان "بيير كلايس" - مهندس المساحة المُكلّف من الملك "ليوبولد الثاني" - يحدق إلى الرجل متماشيًا مع الشفرة التي كانت تفصل الجلد والدهون والعضلات. ذهب كل الألم منه. لقد شعر أن الشفرة التي تقطع الجندي، كانت تقطعه أيضًا، وشعر بأن جروحه القديمة يُعاد فتحها تحت ضماداتها وفقًا لحركات "شي شياو" الدقيقة. سرعان ما قُطِّع مرة أخرى وتفتت لحم جسده بلطف دون أن تلمسه أي شفرة، كزهرة لم تتفتح بعد، ظل لحم جسده متماسكًا تحت الأنسجة التي أحاطت به. سرَّع "شي شياو" من وتيرة حركاته ودار حول الجسد الذي ينحته كتمثال دموي. تفتحت جروح "بيير كلايس" خفية وتلونت ملابسه باللون الأحمر.

سُلِخَ الجندي الأول بالكامل ونُزِعَت أحشاؤه وهو لا يزال حيًا. تراجع "شي شياو" بضع خطوات إلى الوراء ليتأمل عمله الفني. قال "جون ماك ألبين":

- رائع! رائع حقًا! صديقي "فاندر دورب"، ألا تجد هذا مثيرًا للإعجاب؟

أدرك "بيير كلايس" كل شيء. عندما سمع اسم "فاندر دورب"، أغمض "بيير كلايس" عينيه وفهم لغز الوجه الذي كان يطارده في ذهنه وفي أحلامه. ذلك الوجه الذي كان يقبّله. عرف هوية صديقه "فان دي بور" وفهم أنه قد سافر حتى قلب الجحيم بصحبة والده وأن الأوان قد فات الآن.

وقف "بيير كلايس" بصعوبة وترنح حتى وصل عند "جون ماك ألبين" الذي نظر إليه بلا حَراك، مبتسمًا وهو يومئ برأسه. أمسك "بيير كلايس" بالمسدس المعلق من حزام قس "هارموني" ثم حشاه ثم استدار وصوَّبه على رأس "فاندر دورب".

نظر الرجلان إلى بعضهما وتحدثت عيناهما وهم يبكيان.

- لم تركتني؟

- أرجوك سامحني.

سادت لحظة صمت ثم أطلق "بيير كلايس" النار وقد انحرف في اللحظة الأخيرة عن مسار المسدس. مرت الرصاصة فوق "فاندر دورب" واخترقت جدار ألواح سقيفة صغيرة خلفه. احتوت السقيفة على عدة صناديق من أعواد الديناميت المسروقة من شركة سكة حديد الكونغو التي اشتراها "ماك ألبين" من مهربين من أجل حفر أساسات "هارموني"، والتي لم يبدأ العمل فيها، وكان الديناميت متروكًا هناك منذ عدة أشهر. لم يكن "ماك ألبين" على دراية بأنه مع مرور الوقت والحرارة المرتفعة، سوف يحدث تسريب للنتروجليسرين السائل الخطر من عصيان الديناميت. كان ارتطام الرصاصة بإحدى العِصي كافيًا للغاية لبدء سلسلة من الانفجارات واختفى الجميع في خضم الانفجار الهائل.



暗黑

لقد طال الانفجار الجميع وقتل معظمهم على الفور. فتح "بيير كلايس" عينيه. كان الانفجار قد نسف ضماداته وتفتحت جروحه مثل ثنيات متفتحة من اللحم. لم يدرك على الفور أنه فقد ذراعه، أو أن جزءًا من جذعه قد تمزق. كانت ضلوعه في الجانب الأيسر قد طارت حرفيًا. ورأى قلبه المكشوف ينبض في ظلمة الليل، مثقوبًا بالنجوم. وقد طارت حشرات ضخمةِ ذات أجنحة عملاقة حوله، ودارت ببطء على ارتفاع قلبه المصاب الذي ينبض بصمت. العديد من الحيوانات والقطط البرية والقرود والثعابين والطيور تحوم بعيدًا، وتُشكّل دائرة من الظلال الخفية والعيون الواسعة. سَمِعَ صوت أنفاس، ونظر "بيير كلايس" إلى أعلى. وجد أن السماء كأنها انطبقت، وسقطت أوروبا رأسًا على عقب على الأرض، قريبة جدًا لدرجة إمكانية تمييز كل جسم وكل مبنى وكل حقل. تتهاوى أوروبا مثل جدران مسرح متهالك. رأى "بيير كلايس" "بروج" وبروكسل تشتعل فيهما النيران وسمع صرخات مئات الآلاف من الرجال والنساء الذين قُطّعُوا أحياء وهم مكتوفي الأيدي وفقًا لطريقة "لينجشي" الدقيقة، ذلك الفن الخاص بالتقطيع البشري.

كل واحد منهم لم يبقَ منه سوى كومة من الأعضاء والدماء المسكوبة فقدت معنى الحياة إلا من عين مفتوحة على البشاعة والخوف من الحقيقة والواقع، تلك السوائل التي تتدفق في الأوردة وتبكي الأجساد دموعًا وبولًا ودمًا، عين حساسة للضوء، فقدت أطرافها، وقد غُرِسَتْ في كومة من الحياة المنتهية، مثل جوهرة داخل شقوق الجلد، أو كما تعيش بعض القواقع الطفيلية على جلود الثدييات البحرية وتنحرف في آلاف الفتحات البذيئة مثل اليرقات في اللحم، مفتوحة على الخلود والوحدة والصمت عندما يموت جميع الأمهات والآباء، بل والأسوأ من ذلك، حينما تأكلهم متاعب الحياة، ويعودون بأمراض وأحزان، يخنقون بأيديهم أبنائهم وبناتهم قبل أن يأكلوهم بأسنانهم الصفراء ويحرموهم من حياتهم، بل يقتلوهم في كل لحظة بألف طعنة ألم.

رأى "بيير كلايس" خطيئة أوروبا الكبيرة، تلك الخطيئة الهائلة التي لم تعد تؤمن إلا بالموت، والآن تفتح عينًا كبيرة على البشاعة والنهاية، برق النهاية قبل أن يموت كل شيء. واقتربت الحيوانات من "بيير كلايس" بعضها يرتدي أقنعة وبعضها يرتدي جواهر من الذهب، أما البعض الآخر فكان ينظر إليه كما يطلع الإنسان على عالم موازٍ من الجهة الأخرى للوعي، كما تنظر الأرواح والآلهة، واقترب جميعهم أكثر، وأخذوا يضيقون دائرة صمتهم ونهايتهم، يحاصرون القلب العاري إلى وسط دائرتهم، حيث تكمن النبضات الأخيرة لأوروبا الحبيسة.

عند قدم "بيير كلايس"، رقد رأس "شي شياو" الذي مزقه الانفجار، يشع منها الحب والحياة، أما العينان كانتا في ظلام الليل تنطق بلا هوادة، على طرف شفتيه في صمت، هذه الكلمة

الغامضة: ظلام.

暗黑

شكر

أشكر "بليز ندالا" و"دوليا لينجيما" المستشارين في شؤون الكونغو. وأود أن أعبر عن تقديري لـ"رويي جين" و"أندرو نج" على الرموز على صندوق "شي شياو" وعن تقديري لـ"إفلين بيليان" على الكلمات الفلمنكية للقرد "ليوبولد". شكرًا لـ"جوليان ديلورم" الذي أعطاني بكرمه كتابًا جميلًا عن الخيال الغربي للتعذيب الشرقي، وشكرًا لـ"مايكل لاشانس" الذي أرشدني إلى الاقتباس المظلم لـ"جوته". وأخيرًا، شكرًا لـ"ميلين بوشار" على المراجعة الدقيقة وشكرًا لـ"سيمون فيليب توركو" على ثقته وتشجيعه وشكرًا طبعًا لـ"ستيفاني ترمبلي" لوجودها ودعمها.

---

(1) وقد كُتِبَ الاسم بالخطأ في التهجئة هذه المرة، وربما كان خطأً عارضًا للمحررين الناطقين بالفرنسية تجاه الأسماء الفلمنكية. وسنرى عاقبة عدم تحري الدقة وأهميتها في سرد الأحداث التاريخية.